عبقري الإصلاح

محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة . يليه فصل عن حياة القرية المصرية فى ذلك العصر . يليه فصل عن الجامع الأزهر فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية . لأننا نفضى من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة إلى تاريخ صاحب السيرة : أعظم من أنجبته القرية ونهض برسالة الأزهر فى عصره . عبقري الإصلاح والهداية محمد عبده . قدس الله روحه وأعاننا على التعريف بفضله والتعريف بواجبنا من بعده .

تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة . لنبسطها على ما نتحراه فى سير العظماء جميعاً . صورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن ومواقع الأمكنة وأرقام السنين بمقدار ما تمثله لنا من ملامح الصورة ومعالم الحياة التى تصورها . وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده إلى وفاته . فالذي نتحراه منه أن يكون عضواً من أعضاء قوة حية . قبل أن نتحراه جزءاً من فترات التاريخ أو جزءاً من الخريطة الجغرافية . ويملي لنا فى مقصدنا أن صاحب هذه السيرة – خاصة – ينبوع قوة روحانية تطوي عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة إنسانية . يخلص لنا منها بعد تمحيص الجوهر عن نفايات الأوشاب والأخلاط . أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان . فى العالم الخالد الذي يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس .

وسنبلغ مقصدنا من هذه الصفحات إذا جلونا بها صورة يلتفت إليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل فيجدون أمام أعينهم – محمد عبده – إماماً هو

أولى أئمة العصر أن يأتم به المقتدي فيما اضطلع به من أمانة العقيدة ، وأمانة الفكر . وأمانة الخبر . وأمانة الحق . وأمانة الاخلاص للخلق والخالق . فى كل ما يتولاه الإنسان – الجدير باسم الإنسان – من نية وعمل . ومن سر وعلانية .

عباس محمود العقاد

العصر

قيل إن أحلك ساعات الظلام هي ساعة الخزيع الأخير من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات .

ويصدق ذلك على أوقات الظلام فى عصور التاريخ . فإن أظلم أوقاته لهو الوقت الذي يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات . ثم تأتى اليقظة فى حينها فإذا هي بصيص النور الأول . قبل تباشير الصباح .

وعلى هذه الوتيرة كان القرن الثامن عشر فى الشرق العربى أحلك ساعات ليله الطويل : ليل الجهالة والجمود . ولم تكن بين العصور نسبة متصاعدة فى ترتيب الزمن كتصاعد الأرقام فى حساب القرون . فلم يكن القرن الثامن عشر – مثلاً – أعرق فى النكسة و « الرجعية » من القرون التى تليه إلى أواخر القرن السابع عشر الذي بدأت به نهضة العالم العربى فى العصر الحديث . بل كان القرن الثامن عشر أسوأ – ولا ريب – من أسوأ القرون التى تقدمته فى أيام الجهالة والجمود . لأنه القرن الذي انبعثت فيه المسألة الشرقية من بقايا الحروب الصليبية . فكان نذير الخطر الأكبر . إذ كان الخطر قد تفاقم وتراكم . وتجمع وتوسع . حتى لا مزيد .

وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض . فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية انتزاع الأقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض – كما قلنا فى كتاب ضرب الإسكندرية « هو تقسيم أقطارها جميعاً من مسيحية وإسلامية وتبادل الإعضاء عن كل نصيب متفق عليه يقع فى قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها بقيد الحياة » .

غير أن المسألة الشرقية صنعت من المعجزات فى إيقاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية .

لأن الشرق العربى انتصر على الغرب فى تلك الحروب ورد عادية الدول الأوربية عن ذماره فقنع بما انتهى إليه وبقى على حاله التى هو فيها . وهبط من بعدها دركة تحت دركة . حتى أصبحت أممه بين موروث بقيد الحياة . وبين ميراث كأسلاب الغنيمة مقسم فى من يقدرون على السلب والاقتسام .

لكن المسألة الشرقية جاءت فى أوانها هذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب . وكان سر هذه المعجزة أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه ونقصه . وعلمته قهراً ما كان يأبى أن يتعلمه باختياره . فأدرك حاجته إلى التغيير العاجل . وأدرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته إلى علم يجهله . واعتقاده أن أمم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه . وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التى انتصر بها على أعدائه . قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير الفناء أو التغيير . ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من المنتصرين عليه فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا واتخذلوا ، فلا نجاة لهم بغير الرجوع إلى الدين الصحيح ، مبرءاً من لوثة البدعة والخرافة ، سليماً من شبهة الدجل والغفلة .

فإذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق فى سياسة واحدة تريدها وتتعمدها ، فهناك كما قلنا فى كتابنا عن الكواكبى « سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها الشرق منها فهب لمقاومتها . وتيقظ لمطامعها . ونزل معها فى ميدانها الذى استفزته له باختيارها وبغير اختيارها . . . ونقصر القول على الشرق العربى كما كان فى أواسط القرن التاسع عشر . . فى تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصة كبيرة من الحكومة الذاتية . وكان لبنان قد خرج بعد الفتن والأزمات بنصيبه المقرر من الامتيازات الداخلية . وكادت جزيرة العرب أن تنعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تمتد منها إلى العراق . وكان العراق فى صراعه مع حكم المماليك يتقدم فى خطى سراع إلى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوباء . . ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الإصلاح كانت ضرورة لازمة ولم تكن إنعاماً ولا إحساناً من ولاة الأمور إذا نظرنا إلى بقاع العالم

العربى فلم نجد فيه بقعة واحدة رضيت بما هي فيه ولم ينهض أهلها للمطالبة بنوع من الإصلاح على نحو من الأنحاء . فتحرك السودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب فى ثورتها بل فى ثوراتها التى تكررت ولا تزال تتكرر إلى اليوم . وصدق على العالم العربى بين أطرافه المترامية قول القائلين فى الغرب : إنه مارد خرج من القمقم ولن يعود إليه ، وكان فى الحق مارداً هائلاً يتململ فى الأسر ليخرج من قمقمه المظلم المحصور ، ولكنه لم يكن مارداً معصوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمقم أو كما أرادوا أن يتصوروه إذ كان للمارد زمامه فى أيدي الهداة من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الأولين . وكان لهذه الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالدمنذ الأزل . طابع العقيدة والإيمان . وربما قال الجامدون قبل المجددين إن الأوربيين عملوا بأدب الإسلام فأعدوا العدة ونظروا إلى حكمة الله فى خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون » . .

* * *

ونحن الآن نغتبط بالمصير الذي انتهت إليه المسألة الشرقية بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن واجب العظة الصادقة يتقاضانا أن نذكر فى كل حين أن الشرق لم يكن سريع الخطى فى انتقاله من دور الجمود إلى الخلاص . لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضاً عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله فى اتباع الجديد على علاته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا إذا نحن لم ننبذ الجديد بقضه وقضيضه . وكأنما خرج المارد من القمقم إلى فضاء الأرض والسماء ولكنه خرج إليه مكبلاً بالأغلال والأعباء التى تثقل الرءوس قبل أن تثقل الأقدام ، ولبثت كل أمة من أمم الشرق الأدنى تنتظر القارعة التى تخصها بالعظة بين جاراتها وأخواتها التى تشبهها فى المصاب وتشبهها فى المصير ، فلم تتعظ أمة من هذه الأمم بمصاب غيرها على النحو الرشيد الذي يعفيها من تكرار الجهود وابتداء المسير من جديد . وكأنما أثقال الماضى أكبر وأخطر من دواعي اليقظة والحركة فى الحاضر والمستقبل . فبقيت هذه الأمم المتيقظة تجرجر وراءها تلك الأثقال شوطاً بعيداً بعد استقامتها على منهج الإصلاح المحتوم .

وفى مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة الكبرى التى خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة .

– وربما كانت الغلبة العسكرية أضعف تلك الدروس أثراً ، لأن هزيمة المماليك لم تقع من الأمة موقع الدهشة ولم يصعب على الذين كلفوا أنفسهم تدبر عواقبها وأسبابها أن يردوها إلى غضب الله وأن يعتبروا بعبرتها عقاباً للقوم على الظلم والطمع وسوء السيرة وغلبة الترف والنعومة فى الكثيرين منهم على صفات البأس والنخوة كما قال شاعر الجبرتى :

إنما هـذه الـبلاد لأقوا م حموها بالصارم المسلول
وأرى دولة المماليك مالت لشروب اللذات (كل مميل)[1]
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح بقوام لدن وطرف كحيل

ولكنهم علموا أن ظلم المماليك قد يسوق إليهم من يغلبهم ويقهرهم ، ولكنه لا يضع فى يد الغالب القاهر سلاحه الذي يصول به على عدوه فيقهره ويستذله وإن لم يكن أحمد منه سيرة وأقل منه فساداً كما شهدوا بعد ذلك من سيرة « الفرنساوية » فى هذه الديار ، ثم نظروا فعلموا أن نابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق وهو الجيش الذي سماه الفرنساوية فى المدينة . « وأفردوا للمدبرين منهم والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت . وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . وكان فى تلك المكتبة زيادة عن الكتب العلمية والتاريخية أطالس فيها صور من سلف وصور الأماكن التاريخية وخرط البلاد والمدن والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم

(١) فى نسخ الجبرتى روايات لهذا الشطر صححناها بالظن هذا التصحيح .

وحوادث أممهم ، وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانه المختص بعلم الآلات الفلكية . وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السفاري وهم المصورون لكل شىء ، ومنهم أريجو الذي أبدع تصوير المشايخ المعينين بالمجلس ، وفريق منهم يخطون الحيوانات والأسماك . وأفردوا أماكن للمهندسين وسكن الحكم (رويا) ببيت ذي الفقار كتخدا ونظم دار الأدوية به ومعه عدة من الأطباء والجراحين ، وأفردوا مكاناً فى بيت حسن كاشف شركس لعمل التحليلات الكيميائية والظواهر الطبيعية . وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والأخشاب »[2] . .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغريبة بعد النفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها « بضاعتنا ردت إلينا » وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا فى المشرق ما أهملناه وضيعناه فبلغوا به من القوة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً . ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوه . وممكن لأذكياء البلد من هذا الاعتقاد أنهم نظروا إلى الجلة المختارة من علماء القوم فرأوهم يجدّون فى البحث ولا يترفعون عن التمرغ بالأتربة والخرائب ليكشفوا بين ودائعها عن أسرار الكيمياء والفلك وأخبار الري والزراعة ، ولم يتورعوا عند سفرهم عن حمل ودائع المساجد وخزائن الكتب بما اشتملت عليه من المخطوطات المطلوبة والنسخ النادرة . تنفيذاً للمادة الحادية عشرة من شروط الصلح الأخير التى تنص على : « أن أرباب العلوم والصنائع يأخذون معهم جميع الأوراق والكتب مما لا يخصهم فقط ، بل كل ما يرونه نافعاً لهم » .

* * *

وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منا ، وآن لنا أن نردها إلينا .

(٢) الجبرتى وتقويم النيل وغيرهما . .

ولكنها كانت فكرة تحوم بين بعض الرءوس ولا يظهر لها أثر فى الحياة العامة . لاختلاف وجهات النظر بين طلاب الجديد على علاته وأعداء الجديد بحذافيره . ولأن التجديد فى الحياة العامة مطلب تتولاه الهيئات المنظمة والحكومات المطاعة ولا يستقل به الأفراد فى جهود مبعثرة وآراء متضاربة . فلما قامت فى مصر أول حكومة ذاتية بعد حملة نابليون لم تلبث أن أحست وطأة الضرورات العملية وإلحاح المطالب الموقوتة . ولم تكن هذه الضرورات مما يحتمل التسويف بين الآراء المتشعبة والوجهات المتعارضة . ووجب على ولاة الأمر أن يوطنوا أنفسهم على مصير كمصير المماليك أو يبتدروا الزمن إلى الانتقاع العاجل بتجديد التعليم والتصنيع . فأخذوا فى بناء المدارس وإرسال البعوث وإنشاء المصانع وتنظيم الدواوين وضبط موارد الثروة . وعملت المطبعة عملها فى نقل المؤلفات النافعة وإحياء الذخائر السلفية . وتداولت أيدي المثقفين القلائل كتب الأجانب فى علوم التاريخ والفلك والجغرافية والطبيعة والكيمياء وشئون الحكم والاجتماع . كما تداولت كتب الأدب والثقافة من آثار السلف المهجورة . واتجهت الهمم إلى جمع هذه الآثار من مظانها فى المساجد والزوايا وخزائق القصور . فلم يمض جيل واحد بعد الحملة الفرنسية حتى ظهر « الرجل المثقف » فى البيئة المصرية ولم تخل منه بيئة من بيئات التقليد والرجعة إلى القديم وهى على عادتها فى الأزمنة المختلفة أعدى أعداء التحول والتجديد

وشرط الرجل المثقف فى كل عصر أنه « ابن عصره » وأن طابع عصره يلازمه فى تفكيره وعمله كما يلازمه فى نظرته إلى العالم من حوله . فلا يعيش فى الزمن الحاضر بعقل الزمن الماضى . ولا يترجم الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة . وقد وجد هذا الرجل المثقف فى كل بيئة من بيئات التقليد والتجديد . فثبت طابع العصر على أبناء القرن التاسع عشر قبل انتصافه . ولا نعنى بثبوت طابع العصر فى تلك الفترة أنها أخذت كل ما يعطيه العصر من علومه وفنونه وأفكاره وخواطره . ولا أن المثقفين فى الأمة غلبوا على أفكارها وخواطرها أو غلبوا على كل ما بقى فى رءوسهم وصدورهم من ميراث ماضيهم . ولكنا نعنى

أنهم استطاعوا أن يفتحوا أعينهم على النور بعد الظلمة . فأبصروا غاية ما تمتد إليه تلك الأعين من منظور معروض بين أيديهم تحت أضواء النهار . ولم يزل فيهم بعد ذلك حديد النظر وكليله . بل لم يزل فيهم من هو طويل النظر ينظر إلى البعيد ولا ينظر إلى القريب بين يديه . أو ينظر إلى القريب اللاصق به ولا يعدوه إلى ما وراءه .

كان القرن الثامن عشر أحلك ساعات الليل قبل مطلع الفجر ، فلما طلع الفجر وأشرق من بعده النهار تيسرت الرؤية لمن يستطيعها كما تستطيع عيناه ، وهذا هو الفارق بين المثقف ابن عصره فى منتصف القرن التاسع عشر وبين الجامد على قديمه قبل ذلك بخمسين أو ستين سنة . فارق بين من ينظر بعينه و بين من يتخبط فى الظلمة أو يقاد .

من هؤلاء الناظرين بأعينهم إلى النور بعد منتصف القرن التاسع عشر . بل فى الطليعة من أولئك الناظرين البصراء إلى حقائق زمانهم . نابغتنا الريفى الأزهرى الذي علم علم اليقين ، بل آمن إيمان الدين المتين . أن « التقدم العصري » رهين بعلوم لنا أهملناها وهجرناها . وعلوم للمعتدين علينا سبقونا إليها ولم نلحقهم فى غير القليل منها . وهي حقيقة من « بديهيات » أيامنا هذه بعد منتصف القرن العشرين . ولكن نابغتنا الريفى الأزهري – محمد عبده – كان يقررها بعد منتصف القرن التاسع عشر فيجد أمامه من يخاطبهم بمثل ذلك المقال الذي كتبه فى صحيفة الأهرام الأسبوعية وتحرى فيه أن يكتبه بأسلوبه المخضرم بين القديم والحديث فقال :

« ليت شعري إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدي الإسلام وغذيت بلبانه وتربت فى حجره وتقلدت فى إيوانه منذ زمن يزيد على ألف سنة . . فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان . . لا بد لنا من اكتسابها وبذل المجهود فى طلابها ؟ . . كنا نؤمل أن المينج يفيق بشم روح النوشادر . . فى زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم أنحاء الكرة على العموم . . وظهر فيه التوازن بينها وبين أحوالنا المهجنة ، كثرونهم

وفاقتنا ، وعزّهم وذلتنا ، وقوّهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التى لا تعد . لكن صمت الآذان وعميت الأبصار ، ختم الله على قلوبهم وسمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »[٣]

وقد كان الشاب محمد عبده يدعو هذه الدعوة وهو فى الطليعة من أبناء جيله ، ولكنه سجل بها طابع العصر كله من منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، ومن هزيع الليل الأخير ، إلى مطلع النهار .

(٣) أحد فصول كتيبة كتبها سنة ١٢٩٣هـ .

القرية

إذا أحاطت ألفاف الظلام ببقعة من الأرض خفيت معالمها ولم يتبين منها موضع من موضع ، وخيل إلى الناظر إليها على البعد أنها خلاء بلقع أو أنها مسكن مهجور لا يأوي إليه ديار ، ولا ينبعث منه بصيص نور .

ويقترب السالك إليه فلا ينمحى أمام عينيه آية الظلام ، ولكنه يرى معها شيئاً غير الظلمات التى أطبق بعضها على بعض ، شيئاً من النور هنا وهناك ، بين سراج ضئيل على باب دار ، أو فتيلة خافتة عند زاوية جدار ، أو نار تشب للهداية ، أو موقد يضرم للطعام : شيئاً آخر من بصيص النور غير ألفاف الظلام .

على حالة مثل هذه الحالة كانت صورة القرية المصرية فى العصر المخضرم بين أواسط القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر :

صورتها من خلال التاريخ العام ظلام وموات ، وصورتها من قريب تتجلي عن شيء غير الظلام والموات ، بصيص من النور ورمق من الحياة .

ينظر القارئ فى صفحات التاريخ العام منذ قرون ترجع إلى ما قبل الميلاد ، فلا يفرغ من قصة دولة طاغية إلا ليبدأ فى قصة دولة باغية ، ولا ينتهى من حكم دخيل إلا لينتقل إلى حكم أصيل يضطرب بين الضعف والشقاق وبين العسف والجمود ، وينطمس فى أثناء ذلك كل ماتخلله من بريق هنا ووميض هناك ، فلا تنطبق الصفحات آخر الأمر إلا على ألفاف من الظلمات كتلك الألفاف التى تحيط بالسالك فى غياهب الليل فلا يبصر وراءها غير ظلام مطبق على ظلام .

وينتقل قارئ التاريخ العام من تاريخ القرية على حدة فيرى شيئاً آخر إلى جانب الطغيان والمذلة : شيئاً من العزة هنا ومن السخط هناك ، وشيئاً من الشعور بغير

التسليم وراء كل تسلم ، ولكنه متفرق متقطع يراه الناظر إذا تبينه وفتش عنه ، ولا يكاد ينكشف له من النظرة الأولى فى نطاق أوسع من نطاق الآحاد منفردين متفرقين .

ومن الحق ألا يعجب قارئ التاريخ العام من هذه الصورة المختلفة للقرية المصرية فى تلك الفترة ، فإنه كان أحرى أن يعجب لتلك القرية أن تبقى فيها بقية من التربة المخصبة بعد جوائح القحط والجدب والاغتصاب والانتهاب وعوارض الجفاف من سوء الزرع وسوء الري أو سوء توزيع المياه إن فاضت به مجاري ، فإذا كان هذا كله لم يستنفد ذخيرة الخصب فى هذه الأرض العتيقة فلاعجب أن تبقى للنفس البشرية ذخيرة من قوة الحياة بعد أن أصابها من غوائل الزمن ما أصاب أرضها من خراب وجدب واغتصاب .

وواقع التاريخ العام ، عند التأمل فيه ، أنه لم يخل قط من دلائل القوة الكامنة وراء ظواهر التسليم والجمود ، وإن طال الكمون والجمود أحياناً إلى أجيال وراء أجيال .

فالتاريخ العام لم يخل من ثورة المقاومة بعد مظالم بناة الأهرام ، ولم يخل منها فى إبان دولة الرومان ، وربما كانت المسيحية المصرية شعلة من شعل هذه الثورة بما شرعته لأهلها من عقيدة تنكر عقيدة الدولة الحاكمة ، وربما ساقت إليه العازفين عن الطاعة العمياء من عزلة الدير ووحدة الرهبانية . . ومن أبى تلك الطاعة العمياء من غير أمل الخير والتقوى فلعله لم يحمل سلاح العصيان ولم يذهب مع العصب والمناسر إلا استباحة لعصيان الحاكم الظالم ، قبل استباحته للحرام من الأنفس والأموال .

وينبغي أن نذكر أن الحاكم الظالم لم يكن فى وسعه أن يستأصل جذور الحياة فى القرية لو أراد ، وأنه لم يكن له مأرب فى استئصالها ولم تكن له خبرة بوسائل استئصالها لو كان له من بعد النظر ما يخيفه من عواقبها فى الزمن البعيد . فأما مأربه منها فى حاضر وقته فكل همه منه محصول الزرع الذي يحمل إليه وهو قابع فى قصور المدينة ، ومن حمله اليه من أعوانه فهو فى تسخيره للحارثين

والكادحين لا يستغنى عن مسألة فريق منهم ومداراة آخرين ، بل عن بذل الرشوة لمن يعرفون فى القرية من العاملين والمتمردين .

وكان ملتزم الزرع والضريبة لأصحاب السلطان فى دولة المماليك أحوج ما يكون إلى تلك المداراة ، سواء فى القرى التى يملكها أبناؤها أو فى القرى التى تزرع على « الروك » كما كانوا يسمون الزرع المشاع بعد أيام الأيوبيين .

فالمالكون لأرضهم على قلتهم كانوا فى بلادهم أرسخ قدماً ، وأعصى مقاداً على الملتزم ، من أن يسوقهم بعصا الإكراه والتسخير ، وقد يرضى فريقاً منهم بالترامات صغيرة إلى جانب التزامه الكبير .

والزارعون فى أرض « الروك » غرباء عن الملتزم فى كل قرية غير قريته التى ولد فيها إن كان من أهل القرى ، أو هم غرباء عن مدينته إن كان من أهل العواصم البعيدين عن الريف ، فسبيله إليهم أن يرضى من يعرفهم وأن يحسب لهؤلاء حسابهم ، لأنهم إن كانوا أضعف بأساً من أن يقدروا عليه فهو أقصر يداً وأعجز وسيلة من أن يقدر عليهم أجمعين ، وأن يستفيد شيئاً من قدرته عليهم كارهين مضربين .

وقد كانت لموارد القطر كله حصيلة يحسبونها بالقراريط أربعة وعشرين قيراطاً موزعة بين الأمراء والجند ومرافق الدواوين وأعمال القناطر والجسور والأحواض ، وكانت من هذه القراريط حصة محجوزة لأولئك الرؤساء المقدمين بين أبناء الريف ، يسمونهم فى سجلات الدولة بالعلماء أو مشايخ العربان ، ويسمون « بأبناء العرب » كل من لم يكن من أبناء الترك والجراكسة وأعاجم الجند من كل قبيل ، فلم يكن « مشايخ العربان » كلهم بدواً يعيشون فى مضارب الخيام ، بل كان أكثرهم من الفلاحين والقرويين .

* * *

إن منفذ الحرية ، أو منفذ المقاومة ، أو منفذ الشكاية الذي بقى لأبناء القرى فى أواخر عهد المماليك ، قد يتمثل لنا فى حادث من حوادث كثيرة

رواها المؤخرون لتلك الفترة ، ولكن هذا الحادث قد جمع من مراجع السلطة وأساليب المقاومة واشترك فيه الأمراء والعلماء وجمهرة الشعب على مثال يستحق أن نفرده بالذكر فى هذا المقام .

روى الجبرتى فى الجزء الثانى أن الفلاحين فى قرية من قرى مركز بلبيس شكوا فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي كبير علماء الأزهر ظلماً لحق بهم من أتباع محمد بك الألفى أمير المماليك المشهور ، فأبلغ الشيخ شكواهم إلى كل من مراد بك وإبراهيم بك ليخاطبا الألفى بك فى هذه الشكوى ويطلبا إليه أن يكف أتباعه عما يوجبها ، وانقضى زمن على هذا البلاغ بغير جدوى ، فجمع الشيخ الشرقاوي علماء الأزهر وتشاوروا فى الأمر ملياً فانتهوا إلى إنذار الأمراء جهرة بالمقاومة واتفقوا على إغلاق أبواب الجامع ودعوة التجار وأصحاب الأعمال إلى إغلاق الدكاكين وحوانيت التجارة وإعلان ما نسميه اليوم بالاضراب العام ، ثم ركب الشيخ الشرقاوي والعلماء فى اليوم التالي وتبعتهم جماهير الشعب إلى منزل الشيخ السادات لإشراكه وإشراك أتباعه معهم فى مقاومة الأمراء حتى يستجيبوا إلى مطالبهم ، وكان لإبراهيم بك قصر بجوار بيت السادات فرأى هذه الجموع التى لا يكف عنها المدد مما حوله ، وهالته كثرتها فأرسل من يسأل عن سبب اجتماعها ، ثم علم بالسبب فلم يجسر على الذهاب بنفسه إلى مكان الاجتماع وأناب عنه الدفتردار أيوب بك لاستماع أقوال العلماء والسعي فى تحقيق ما طلبوه ، فعلم منهم أنهم يريدون كف المظالم وصيانة الأموال والأرواح ورفع المكوس والضرائب إلا ما يرتضيه الرعية ، فخاطبهم أيوب بك فى تخفيف بعض هذه المطالب والاكتفاء بتعجيل بعضها مما يستطاع إنجازه لوقته ، وقال : إن رفع المكوس والضرائب دفعة واحدة متعذر ، وأنه قد يرفع شيئاً فشيئاً وإلا « ضاقت علينا المعايش والأرزاق » ، فصارحه العلماء قائلين : إن الأمراء ينفقون الأموال فيما لا حاجة به ولا خير فيه ، وما الحاجة إلى إنفاق المال فى البذخ والترف والاستكثار من الجواري والمماليك ؟ إن الأمير يعطي ولا يأخذ ما فى أيدي الناس ، وإن الإنفاق على اللذات وضروب الزينة الخاوية إسراف وفضول .

ولم يستمع العلماء جواباً شافياً فى ذلك المجلس فباتوا ليلتهم فى حرم المسجد على أن يخرجوا فى الصباح إلى الميادين والساحات العامة معلنين الأمراء بخلع الطاعة والاستجابة إلى أحكام الشريعة ، فبادر إبراهيم بك إلى طلب المعذرة منهم وأحال التبعة فى رفض مطالبهم إلى إصرار المخالفين له من أمراء المماليك ، وعلى رأسهم صاحبه مراد بك ، وأبلغهم أنه يؤيدهم ويحارب فى صفوفهم إذا أصر المخالفون على الرفض والمراوغة ، وكاشف مراد بك فى الأمر مستحثاً له على عمل شيىء عاجل لتهدئة المدينة قبل انفجار الشعب كله بالعصيان .

وكان الوالي الأكبر يرقب الحالة لينظر ما يصنعه أمراء المماليك لتدارك الخطر قبل استفحاله ، فلما كان اليوم الثالث ولم يصنعوا شيئاً قصد إلى قصر إبراهيم بك وجمع هناك كبار الجند وأصحاب الكلمة النافذة فى عساكر المماليك وأرسلوا إلى العلماء والرؤساء يدعونهم للمشاورة ويعدونهم بإبرام الأمر على ما يحبون ، فحضر من رؤسائهم كل من الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ البكري ، وهم نواب الأمة المختارون لهذه الملمات : وانفض الاجتماع بعد طول الأخذ والرد بقبول ما طلبه العلماء وكتابة موثق بذلك على الأمراء أن يتبعوه ولا يخالفوه ، ووقعوا جميعاً على الحجة الشرعية ، التى تسجل هذا الموثق وخلاصتها : أن يدين الأمراء بقضاء المحاكم فى قضايا الحقوق ، وأن تفرض الضرائب بموافقة الرعية على حسب الأحكام الشرعية ، وأن يمتنع عدوان الحاكم بغير جريرة من المحكومين . وسميت هذه الوثيقة بالحجة الشرعية على عادة قضاة الشريعة فى تسمية هذه العقود ، ولو أنها كتبت فى بعض البلاد الأوربية لجاءنا خبرها مع كتب القوم فى علوم السياسة الحديثة بعنوان من تلك العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور الأكبر أو « الماجنا كارتا » وما إليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولكن العلماء الذين دعوا أمراء العصر إلى توقيع ذلك العهد لم يحسبوا أنهم جاءوا إلى الناس بعهد جديد غير التذكير بعهد كتاب الله وسنة رسول الله التى نسيها أولئك الأمراء . وكتب الموثق « حجة » عليهم بشهادة الرعية وشهادة « الأمة » التى تأمر بالمعروف من عباده العلماء .

* * *

وقد بقيت للقرية هذه البقية الصالحة من القدرة على المطالبة والشكوى من الظالم إلى ما بعد عهد المماليك بزمن طويل ، ولم تكن فى كثير من الأوقات كافية لرفع المظالم وكف يد الظالم . ولكنها كانت فى أحلك الأوقات كافية لتحريك القوة الكامنة فى قلب إنسان مؤمن بالعدل والخير متحفز للجهر بما يؤمن به حيث يجدي الجهر بالإيمان أو يجد له مستمعاً من القلوب والآذان .

وقد أرخ إمامنا صاحب هذه السيرة لهذه الظاهرة الاجتماعية فى تلك الفترة بعينها فقال رحمة الله فى مقاله عن محمد علي رأس الأسرة الخديوية إن الأمراء « اضطروا أن يخففوا من ظلمهم وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصاراً يؤازرونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهلون بحاجة الأمراء إليهم زادوا فى الدولة واضطروهم إلى قبول مطالبهم . فعظمت قوة الإرادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معاً . . نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به الحكومات الشرقية . وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى . وكان كل منهم يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى ما فى يد الآخر أو يدفع به صولته . فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم ، لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده . وكانت تعوزهم مؤنهم إذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد ، فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً ، ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون إليه ، فاتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء إليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البيوت المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم . . . وذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه فى التدبير واستجلاب النصير ، وإعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده والتمكن من إخضاع غيره ، وكان أنصاره من الأهالي يجارونه فى ذلك خوفاً من تعدي أعوان خصمه عليهم . . . وهذا يحدث بطبعه فى النفوس شمماً وفى العزائم

قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم مكانته » .

ثم انتقل إلى عصر محمد علي فقال ما فحواه إنه خاف على سلطانه من أبناء البلاد « فوجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (انا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه . وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام . ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه . . . فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة » .

ثم قال : « أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى إدارة حكومة أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟ . . . إنه أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها . فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلا . ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد . . . وظهر بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . وظهر بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير . والسبب فى ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس . . . فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج . فظهر أثر استقلال الإرادة فى الصناعة عند

أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين » .

* * *

ومن المحقق أن الخطة التى نسبها الأستاذ الإمام إلى محمد علي إنما كانت إحدى خططه المرسومة فى سياسته العامة التى أراد بها أن يحصر الأمر كله بين يديه وأن يجرد البلد من كل قوة تحدث نفسها بمقاومته أو الانتقاض على حكمه أو منازعته فى شأن من شئون الدولة سواء بدرت هذه المنازعة من جانب أبناء الترك كما كانوا يسمون المماليك عامة أو من جانب أبناء العرب كما كانوا يسمون الفلاحين عامة بغير تفرقة بين أبناء البادية وأبناء الريف ، وكان همه الأكبر أن يتخلص من أولئك السادةالذين رشحوه للولاية وتقدموا مرة بعد مرة لمحاسبة الأمراء من قبله ، لأنه علم أنهم قادرون على ترشيح غيره كما رشحوه وعلى محاسبته كما حاسبوا غيره . وخشى من جانب الريف أن يدين أبناؤه لصاحب جاه أو صاحب « عزوة » من اهله . وبخاصة بعد التحالف بين بعض أبناء الريف وبعض خصومه الذين هجروا العاصمة فراراً من القتل والغيلة ، ولم ينس محمد على أن قبائل الأطراف ربما استقلت بالحكم زمناً وامتنعت عن أداء الخراج لولاة الأمر فى القاهرة كلما اتهمهم بالمروق من سلطان الدولة أو بالجور على حقوق الرعية ، فلم يكفه أن يجرد أصحاب الجاه من قدرتهم على العصيان والإنشقاق ، بل حرص على تجريدهم من كل جاه لا يستمدونه منه ولا يرجعون به إليه .

غير أن الحاكم المستبد قد يستطيع أن يستأصل الغروس النامية ولكنه لا يستطيع – مهما بلغ من طغيانه وحرصه – أن يستأصل الجذور الكامنة فى أعماق أرضها ، ولا البذور المدنونة فى انتظار نبع يسري إليها أو سحابة تهطل عليها ، وتتركها لما قسم لها من الحياة فى تربتها .

ويظهر من سياسة الولاة بعد محمد علي أن سياسة التجريد والاستئصال لم تجرد الريف من تلك العناصر التى يحسب الوالي حسابها ويشفق من عواقب إهمالها كما يشفق من عواقب استئصالها . فإن الوالي محمد سعيد لم يلبث أن شعر بسوء

المغبة من هذا الإهمال وأدرك ضرورة الاستعانة فى حكم الريف ، فكتب إلى الأقاليم قبل انقضاء جيل محمد علي مراسيمه التى يقول فى أحدها بعد تمهيد وجيز : « وقد سنح لخاطرنا أن أجعل الحكام ممن يوثق باعتمادهم فى الأمور الدينية والمدنية من عمد أبناء العرب بنواحي المديريات مع أبناء الترك على سبيل التجربة وإبراز ما انطووا عليه من الثمرات المقصودة بالذات أو ضدها ، وهناك يكون الإقدام على تقدمهم أو بتعيين تأخرهم عن برهان واضح . فابتدأنا بتنصيب اثنين من عمد نواحي مديرية المنيا وبنى مزار نظار أقسام وجعلناهما موقعاً للتجربة وأمرنا مدير الجهة المذكورة بتنصيب جانب من العمد حكام أخطاط . والآن تعلقت إرادتنا أن يكون حصول ذلك بسائر الأقاليم فأصدرنا أوامرنا إلى المديرين عموماً وهذا إليكم لتنتخبوا من عمد أبناء العرب المجربين الأطوار المتصفين بحسن الاستقامة والسياسة من يليق بالتقدم لمناصب الحكومة وترتبوا نظار أقسام مديريتكم على الثلث منهم ، بأن يكون اثنان – هكذا – نظار أقسام من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، كما أن حكام الأخطاط يكون منهم ثلاثة من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، وقبل أن ترتبوهم أعرضوا علينا بيان أسمائهم وأسماء بلادهم وأقسامهم وأخطاطهم . . . » .

وازداد شعور الولاة بضرورة المعاونة بينهم وبين أبناء القرى على حكمها وولاية شئونها ، فشاعت الدعوة إلى الحكم النيابى فى عهد إسماعيل ، وكان من أغراض إسماعيل فى مجاراته لهذه الدعوة أن يستخلص بعض السلطة من الرقابة الاجنبية باسم الأمة ليتصرف به ما استطاع على أيدي أعوانه وأوليائه من الوجهاء وعمد الأقاليم ، ولكنه – ولا ريب – كان يعمد إلى هذه الحيلة لأنه يدرك أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطان الحاكم وضمان البقاء لصاحب الولاية الكبرى فى العاصمة ، ولم تكن ثورة عرابى فى عصر خليفته توفيق إلا أثراً من آثار النهاون فى اتباع هذه السياسة ، أو أثراً من آثار العدول عنها لتغليب عنصر « أبناء الترك » على عنصر « ابناء العرب » فى وظائف الجيش والحكومة .

على أن ودائع الخير فى القرية لم تكن فى عصر من العصور محصورة فى أبناء « البيوتات » التى تتميز بالجاه والمال وسعة الثراء من الأرض والعتاد ، فإن هذه البيوت نفسها لم تكن لتستقر فى مكانها لو لم يكن قرارها على أساس آخر مكين هو أساس الأسرة أو أساس « البيت » على الإجمال ، وليس بالنادر أن يكون البيت الصغير دعامة للبيوتات العالية تعزها وتعتز بها وتتصل جميعاً بوشيجة جامعة من النسب والمصاهرة ، وربما تعرضت البيوتات العالية لسطوة الحاكم المستبد إذا وقفت منه موقف المناجزة أو وقف منها موقف الحذر والريبة ، لأنه أقوى من كل بيت منها على حدة وأقدر على أن يأخذها متفرقة واحدة بعد واحدة قبل أن تأخذه دفعة واحدة وهي متفقة عليه . أما البيوت الصغيرة التى تتوارى عن بصر الحاكم الكبير وتغلب الظلم بالكثرة فهي الذخيرة الخالدة التى لا تفنى مواردها ولا يتأتى للطغيان أن يجردها من مروءة العرف التى تتوشج مع الشعور بحقوق القرابة والمصاهرة وحياء النسيب من النسيب ودالة الصغيرة على الكبيرة وكرامة الكبير على الصغير . وليس من شأن القروي الذي ينتمي إلى قرابة واسعة موفورة العدد من هذه القرابات المعروفة فى بلاد الريف أن يستكين إلى حاكمه الصغير فى القرية إلى غير نهاية ، وليس من شأنه أن يعجز عن النجاة بنفسه من جوار إلى جوار بين عشيرته وذوي قرباه ، كلما ضاقت به الحال وبلغ به الجور والنكاية غاية الاحتمال .

والأسرة على أوضاعها العريقة هي عصمة القروي من جور حكامه وعوارض زمانه سواء منها ما يتوطد بالجاه والعصبية القوية وما يتوطدبالعدد الكثير والنسب المتشعب والصهر المتجدد والعرف الموروث ، متلاحقاً متمكناً على مدى الأسلاف والأعقاب .

وقد صادفتنا هذه الحقيقة فى ترجمتنا لسعد زغلول كما تصادفنا الآن فى ترجمتنا لأستاذه وزميله محمد عبده . فقلنا فى فصولها الأولى « إن الآصرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ولم يتجرد المصري من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية » ، وذلك هو قوام

العرف الاجتماعي فى أخلاقه وعلاقاته ، وهو أيضاً قوام المحافظة المصرية التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق . والوصايا باتخاذ الأسرة معروفة فى الأدب المصري منذ آلاف السنين . ففى وصايا فتاح حوتب التى كتبت قبل أكثر من ستة وأربعين قرناً يقول الوزير لتلميذه : إذا كنت رجلاً ذا منزلة فاتخذ لك منزلاً وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها واكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طول حياتها . . . ولم تنس الوصية بتوقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا فى العهد القديم ، ففى نسخة من وصية عانى محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : اتخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولداً تربيه وأنت فى صباك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذي له عشيرة كبيرة . إن الناس يوقرونه من أجل بنيه .

« وفى هذه الوصايا يقول الحكيم ، ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وما نبذتك وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها إلى شكاية » .

« فهذه الرحمة البيتية قديمة لم تتغير فى الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم إلى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرأفة فى تلك الأجيال السحيقة الغربية ولو كانت رأفة الآباء بالبنين . . . فالمصري اجتماعي من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعي من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية » .

* * *

إن العصور المتطاولة قد استنزفت من ثروة القرية – أنفساً وأموالاً – غاية ما استطاعت أن تسلبه أو تفنيه مما لا يحصره الإحصاء ، وقد نحصره بتقدير الحساب فيكفينا أن نعلم أن تعداد أبناء مصر هبط إلى ما دون الملايين الثلاثة فى أخريات عهد المماليك بعد أن أربى على الثلاثين فى بعض عصور الفراعنة على تقدير بعض المؤرخين !

وربما هبط سكان القرى إلى نحو الثلثين على الأكثر من هذه الملايين الثلاثة التى بقيت فى القرن السابع عشر بعد الهجرة إلى المدن والفرار على غير قرار .

وجاء عصر الإقطاع بعد الدولة الأيوبية فصفى هـذا العدد تصفيته الأخيرة حين قسم أبناء القرى إلى فريق ملازم للقرية سماهم بالقراريين ، وفريق متردد بين القرى لا ينتسب إلى مكان معلوم منها سماهم بالفراريين . ومن ذلك الحين أصبحت صفة « القراري » عنواناً على العمل المتقن والصنعة المحكمة وقيل عن كل صانع يحسن عمله ويبالي أن يحمد عليه أنه قراري فى هذه الصناعة ، حتى بلغ من سوء استخدام هذه الكلمة فى غير موضعها أن وصف بها « اللص القراري » والمحتال القراري ، بعد أن كانت وصفاً للزارع الخبير بشؤون السقى والبذر والحرث والحصاد ، لاستقراره فى القرية وعلمه بطبيعة الأرض والجو وتقلبات الأهوية وعوارض الآفات ، خلافاً للزارع الفراري الذي لا يعرف من كل قرية غير موسمه فيها وأجرته من محصولها .

هؤلاء الفلاحون « القراريون » حملوا أوزار المظالم من قديمها ولكنهم احتفظوا كذلك بذخيرة العرف وشريعة من الحياء من أصولها ، وحسبهم من هذه الذخيرة أن يأنف أحدهم أن يخزي هذا القريب أو ذاك النسيب بالعار الموروث ، وكل عار فى القرى موروث إلى الأعقاب وأبناء الأعقاب . . . أو حسبهم أن يقف بهم الاحتمال عند الحد الذي لا يحمد بعده احتمال ، ثم ينقلب بعد ذلك من الصبر إلى الثأر أو يتحول من هذا الجوار إلى ذلك الجوار . فإن عم البلاء كل جوار حوله فى حقبة من الزمن فهو البلاء الذي يعم عاره ولا تلصق وصمته بهذا الجيل دون ذلك الجيل ، بين آلاف ومئين .

وفى هذا القرار من القرية نشأ فى القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك ، وعبد الله فكري ، وحسن الطويل ، وأحمد عرابى ، ومحمد عبده . . . وكلهم بعثت به القرية إلى الجامع الأزهر ، وبعث به الجامع الأزهر إلى ميدان الكفاح والإصلاح .

الأزهر

فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٨) أسندت ولاية مصر إلى الوزير العالم أحمد باشا كور . وكان من المشتغلين بعلوم الهيئة والرياضة . فرغب فى مذاكرة علماء الأزهر الذين يدرسون تلك العلوم فى حلقاتهم بالمسجد الجامع ، وخاطب مقدم العلماء الشيخ عبد الله الشبراوي فى ذلك ومعه عالمان من كبار علماء العصر هما الشيخ سالم النفراوي والشيخ سليمان المنصوري . فسكتوا ثم صارحوه بأنهم يجهلون تلك العلوم ولا يشتغلون بتدريسها وانصرفوا بعد أول لقاء بينهم وبين الوالي وهم يحسبون أنها مسألة فرغ الحديث منها . ولكن الوالي عاد إلى الحديث مع الشيخ الشبراوي فى جلسة من جلساته معه بعد صلاة الجمعة بمسجد القلعة . وكانت الخطبة فى ذلك المسجد من عمل الشيخ الشبراوي . يؤم المصلين ومنهم الوالي ويتناول الغداء على مائدته بعد الصلاة . ويجري الحديث بينهما أحياناً على شؤون الأزهر وشؤون الدين على العموم . ثم ينصرف إلى موعده من الاسبوع الذي يليه .

قال الوالي ذات مرة ما فحواه : كنت أحسب مصر كما نسمع فى بلادنا منبع العلوم والفضائل . فلما جئتها أخلفت ظنى وذكرت المثل القائل : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » !

– قال الشيخ الشبراوي : بل هي كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

– قال الوالي : وكيف ؟ وأنتم أعظم علمائها ولم أجد عندكم شيئاً من العلوم التى سألت عنها . وغاية تحصيلكم المنطق والتوحيد ونبذتم علوم المقاصد من هيئة ورياضة .

قال الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائنا وإنما نحن المصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم . وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث .

فعاد الباشا يقول : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية . بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت وتحرير القبلة ومواعيد الأهلة وعدد السنين .

فأجابه الشيخ موافقاً . ولكنه قال : إن معرفة ذلك من فروض الكفاية . إذا قام به البعض سقط عن الآخرين . وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية . كرقة الطبع وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية . وأهل الأزهر بخلاف ذلك . أخلاط من القرى والآفاق .

فسأل الوالي : وأين البعض القائم بهذه الفريضة ؟

فقال الشيخ : إنهم موجودون فى بيوتهم يسعى إليهم . ودله على الشيخ حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن المؤرخ المشهور ، مطنباً فى تزكية علمه وفضله .

فسألهم الوالي أن يدعوه إلى لقائه . فقال الشيخ : إنه أعظم قدراً من أن يستدعيه مثلي . ولكنكم تكتبون إليه مع بعض خواصكم فيحضر إليكم ، فكتب إليه الوالي واحتفى بلقائه عند حضوره ووجده على ما وصف من الدراية بتلك العلوم التى يدرسها الباشا ، فأكثر من الاجتماع به بعد ذلك للمذاكرة فيها .

– ونحن نعرف هذه القصة من رواية الجبرتى فى تاريخه . كما نعرف من قصص التاريخ الأخرى شيئاً كثيراً عن حقيقة العلوم الفلكية التى تلقى بعضها عن أبيه . فإذا هي على صحتها واشتمالها على أدق المعارف الفلكية التى حصلها علماء الحضارة الإسلامية تجمع بين العلم الرياضى ضها عن أبيه ، فإذا هي على صحتها واشتمالها على أدق المعارف الفلكية التى حصلها علماء الحضارة الإسلامية تجمع بين العلم الرياضى الصحيح وأخلاط من التنجيم وقراءة الطوالع وأرصاد السعود والنحوس . ومن ذلك قول الشيخ عبد الرحمن فى مقدمة كتابه عن الحملة

الفرنسية : « إن وقائع الأيام وخطوبها وحوادث الحادثات وكروبها . . داخلة فى حين الإبداع والاختراع بما أودعه الله من الخصائص فى الآثار العلوية عند اقتران بعضها ببعض . وارتباط المناسبات الخفية بينها وبين ما على وجه الأرض . وذلك بحسب جري العادة الإلهية له مسببات وحوادث يستدل عليها بتلك القرانات والمناظرات . وقد أودع الله فى بعض خالصى النفوس البشرية والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية والشهوات النفسية معرفة بعض تلك الحوادث . إما بإلهام أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام . فبالنجم هم يهتدون . وبالنظر فى ملكوت السماوات والأرض يستدلون فيعرفون . من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات . وإنما هي أسباب عادية وعلامات . وإن من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر . وحل به لأهلها تنوع البؤس والأصر . بحلول كفرة الفرنسيس . ووقوع هذا العذاب البئيس . حصول الكسوف الكلي فى شهر ذي الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب إليه إقليم مصر . . » .

ولكن هذا الخلط بين علم الهيئة والتنجيم لم يكن وقفاً على الفلكيين بالمشرق أو البلاد العربية . بل كان النظر فى الكواكب لاستطلاع السعود والنحوس دراسة مقررة فى الجامعات الأوربية وكان أكبر الفلكيين فى عصره – جوهان كبلر – المتوفى قبل منتصف القرن السابع عشر يدرس الفلك والرياضة بجامعة جراز ويصدر بأمر الجامعة تقويمها السنوى مشتملاً على أرصاد العالم كله ، منبئاً بطوالع البروج التى تشرف على مواليد الأمراء والملوك وتقبض على أعنة الحوادث من سلم وحرب وخصب وقحط ورواج وكساد ، وكان العالم الكبير يؤمن بأسرار تلك الطوالع والأرصاد . ويعزو مخالفة النبوءات أحياناً إلى خطأ الحساب أو إلى شوائب النفوس التى تتول الرصد وتتلقى منه النبوءة ، كما قال المؤرخ العربى فيما تقدم . وقد كان إسحق نيوتن يضبط حركات الأفلاك بقانون الجاذبية وهو يدون مئات الصفحات فى مباحث الطوالع والأرصاد وطلاسم السحر والزايرجة السوداء .

° ° °

وتمضى مع الجبرتى فى حديثه عن نذير النجوم ببلاء الفرنسيس . فنقول إن هذا المؤرخ الأمين قد شهد حلول البلاء فى القاهرة ووصف أعمال المقاومة فى خارجها وداخلها بين كفاح المحاربين ودعاء المسلمين فقال إنه « لم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل جداً من الفريقين . واحترقت مركب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية . واحترق بها رئيس الطبجية خليل الجردلي وكان قد قاتل فى البحر قتالاً عجيباً هو ومن انضم إليه من الغليونجية وبقية العسكر والمشاة الذين فى المراكب مع مراكب الفرنسيس . وأقدم أقدام الأسد . فقدر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها إلى البارود الذي فى المركب فاحترقت ومات هو ومن بالمركب من المحاربين . فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره . والمشاة نزلت فى المراكب وانفصل الفريقان بدون طائل » .

قال : « وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع فى الأزهر كل يوم لقراءة البخاري وغيره من الدعوات . وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف . وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم . فهو – وإن لم يدفع دخول الفرنسيس مصر لكونه أمراً مقضياً محتماً لا يرد بالدعاء لكن وقع اللطف بسبب هذه الدعوات – واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار وآثار اللطف التى حصلت مشاهدة . ولا تنكر ولله الحمد » .

ثم قال : « ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ويتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثيرون من الفارين وهم بأسوأ حال من العري والفزع . فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقى وإن الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها . فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينظروا ما يكون

من جوابهم ، ففعلو ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته . فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه . ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم . . ثم قال لهم : لازم المشايخ والشرباجية يأتون إلينا لنرتب منهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة ، فتلقاهم وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأي شيء يخافون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديواناً لأجل الراحة . . »

– ولابد أن نذكر ونحن بصدد الأزهر والحملة الفرنسية أن دعوات الأذكار كانت فى حينها « قوة عملية » من جانب واحد على الأقل ، وهو جانب اليقين بنفاذها فى عقيدة الرعاة والرعية ، لا يشكون فى أثرها إذا خلصت النية وصدقت الشكوى ولا يأمن الحاكم الظالم أن تستجاب من المظلوم فى شدة البلاء وانقطاع الرجاء فى غير الله . وقد مضى على حملة نابليون نحو مائة وسبعين سنة ونشبت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزيمة بعد الهزيمة فاعتصم الخديو اسماعيل يومئذ بتلك القوة – قوة التلاوة فى البخاري والتماس الدعوات من العلماء – فلم يخامره الشك فى أثرها ولكنه قال للعلماء بعد اتصال الهزيمة : إما أنكم لا تقرءون البخاري وأما أنكم لستم بعلماء . . فردها إليه عالم جرىء وذكره بالحديث النبوي إذ يقول عليه السلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم . . » .

وقد ركب الفرنسيون رءوسهم بمصر واقتحموا الجامع الأزهر ودنسوا محاريبه وربطوا فيه الخيل والدواب فلم ينتقض غير قليل حتى خرجوا من مصر مدحورين بعد أن خيل إليهم وإلى الناس أنهم لن يرحلوا عنها مكرهين . ولم ينس أبناء البلد

أن يربطوا بين جلائهم السريع وبين عدوانهم على ذلك الحرم المقدس ودعوات علمائه عليهم بالخذلان والنكال .

° ° °

هذه نبذه موجزة من تاريخ الأزهر خلال فترة من فترات ذلك العهد الذي كان كما تقدم أحلك ساعات الظلام قبل مطلع النهار ، ويكفى تاريخ كل فترة من حياة هذا المعهد الخالد للتعريف بوظيفته التى استقر عليها وبيان مكانته التى تبوأها من الأمة فى أيام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلين عليها . فقد تقرر بحكم العرف والتقليد وحكم العقيدة والسمعة أنه صوت الأمة الذي يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين ، وأنه ملاذ القوة الروحية فى نفوس أبناء الأمة وفى نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها . ومن لم يكن من أهل تلك العقيدة فقد يحسب لها حسابها الذي ينساه إخوانها فى الدين مع الجهالة المطبقة أو مع هوى الساعة . وقد حسب له الفرنسيون هذا الحساب ونسيه أناس من أمراء المسلمين . ولكنه لم يضع قط كل الضياع فى وقت من الأوقات .

ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر ووظائف علمائه تحديداً يعز أحياناً على الدستور المكتوب ، فكان منهم من يتولى الصدارة فى شؤون السياسة ومخاطبة الحكام لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح له من زملائه ، وإن كان فيهم من هو أوسع علماً وأشهر بالتقوى ، وكان منهم من يثق الناس بتقواه ويطمئنون إلى نزاهته فى أمور الدين والرئاسة ، وهكذا كان منهم من يفاوض الوالي التركى وليس هو بأعظم علماء البلد ، وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى وليس هو بمكان الرئاسة العلمية ، ولكنهم كانوا مرشحين لوظيفة السفارة بين الأمة والحكومة بما لهم من خبرة فى سياسة الناس وأساليب الإقناع وعلاج المشكلات ، ولغيرهم سمعته فى هداية القلوب والبصائر والتماس الوسيلة عند الله إذا خابت الوسائل عند العباد .

ولم تنقطع الصلة زمناً طويلاً بين هذه الرئاسة القوية الروحية وبين القرية

المصرية من قرى الريف أو قرى الصعيد ، وقد يغنينا عرض أسماء الشيوخ والرؤساء الذين اختارهم نابليون وألف منهم الديوان الكبير للعلم بمبلغ هذه الصلة بين الأزهر والقرية ، فقد تألف هذا الديوان من عشرة ندر منهم من لم ينسب إلى قرية يعرف بنسبته إليها كما يعرف باسمه ولقبه ، وهم عبد الله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى الرسي والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ أحمد الويشي والشيخ يوسف الشبراخيتي والشيخ محمد الدواخلي . وقبل ذلك كان الشيخ «الشبراوي» يقول للوالي العثماني إن الغالب على أبناء الأزهر إنهم أبناء القرية والريف.

وقد تقدم فى الكلام على القرية خبر الثورة التى أثارتها شكاية أهل بلبيس لابن إقليمهم الشيخ الشرقاوي الكبير ، فلا يفوتنا أن نذكر أن شكاية الأقاليم كانت تصل إلى قادة الأزهر من كل طائفة معتدى عليها ولو وقع العدوان عليها فى رحلة الطريق ، وحدث أن سليمان بك أغا نهب سفينة لبعض أبناء الصعيد تحمل التمر والميرة وشيئًا من الأزواد والأطعمة ، وزعم الأغا أنه استخلص بما نهبه ديونًا له على أولاد وافى من أهل الصعيد ، فغضب المجاورون من الصعايدة وأبلغوا مشايخ الأزهر أن السفينة إنما كانت تحمل رزقًا مرسلاً إليهم من عشائرهم فى قراهم ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسى والشيخ المصيلحي إلى الأمير إبراهيم بك وواجهوا سليمان أغا فى حضرته بكلام شديد ، ولم يرجعوا إلا على وعد برد ما استلبه كله ، مع البقية التى فضلت عنده مما استولى عليه.

* * *

ومن الواضح أن الجامع الأزهر إنما استقرت له هذه المكانة فى العالم كله لأنه المدرسة الجامعة فى الرقعة الوسطى من العالم الإسلامي الفسيح من المشرق إلى المغرب ، بين مدارس بغداد فى المشرق ومدارس قرطبة فى المغرب ، وقد أفلت هذه المدارس حينًا مع أفول الدولة العباسية وأفول الدولة الأموية وسائر الدول الأندلسية وورثت الجامعة الأزهرية شهرتها جميعًا كما ورثت القاهرة شهرة مصر

القديمة بالعلوم والمعارف التى حسبت من السحر المباح زمنًا عند كثير من حكماء الإسلام ، وتلك هي العلوم والمعارف التى كان «ذو النون» المصري يبحث عنها فى نقوش البرابى وتحت ركام الكنوز المدفونة فى الرغام ، وإنما كان الوزير العثمانى «أحمد باشا» يقول عن مصر إنها اشتهرت فى العالم كله بأنها «معدن العلوم والمعارف» ، وهو يعنى تلك الشهرة العريقة التى ذاعت عنها قديماً ثم اتصلت بها بعد الإسلام شهرة الجامع العتيق ثم شهرة الأزهر بعد انفراده بأمانة العلم فى بلاد الإسلام.

والمأثور عن الفاطميين أنهم كانوا يشتغلون بالنجوم والكيمياء والعلوم الكونية التى نسميها اليوم بالعلوم الطبيعية أو العلوم الحديثة ، وكان الإمام جعفر الصادق – وهو إمام رفيع القدر بين علماء الإسلام من جميع المذاهب – حجة فى علوم الدين والدنيا ، يعلم أبا حنيفة الفقه ويعلم جابر بن حيان الكيمياء ، وكان علماء الفاطميين ودعاتهم يقتدون به فى الجمع بين هذه العلوم ويستعينون بالمنطق والفلسفة على نشر دعوتهم بين أهلها من طلاب الدنيا والدين ، وليس فى أوراق المحفوظات الباقية سجل ثابت لتدوين أسماء العلماء وأسماء الكتب التى درسوها بالأزهر من هذه العلوم ، ولكن إجازات العلماء بعد إنشاء الأزهر بأكثر من ثمانية قرون كانت تحتوي أسماء العلوم التى أجيز لهم أن يلقنوها الطلاب فى حلقاتهم ، ومنها سند العالم الكبير الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهوري المتوفى قبل نهاية القرن الثانى عشر للهجرة (١١٩٢هـ) وفيها بيان الدروس التى حضرها وأجادها وألف فيها وهي عدا علوم الفقه واللغة دروس «الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الأرثماطيقى وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم . . ».

وهذه العلوم المتفرقة تجمع فى ذلك العصر صفوة المعارف الإنسانية التى

تدرس فى معاهد الثقافة العليا ، وكانت – على ما يظهر – تباح لمن يستعد لها من الطلاب المتقدمين الذين يختارهم أساتذتهم ويأنسون فيهم القدرة على النقل عنهم ، ولعل هذا ما عناه الشيخ الشبراوي بقوله عن هذه العلوم إنها « فروض كفاية » يتخصص لها من يطلبها ولا تفرض على الذين يحضرون دروس العلماء الآخرين ولا يقبلون عليها . ولعل الأساتذة الذين يبلغون فيها مبلغ التعليم والإفادة يعتزلون الحلقات العامة بطلابهم ومريديهم كما فعل الشيخ الجبرتى الكبير . وهو على الأرجح قد تلقى مبادئها عن شيوخ من قبله تعلموها وعلموها على طريقته فى أخريات أيامه . وعلى هذه الطريقة بعينها تعلم الشيخ الدمنهوري كما سيرد فى الصفحات التالية .

وإذا بدا من هذه الطريقة أن « العلوم الكونية » كانت من الدراسات « المخصوصة » أو الدراسات التى لا تباح على عواهنها . فمن جزاف العقول أن ينسب ذلك كله إلى الجمود وضيق الأفق وقلة الاكتراث بالحجر على القول أو الحجر – كما نقول فى عصرنا الحديث – على حرية التفكير .

فقد يقع الذنب على شيء غير الجمود والحجر على الحرية الفكرية .

نعم قد يقع ذنب « التقييد » الذي أحيطت به دراسة العلوم الكونية على طريقة تدريسها أو طريقة إعداد الطلاب للتقدم فيها ، وما من علم من تلك العلوم سلم من الخلط بينه وبين علم زائف يشبهه ويحمل عنوانه وليس هو بذلك العلم الأصيل فى حقيقته ونفعه .

فعلم الفلك قد اختلط بعلم التنجيم وانتقل من ثقاته وأمنائه إلى المحتالين والملفقين لأكاذيب الطوالع وعلاقات الألفة والزواج والمشاركة فى أعمال الكسب والارتزاق .

وعلم الكيمياء قد اختلط بتحضير الذهب وسحر المعادن وصناعة السموم بغير رقابة عليها وعلى الجرائم الخفية التى تستخدم فيها .

وعلم المنطق قد اختلط بالسفسطة والجدل ، وظهر من طريقة تعليمه فى الأمم

القديمة من عهد الإغريق إلى عهد البيزنطيين أنه مفسدة للعقول ومدرجة للعبث بالعقائد وقواعد التفكير الصادق والبحث المفيد .

وليس من الإغراب فى الظن البعيد أن نعتقد أن أصحاب الرأي وذوي البصر بالتربية فى العصر الحديث كانوا يحيطون تلك العلوم بمثل ما أحيطت به من القيود بالأمس لو أنها بقيت إلى اليوم بأضرارها وشوائبها ودامت على حالها من اختلاط الصحيح بالزائف واختلاط المتعلمين بين طلابها على استعداد وعلى غير استعداد . وبين المشتغلين بها للعلم والفائدة والمشتغلين بها للاحتيال والشعوذة . فليس الجمود وحده علة تقييدها بالأمس وليست حرية الفكر وحدها هي التى رفعت عنها قيودها اليوم ، ولكنها حكمة بصيرة دعت إليها أسبابها فى حينها وأوجبتها أمانة الفكر وسلامة المجتمع على المسئولين عنها من أهل العلم والسياسة .

إلا أن الحكمة البصيرة إذا حاف عليها الجمود ، واصطلحت عليها الأثرة مع الجمود ، ذهبت أسبابها وبقيت قيودها وتحولت من الرقابة البصيرة إلى الحجر الأعمى والعداء اللجوج ، وكان فعل الأثرة هنا أشد من فعل الجمود فى كراهة المزايا العلمية التى يمتاز بها العارفون ويحرمها أصحاب الظهور بالمعرفة وهم يكرهونها مخلصين لجهلهم بحقيقتها . إن لم يكرهوها مغرضين لخوفهم من مزاحمتها ، وقد أوشك الحذر من تلك العلوم أن ينقلب فى أوائل القرن السابع عشر من الحكمة البصيرة إلى الجمود المعيب والغرض المريب ، وضعف الغيورون عليها من حمايتها واحتمال تبعاتها ومصاعبها . ولكنهم استفادوا من قوارع الهزيمة بعد الحملة الفرنسية شيئًا واحداً على الأقل وهو الشعور بالأسف عليها والجرأة على بث هذا الأسف فى كتبهم المتداولة ومنها كتبهم التى ألفوها فى صميم علوم الدين والشريعة . فلم ينس الشيخ حسن العطار وهو يبسط القول فى أصول الفقه فى حاشيته على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع أن يصرح بأسفه لإهمال علوم الحكمة واللغة . فيقول فى كلامه على القياس من الجزء الثانى : « من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدي لتراجم الأئمة الأعلام علم أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية والأحكام الدينية لهم اطلاع عظيم على غيرها

من العلوم وإحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع، يدل على ذلك النقل عنهم فى كتبهم والتصدي لدفع شبههم، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام. فإنى وقفت على مؤلف للقرافى رد فيه على اليهود شبهًا أوردوها على الملة الإسلامية لم يأت فى الرد عليهم إلا بنصوص من التوراة وبقية الكتب السماوية حتى يظن الناظر فى كتابه أنه كان يحفظها على ظهر قلب. ثم هم مع ذلك ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات. ومن نظر ما دار بين المصنف رحمه الله وبين عصريه الأديب الصلاح الصفدي من المراسلات البليغة والأشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله ممن تخضع له رقاب البلغاء وتجري فى مضماره سوابق الأدباء، وكذا ما دار بين سلطان المحدثين الحافظ بن حجر العسقلانى ومن عاصره من فحول الأدباء من لطائف الأشعار والنكات الأدبية، وكذا العلامة الدماميني. بل بين الحافظ السيوطي والسخاوي من المناقضات وما ألفه من المقامات. وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه علم أن نسبتنا إليهم كنسبة عامة زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئًا من عند أنفسنا. وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ولا تطمع نفوسنا إلى النظر فى غيرها، حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب. فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه. أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصل لها، أو نكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل البطالة. وهكذا. فصار العذر أقبح من الذنب. وإذا اجتمع جماعة منا فى مجلس فالمخاطبات مخاطبات العامة والحديث حديثهم، فإذا جرى فى المجلس نكتة أدبية ربما لا نتفطن لها، وإن تفطنا لها بالغنا فى إنكارها والإغماض عن قائلها إن كان مساويًا وإيذائه بشناعة القول إن كان ادنى. ونسبناه إلى عدم الحشمة وقلة الأدب. وأما إذا وقعت مسألة غامضة من أي علم كان. عند ذلك تقوم القيامة وتكثر القالة ويتكدر المجلس وتمتلىء القلوب بالشحناء وتغمض العيون على القذى. فالمرموق بنظر العامة الموسوم بما

يسمى العلم إما أن يتستر بالسكوت حتى يقال إن الشيخ مستغرق أو يهذر بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع.

وقالوا سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع

فحالنا الآن كما قال ابن الجوزي فى مجلس وعظ ببغداد:

ما فى الديار أخو وجد نطارحه حديث نجد ولا خل نجاريه

وهذه نفثة مصدور فنسأل الله السلامة واللطف».

ثم عاد الشيخ إلى بث هذا الأسف بعد ذكر العلوم العصرية والإلمام بمؤلفاتها المترجمة عن اللغات الأوربية فقال فى عرض الكلام على الخلاء والملاء وضغط الهواء: «أنا لو وضعنا خشبة مستوية أو أنبوبة مسدودة الرأس فى قارورة بحيث يكون بعض الانبوبة داخل القارورة وبعضها خارج عنها وسددنا رأس القارورة بحيث لا يدخلها هواء ولا يخرج، وذلك بأن نسد الخلل بين عنق القارورة والأنبوبة سداً محكماً لا يمكن نفوذ الهواء فيها، فإذا أدخلنا الأنبوبة فيها أكثر مما كانت بحيث لا يخرج شيء من الهواء عنها انكسرت القارورة إلى خارج، وإذا أخرجناها عنها بحيث لا يدخل فيها شيء من الهواء انكسرت إلى داخل، ولولا أنها مملوءة بالهواء وما فيها من الأنبوبة بحيث لا تحتمل شيئًا آخر لم يكن كذلك. فدل ذلك على امتناع الخلاء. وقد قال شارح حكمة العين. إن هذه إقناعيات لا برهانيات، وأقول إن مسألة الخلاء ومسألة إثبات الميل فى الأجسام من مسائل العلم الطبيعي وبتحقيقها ينكشف للفطن أسرار غريبة وعليها ينبنى كثير من مسائل علم جر الأثقال وعلم الحيل واستحداث الآلات العجيبة، ووقع فى زماننا أن جلبت كتب من بلاد الإفرنج وترجمت باللغة التركية والعربية وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل. وتكلموا فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولاً حتى صار ذلك علمًا مستقلاً مدونًا فى الكتب وفرعوه الى فروع كثيرة، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على

غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم وتنزهت فكرته – إن كانت سليمة – فى رياض الفهوم :

فكن رجلاً رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا

فالنفس الإنسانية بالاطلاع على حقائق المعارف تتكمل ، والفاضل الكامل بأنواع العلوم يتفوق ويتفضل ، لا بتحسين هيئة اللباس والمزاحمة على التصدر فى مجالس الناس . قال الحكيم الفارابى :

أخى خل حيز ذى باطل وكن والحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا وما المرء فى الأرض بالمعجز
يناقس هذا لذاك على أقل من الكلم الموجز
محيط السماوات أولى بنا فاذا التنافس فى المركز

فلا تجعل سعيك لغير تحصيل الكمالات العرفانية مصروفاً ، ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفاً ومألوفاً .

ولا تك من قوم يديمون سعيهم لتحصيل أنواع المأكل والشرب
فهذى إذا عدت طباع بهائم وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور ، ولله عاقبة الأمور ، لعمرى لقد تساوى الفطن والأبله الأفن ، واستتسر البغاث وسد طريق النظر على الناظر البحاث ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

والشيخ حسن العطار – نافث هذه الشكوى – قد كان مثالاً للعالم المثقف بثقافة عصره قبل نحو القرن ونصف القرن . ولد بالقاهرة سنة ١١٩٠ وتوفى بها سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٧٦ – ١٨٣٥ م) وشهد حملة نابليون وعاشر علماءها واستفاد من زيارة معاملها . وعاش زمناً فى دمشق وزمناً فى أشقودرة بالبلاد الألبانية ، واجتهد لنفسه فى تحصيل المعارف الحديثة فدرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق وطرفاً من علم الميكانيكا الذى كان يسمى بعلم الحيل . وألف

الرسائل فى العمل بالأسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، وأدمن الاطلاع على كتب الأدب فنظم الشعر وأجاد كتابة الرسائل ، وأسند إليه تحرير الوقائع المصرية عند إنشائها لاشتهاره بجودة الأسلوب والتمكن من صناعة القلم مع حسن الاطلاع على المعارف الحديثة وحسن الفهم للعلاقة بين قواعدها النظرية ونتائجها العملية فى المخترعات وعجائب الفنون ، ثم تولى مشيخة الجامع الأزهر بعد أن قارب الخامسة والخمسين فبقى فيها إلى سنة وفاته .

• • •

ولقد تولى هذا العالم الفاضل مشيخة الجامع الأزهر – وهو كما نرى – لا تعوزه الغيرة على العلم الحديث ولا الرغبة فى تعميمه واجتذاب العقول الناشئة إليه ، ولكنه كان ، رحمه الله ، رجلاً من رجال الفطنة والكياسة ولم يكن على غرار ذوى البأس الصارم والعزيمة الغلابة من أولئك المصلحين النوادر الذين يناط بهم افتتاح العهود وهدم العوائق الراسخة فى سبيل الإصلاح ، ولا سيما الإصلاح الذى يعارضه أعداؤه باسم الدين ويعتصمون منه بالحصون المنيعة من العادات المتأصلة والمصالح المتأشبة وصغائر الغرور والادعاء ووجاهة المظاهر والألقاب ، ونحسبه – لو كان من أولئك المصلحين النوادر – لما تسنى له فى مدى السنوات القلائل التى تولى فيها مشيخة الجامع أن يقوم بعمل ذى بال لتجديد نظام التعليم وإتمام العدة اللازمة لابتداء ذلك النظام ، فإن العزيمة الغلابة لا تكفى وحدها للغلبة على معارضة الشيوخ وإعراض الطلاب وتبديل مصالح هؤلاء وهؤلاء فى النظام القديم بمصالح مثلها أو أكبر منها تعوض عنها العلماء المعارضين والطلاب المعرضين . وقد تكفى عزيمة الشيخ للابتداء فى العمل ، إن لم تكف للتقدم البعيد فى طريقه ، لو أنه وجد من ولاة الأمر معونة صادقة تفعل بالسلطان ما لا يفعله البرهان ، ولكن ولاة الأمر فى عهده كانوا يؤثرون سكوت العلماء عنهم على إثارتهم بالشكوى والاتهام من أجل عمل يغضبهم ولا يرضى أحداً غيرهم ، وليس هو – بعد – من الأعمال الذى تلجئهم الضرورة العاجلة إليه .

على أننا قد نبلغ فى تهوين أثر القدوة الحية إذا خطر لنا أن نفثة المصدور ذهبت فى الهواء ، فإنها نفثة عالم كبير يسمعها منه العاقل والغافل ويقرؤها فى كتبه مئات الطلاب من مريديه ومريدى غيره من العلماء الموافقين والمعارضين ، وتأتى فى أوانها الذى مهدت له الحوادث وتهيأت له النفوس المتطلعة والآمال المتوثبة ، فهى من طلائع الجو الذى يتفتح له الأفق وإن لم يتجلّ به لاول وهلة ، وعلى هذه السنة من سنن التجديد تبتدئ طلائع الأجواء فى جميع الآفاق .

ثم تعمل الضرورة الواقعة عملها غير مدفوعة بحيل المحتالين وتعلات الكسالى المتعنتين . فقد نفث الشيخ نفثته فى مفتتح القرن التاسع عشر والمدارس الحديثة تتوالى عاماً إثر عام ، بين مدرسة للهندسة ومدرسة للطب ، ومدرسة للألسن ومدرسة للعلوم الطبيعية ، ويتوالى معها بناء المعامل لصناعات السلم والحرب ، ويختار لها الطلاب والمخترنون من أبناء الأزهر الناشئين ، كما تختار منهم البعوث إلى البلاد الأوربية فيقضون فيها الأعوام المعدودة ويعودون إلى مناصب الرئاسة أو مناصب الأستاذية ، ويصعدون من تلك المناصب إلى أرفع مراتب الدولة وتتهيأ لهم وسائل التنفيذ التى لم تكن مهيأة لشيخهم فى منصبه ، فلم يمض جيل واحد حتى كان فى القاهرة من تلاميذ العلوم الحديثة حزب كبير يفهم ما ينبغى عمله للمضى بالنهضة العلمية فى سبيلها ويملك من الرأى والمشورة المسموعة ما يعينه على خصومها . . .

ويتفق أن يكون أكبر دعاة هذه النهضة تلميذاً للشيخ العطار اختاره للسفر إلى الغرب ونصح له قبل سفره « أن ينبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ليكون نافعاً فى كشف القناع عن محيا تلك البقاع » .

ذلك التلميذ الناجح هو نابغة جيله (رفاعة بدوى رافع الطهطاوى) رحمه الله ، وهو القائل فى فضل العلوم الحديثة ، بعد أن نبه بغاية ما يستطاع من الصراحة فى ذلك الزمن إلى إهمال محمد على الكبير لتعميم تلك العلوم فى الجامع الأزهر : « . . . ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار

هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر ، نعم إن لهم اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر . وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية . فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام ، حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله . فإن سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم ، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم . لا سيما وأن هذه العلوم الحكمية التى يظهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربة حكماء الأزمنة الأخيرة ، فإن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى الذى كانت مشيخته قبل شيخ الإسلام أحمد العروسى الكبير ، جد شيخ شيوخ الجامع الأزهر الآن السيد المصطفوى العالم الشهير . رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأنه له فيها المؤلفات الجمة وأن تلقيها الى أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المحلية . فإنه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولاً ومنقولاً – أخذت عن أستاذنا الشيخ المعمر على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات ، وبما نوقف عليها كالفرائض والميقات ، وسيلة ابن الهائم ومعونته كلاهما فى الحساب ، والمقنع لابن الهائم ، ومنظومة

الياسمينى فى الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأزياج ، ورسالتين إحداهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب ، كلاهما للشيخ عبد الله المارديني جد السبط ، ونتيجة الشيخ اللدائق المحسرية لعرض مصر ، والمنحرفات للسبط المارديني فى علم وضع المزاول ، وبعض المعة فى التقويم . وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها بشرح الأمشاطى وبعضاً من قانون ابن سينا وبعضاً من كامل الصناعة ، وبعضاً من منظومة ابن سينا الكبرى ، والجميع فى الطب . وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لقط الجواهر فى معرفة الحدود والدوائر للسبط المارديني فى الهيئة السماوية ورسالة ابن الشاط فى علم الأسطرلاب ورسالة قسطا بن لوقا فى العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها ، والدرر لابن المجدى فى علم الزيج ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة وبعضاً من الجغميني فى علم الهيئة ، وبعضاً من رفع الإشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة ، وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب ، منها رسالة فى علم الأرثماطيقى للشيخ سلطان المزاحى . وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على التكسير وعلم الأوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ، ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمنحرفات لسبط المارديني وعلم المزاول ومنظومة فى علم الأعمال الرصدية ، وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الأنصارى ، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علماً : أولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ، ورسالة للإسرائيلى ، ورسالة للسيد الطحان ، كلاهما فى علم الطالع ، ورسالة للخازن فى علم المواليد ، أغنى الممالك الطبيعية : وهى الحيوانات والنباتات والمعادن . وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى الحكمة ومتن الجغميني فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زاده ومطالعة السيد عليه ، وأخذت عن سيدى أحمد الشرقى شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة . . .

« ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ . فقال : طالعت كتاب إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد فى علم الأرثماتيقى فى كراسين وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه ، فى نحو كراسين . والرسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ، ومنها كتاب إتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ، ومنها رسالة القول الأقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ، ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ، ومنها كتاب بلوغ الأرب فى أسماء سلاطين العجم والعرب ، معنوناً باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الأربعاء أول النهار فى الساعة الأولى بعد الشمس ، الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ، يوم الأحد قبل الشمس انتهى كلامه ، ملخصاً بتصرف .

« وانظر إلى هذا الإمام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر ، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلاً عن كون أشياخه كانوا أزهرية ، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية ، وفضل العلامة الجبرتى المتوفى فى أثناء هذا القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم ، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الوردانى الفلكى ، وكان للمرحوم الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضاً مشاركة فى كثير من هذه العلوم ، حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد ، وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ، مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تأليف فى الطب وغيرها زيادة عن تآليفه المشهور . . . فلو تشبث من الآن فصاعداً نجباء أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية التى جددها الخديو الأكرم

بمصر بإنفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال وانتظموا فى سلك الأقدمين من فحول الرجال . وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة إنما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دورية ، والجواب عنها أن الحكوم قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، وإنما تكون المكافأة على تمام العمل . . فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء ، وقد ذكرنا ما يتعلق فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب مبسوطاً بما فيه الكفاية » .

• • •

وهذا الفصل من كتاب « مناهج الألباب » يعتبر وثيقة « رسمية » من أهم الوثائق فى تاريخ التعليم بالجامع الأزهر ، لأنه يشتمل على ثبت صحيح بأسماء المؤلفات الكثيرة التى كانت تؤلف فى علوم الطب والرياضة والطبيعة وغيرها من العلوم التى تسمى بالعلوم الكونية تمييزاً لها من العلوم الإلهية أو الشرعية ، ويشتمل كذلك على أسماء مؤلفيها والعلماء الذين يدرسونها وطريقتهم فى تحصيلها ، إما بالقراءة على أصحابها أو بالمطالعة فى مراجعها . ومن هذا الثبت الصحيح يتبين لنا أنها كانت تحيط بصفوة المعارف البشرية كما عرفها الناس إلى نهاية العصور الوسطى فى بداية القرن السابع عشر . وأنها كانت دراسات « موسوعية » جامعية من طراز مناهجها فى أنحاء العالم كله على عهدها .

ويدل هذا الفصل على موقف الحكومة يومئذ من مسألة التعليم بالجامع الأزهر ، فإنها كانت على موقف الحذر من تقرير علوم تدرس فيه بغير طلب من أهله ، هيبة لعلمائه وخوفاً من تهمة المساس بالدين والاجتراء على سنن السلف ومجاراة البدع المستحدثة : بدع الفرنجة أو بدع الفلاسفة كما قال الشيخ العطار بألسنتهم حين تتلى عليهم مسألة من مسائل المعرفة لم ترد فى كتاب من كتب المتأخرين . وكأنما كان النابغة الأزهرى – رفاعة – يلوح لشيوخ العلماء بالخطة التى يسلكونها إذا ترقبوا من الحكومة أن تغير مسلكها «فإن الحكومة إنما تساعد

من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دورية . . . » إن لم يبدأ علماء الأزهر من قبلهم بمسلك جديد .

وقد دل رفاعة بما كتبه عنه مسألة التعليم الأزهرى على صراحة الرائد المجدد وحصافته فى وقت واحد ، فكان صريحاً فى تنبيهه الى إهمال محمد على الكبير لتلك المسألة ، وكان صريحاً فى تنبيه العلماء الى موضع تقصيرهم أو موضع مشاركتهم فى تبعة ذلك الإهمال . وكان حصيفاً فى عنايته بسرد أسماء العلوم والمؤلفات التى سبق إليها العلماء الأسبقون ، فإنه – ولا شك – قد فطن للوجهة التى اتجه إليها تيار الفكر الحديث فى البلاد وكشف عن الموطن الحساس الذى لمسته هذه المسألة من جانب العطفة القومية ، فمنذ الحملة الفرنسية وقعت الصدمة فى ذلك الجانب من العاطفة القومية موقعين متناقضين متلازمين : موقع اليقين بغلبة القوم وفيه من دواعى الوجوم والانكسار ما فيه ، وموقف العزاء بسبق الشرق الى تلك العلوم والإيمان بأنها عند القوم عارية مستعارة نستردها لنقول لأنفسنا وللعالم إنها بضاعتنا ردت إلينا ، وفى ذلك من تجديد الثقة ما فيه .

ورفاعة فى دعوته نجباء الأزهر الى العلم العصرى باسم السلف إنما تسلم هذه العاطفة من حيث تركها رواد الفكر الحديث ، ولعله تعمد أن يسوق الكلام فيها بذلك الأسلوب التقليدى المسجوع ليدخل فى روع قرائه أن الكاتب العصرى لا يعجز عن مثل ذلك الأسلوب ، أو لا ينقصه ولا يخلعه عن قلمه ، لأن المعرفة العصرية لا تنقطع بكاتبها عن ماضيه .

ولم يتمكن رفاعة من تقرير النظام الذى كان يؤثره لتعليم طلاب الأزهر ، لأنه أُبعد إلى السودان فى أخريات أيامه لتنظيم التعليم فيه ، وتوفى سنة ١٨٧١ والأزهريون لا يحفزون لتلك الخطوة التى كان ينتظر منهم أن يخطوها تشجيعاً للحكومة على استخدام سلطانها فى تقرير نظامه اعتماداً على دعوة أهله ، ولكن شيخ الجامع لعهده – الشيخ مصطفى العروسى – خطا فى داخل الأزهر خطوة حسنة بالرقابة على علمائه وطلابه وانتقاء الصالحين منهم للتعليم والتعلم ومتابعة

الدرس فى العلوم التى يتطلبها العمل الجديد فى دواوين القضاء ومدارس الحكومة العصرية ، وأهمها علوم الحديث والتفسير والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبديع والمنطق ، ثم جاء خليفته الشيخ محمد المهدى العباسى فأسس نظام الامتحان لشهادة العالمية على نظامها الحديث بعد استئذان الحكومة لاعتبار هذه الشهادة فى ولاية الوظائف العامة غير التدريس بالجامعة الأزهرية ، وجعل هذه الشهادة على درجات : أولى وثانية وثالثة ، على حسب إجابة الطالب وطبقة الكتب التى يجرى الامتحان فى مادتها .

• • •

على هذه الحالة كان الجامع الأزهر حين وصل الشاب محمد عبده إلى القاهرة لينتظم فى سلك طلابه :

المفروض فيه بحكم الشهرة الموروثة أنه جامعة عالمية تزود طلابها بكل ما وسعته العقول البشرية من معارف الماضى والحاضر وعلوم الدين والدنيا .

والحقيقة الواقعة أن دروسه يومئذ كانت مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ويعول فى تحصيلها على حفظ الذاكرة وقلما يطالبه أحد من أساتذته أو يطالب هو نفسه بوعيها والتصرف فى لفظها ومعناها .

وكان التعليم والتعلم كلاهما فوضى مهملة لا رقابة عليها لأحد ؛ فلما دعا الأمر إلى اختيار طائفة من خريجى الأزهر لوظائف القضاء والتعليم رسمت لهم شروط الامتحان ودرجات الإجازة على مثال الشهادات المدرسية التى كانت ترشح الحاصلين عليها من خريجى المدارس العصرية لوظائف الدولة .

وقد كان الراغبون فى تغيير هذه الحالة غير قليلين ، ولكنهم كانوا لا يملكون سلطة التغيير ، أو يملكونها ويؤثرن أن يتمهلوا حتى يجىء طلب التغيير من أهله ، تجنباً لإثارة الشبهات بابتداع البدع واتباع دعاة الزندقة – أو الفرنجة – فى أمر المعهد الأكبر من معاهد الدين .

محلة نصر

ولد أستاذنا الإمام بحصة شبشير من قرى إقليم الغربية . ولكنه نشأ بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة . حيث نشأ والده ونشأت أسرته من قبله .

وقرية « محلة نصر » هذه إحدى القرى الصغيرة فى أقاليم الريف ، ولكنها – على صغرها – كانت من تلك القرى التى يصح أن يقال فيها إنها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله ، ذات كيان اجتماعى مكين ، تتمثل فيه أحداث العهود ويحس أهله فيه طوارئ الزمن من عهد إلى عهد ، بل من ولاية إلى ولاية ، لأنهم يعيشون فى ظل كيان غير منقطع عن مجرى الحوادث الكبرى فى الإقليم ، وفيما حول الإقليم من ميادين الحياة فى أنحاء البلاد .

ولا يخطرن لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى فى هذه الأنحاء ، فإن من هذه القرى ما يبلغ من عزلته أن يتغير الوالى فى القطر كله ولا يدركون تغيره بعمل ظاهر فى القرية ، بل منها ما يعم الوباء وينتشر بين أقاليم شتى ، ولا يصل إليها ، لقيام العلاقة بينها وبين ما حولها على المعاملات البعيدة ، وقد تكون منها معاملات « حولية » تعود مع المواسم والمحاصيل ، ولا تخرج من نطاقها المحدود بقية أيام الحول .

أما هذه القرية الصغيرة فى إقليم البحيرة – محلة نصر – فكانت من تلك القرى الممتازة بدوام اتصالها بالحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى سائر أنحاء البلاد ، وتاريخها فى خلال القرن الذى ولد فيه الإستاذ الإمام شاهد على هذه الصلة الدائمة بينها وبين كل حادث خطير من الحوادث القهرية التى سجلت لنا أدوار التاريخ فى الوطن المصرى بحذافيره .

مارست العيش فى ظل نظام الإقطاع ، وسميت باسم محلة « نصر » لأنها كانت اقطاعاً لرجل بهذا الأسم لم يبق من تاريخه ما يعرف غير هذه النسبة .

ولما نشأت أنظمة « التفاتيش » الزراعية التى خلفت عهد الإقطاع كان أكبر هذه التفاتيش من أملاك الخديو إسماعيل على مقربة منها ، أو على علاقة بأهلها ، وإلى جوار هذا التفتيش بمركز السنطة هاجر أبو الأستاذ وعمه ، وكان معهم — كما قال الأستاذ فى تاريخه — قدر من المال يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فيها بأيديهم ومعونة شركائهم ، فاشتهر والده بين أهلها « بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح فأحبه لذلك مصطفى أفندى المنشاوى ومحمد أخوه ، وكانا موظفين فى دائرة إسماعيل باشا الخديو : أولها فى وظيفة مفتش زراعة والثانى فى وظيفة ناظر ، وطابت له صحبتهما فعدوه كأنه واحد من أهلها ، ودام ذلك مدة سنين » .

وقد كان أهل محلة نصر يشعرون بتقلب الأحوال بين وال ووال من أبناء الأسرة الخديوية ، فاعتقل بعض أهلها فى زمن عباس الأول ثم أفرج عنهم فى عهد خلفه محمد سعيد ، ومنهم والده وبعض رؤساء أسرة المنشاوى بالاتهامهم بحمل السلاح وإيواء بعض المطلوبين للخدمة العسكرية ، فى أشد أيام النقمة عليها .

ولم تنج المحلة الصغيرة من وباء الطاعون الذى فتك بكثير من سكان القطر فى منتصف القرن التاسع عشر ، فمات به جده « حسن خير الله » عن ولدين هما أبوه وعمه .

وكان للقرية مقامها الدينى ، أو كان هذا المقام هو نواتها الذى التفت به سائر مساكنها ، وذلك أن أجداد محمد عبده كانوا يسكنون الخيام مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ، وكان معتقداً ينسبون إليه الكرامات له فاتخذ ، خلوة يتعبد فيها بالمحل الذى قامت عليه بعد ذلك محلة نصر ، ثم توفى فنهض جدهم — وكان من بيت الشيخ — ببناء قبة له جعلوا لهم مساكن من حولها ، وانضمت إليها بيوت كثيرة تألفت القرية من مجموعها بعد فترة وجيزة .

ولم تخل القرية من « قوتها الحيوية » التى أسلفنا فى الكلام على القرية المصرية

أنها كانت عدة الريفيين فى مقاومة سلطان الطغاة الكبار ومقاومة أعوانهم من الطغاة الصغار أصحاب الإقطاع أو أصحاب الالتزام . إذ كان هؤلاء الطغاة أعجز من أن يسوقوا الزارعين جميعاً بعصا الإكراه ، ولم يكن لهم بد من مداراة العلية البارزين منهم ومصانعة الأسر التى تمكنت من مقاد أهل القرية بجاه الثروة أو بجاه الكثرة .

روى المؤرخ المشهور على مبارك باشا أنه اطلع بين مراجعه المخطوطة على رحلة لعبد اللطيف البغدادي تعرف بالرحلة الكبرى ، رأى فيها اسم محلتى نصر ومسروق ، وقال إنه نزل ضيفاً فى بيت خير الله التركمانى ، وأن البيوت الكبيرة فى البلد كانت ثلاثة : بيت الشيخ ، وبيت خير الله ، وبيت الفرنوانى .

ويظهر أن بيت التركمانى من هذه البيوت — وهم أجداد محمد عبده — كان أقواهم شكيمة وأعصاهم مقاداً على سادة القرية من أصحاب الإقطاع والالتزام ، فحاربوه وطاردوه ولم يكفوا عن متابعته بالمطاردة والاضطهاد كأنهم أيقنوا أنهم لا يأمنون مقاومته وتمرده عليهم أو يستأصلوه ، فلم يزالوا بعصبة جده لأبيه حتى اعتقلوا منهم نحو اثنى عشر رجلاً ، وسعوا بهم لأنهم ممن يحمل السلاح ويقف فى وجوه أعوان « السلطة » عند تنفيذ المظالم ، ثم جاء دور أبيه بعد حين فحورب فى رزقه وعمله حتى هاجر القرية وقضى بعيداً منها نحو خمس عشرة سنة .

وليس فى أخبار هذه الأسرة ما يدل على ثراء كبير فى ماضيها البعيد أو القريب ، ولكن كل خبر من أخبارها التى بقيت لنا يدل على كثرتها وسعة انتشارها فى إقليم البحيرة وما جاوره من بلاد إقليم الغربية .

فأخوال أبيه كانوا أكثر سكان القرية التى عرفت باسم كنيسة أورين ، ومنهم — الحاج محمد خضر — عمدة القرية ، وأخواله هو كانوا معظم سكان الحصة التى اشتهرت بحصة شبشير ، وجده لأمه هو عميد أكبر بيوتها بيت عثمان الكبير .

وكان له أقارب بمنية طوخ فى مركز السنطة ، وأقارب فى القرى بين

الإقليمين . أما أقاربه فى محلة نصر فهم كما جاء فى ترجمته « كثيرون يتصلون بهم من جهة الناس » أى بالنسب والمصاهرة ، ولم يكن فى القرية عند تأسيسها سكان غير أهله بيت التركمانى ، وغير بيتين آخرين هما بيت الفرنوانى وله بهم صلة كما يظهر من سيرة صاحب الضريح المدفون فى محلة نصر . والبيت الثالث هو بيت الشيخ الذى أشار إليه الرحالة البغدادي ، وربما كانت عصبته من الأقارب والأصهار أكبر هذه العصب عدداً وأصعبها مقاداً ، لأنها كانت – كما تقدم — هدف المقاومة والاضطهاد من أعوان الحكام ، وكان مصابها بالمظالم يكشفها لتلك المقاومة كلما حلت المظلمة بواحد من المنتسبين إليها واللاجئين إلى جوارها .

• • •

ولا يخفى أن قيام « دستور الأسرة » أدل على كيانها الاجتماعي من مجرد الكثرة العددية أو سعة الجاه الكتسب بالوفرة والثروة . لأن الكثرة والوفرة قد تدلان على وجود الأسرة ولا تدلان على رعاية آدابها وحماية حوزتها والتزام سمتها وسمعتها . ونحن فى العصر الحاضر نذكر دستور الأسرة فى قرى الريف ونسمع من يسميه تارة بسير البلد أو بسير العائلة ، قبل أن تسرى على الألسنة كلمة التقاليد العائلية أو كلمة العرف الاجتماعي ، وكان هذا « السير » ولا يزال أقوى سلطاناً بين أهل البلد من سلطان الحكم والشريعة فى كثير من الأحوال . .

ومن الأخبار القليلة التى رويت لنا عن محلة نصر نعلم أنها – على صغرها – قرية ذات أسر مسماة وبيوت منسوبة ، وأن أسرة التركمانى من أسرها الثلاث المعدودة كان لها بيت كبير فيها بغير باب تعيش فيه أكثر من « عائلة » واحدة من عائلات الأسرة الكبيرة . وترك الدار الكبيرة بغير باب فى الريف علامة فى وقت واحد على الكرم المقصود والجوار المرهوب ، فلا تقام السدود فى وجه الضيف الغريب ولا يجترئ المعتدي على اقتحام الدار على كره أهلها ، وتلك هى آية الكرم والمنعة فى كل عرف وكل بيئة . فليس للبيت مكانة وراء مكانة الموئل الذى لا يغلق ولا يستباح .

ويروي الأستاذ الإمام من ذكريات طفولته أنه كان قبل أن يدرك معنى

الكرم والمنعة يرى أن الكبراء من زوار القرية ينزلون فى بيته ضيوفاً على أبيه ولا يذهبون إلى بيت العمدة وهو أغنى من أبيه وأقرب إلى مقام الرئاسة فى الحكومة ، وكان أبوه يأكل مع الضيوف ولا يأكل مع أهله فى الدار ، فإذا خلا البيت من الضيوف تناول طعامه وحده على حكم هذه العادة ، فكان الطفل الصغير يضيف هذا الانفراد إلى سمت الوقار الذى يراعاه لأبيه ، ويحسبه أكبر رجل فى الدنيا ، لأنه لا يعرف من الدنيا غير محلة نصر وما جاورها من شبيهاتها فى الإقليم المحدود .

وكل أبناء القرى تروى لنا عن هذه الأسرة أنها كانت تنشأ على الفروسية وتحمل السلاح وتتعرض للشبهة والمطاردة ، بل للسجن والمصادرة من جراء هذه الخصلة المتأصلة فيها ، ومن أنباء الأسرة فى جيلين قريبين نعلم أنها لم تكن قط تستكين إلى المقام فى موطنها على كره ومهانة . . فلا يزال البارزون من أبنائها بين مقام مرضٍ فى ديارهم أو إيثار للهجرة والاغتراب ، إن لم يقعدهم عنها السجن والاعتقال .

ولا ينبئنا صاحب الترجمة بأصل هذه النسبة – نسبة التركمانى – التى اشتهر بها بيته وسمع « المزاحين » من أهل البلد يلقبونه بها وهو لا يفقه معناها . ولكنه سأل عنها كما نسأل عنها اليوم فقال له والده : « إن نسبنا ينتهى إلى جد تركمانى جاء من بلاده فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام مدة من الزمن . . »

ويلفت النظر فى هذه الرواية أن اللقب كان مما سمعه الطفل الصغير من « المزاحين » فى القرية ولم يسمعه من أبيه ولا أحد من ذوى قرابته . فليس هو باللقب الذى تتحدث به الأسرة وتدعيه لنفسها مفاخرة به كما كان يفعل بعض المنتسبين إلى غير هذا البلد فى عهود الطغيان الأجنبى . بل لعله كان مما يقال على سبيل المغايظة والاستثارة للأطفال الصغار . فإذا جاء اللقب بغير دعوى فقد يكون له مرجع من التاريخ نهتدى إليه من مراجعة أخبار التركمان فى هذه البلاد منذ كانت لهم أخبار متددة بهذا الاسم فى التاريخ الحديث .

فإذا قدرنا أن البيت التركمانى عرف بهذا الاسم قبل وفود عبد اللطيف

البغدادي إلى مجلة نصر بنحو خمسين سنة فقد مضى عليه فى مصر نحو ثمانية قرون ، وهى مدة كافية لإعراقه فى هذا الوطن بالنسبة إلى الوافدين إليه من أبناء الأمم التى اختارته لسكناها بعد زوال الدولة الرومانية ، على تفاوت فى الأزمنة من فتح العرب إلى أيام المماليك .

ويرد ذكر التركمان كثيراً فى أخبار القرون الأولى من تلك الفترة ، فيقول المقريزى وقد ذكر أنه أدرك عهد الظاهر برقوق : « إن جيوش الدولة التركية كانت بديار مصر على قسمين : منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس » .

ومن هذا السياق العابر نعلم أن التركمان كانوا بين فرق الجيش ، وأنهم لم يكونوا من المماليك المبتاعين لأنهم كانوا سكان خيام ولم تجر العادة بشراء الأسرة بخيامها من أهل البادية . ويوافق هذا الخبر ما رواه صاحب الترجمة عن أبيه من سكنى أجدادهم فى الخيام قبل انتقالهم إلى البيوت حول مقام الشيخ « عبد الملك » الذى سبقت الإشارة إليه ، ولا بد أن يكون هذا قد حدث قبل عهد الظاهر برقوق .

ونحن إذن بين فرضين : أحدهما أن هذا اللقب المتواتر قد لقبت به الأسرة عدة قرون بغير معنى ولغير سبب ، والفرض الآخر أن الاتفاق بين التسمية وبين المذكور من سكناها الخيام ومن نشأتها على الفروسية وحمل السلاح لم يكن بعض عوارض المصادفة أو الاختلاق ، بل كان بقية منقولة بين التذكر والنسيان ، يجوز لنا أن نفهم منها أن جداً قديماً للأسرة وفد إلى مصر قبل نحو ثمانية قرون واختار المقام فى إقليم البحيرة لموافقته فى ذلك العهد على الخصوص لسكنى البادية ، ويرجح أن مقدم هذا الجد إلى مصر كان على أيام صلاح الدين لأنه كان يستكثر من جنود الأكراد وجيرانهم التركمان ، وكان شديد العناية بإقليم البحيرة وكل ما جاور ميناء الإسكندرية إلى الغرب أو طريق الصحراء الغربية من

حيث وفد الفاطميون أسلافه فى حكم مصر ، ولم يزل على حذر من جانب هذا الطريق بعد إسقاط لدولة الفاطمية بعدة سنين ، فلا جرم يختص بإقطاعه أقرب الناس إليه وينشر فيه جنده التركمان والأكراد ليقيموا فيه مقام الأهل ويحرسوه حراسة العسكر مع مقامهم فيه .

أما نسب صاحب الترجمة لأمه فجملة ما نعلمه عنها أنه كانت تنسب إلى بنى عدي بالصعيد وهم منتسبون إلى القبيلة القرشية قبيلة عمر بن الخطاب كما هو معلوم ، ولكن الإستاذ الإمام يقول إن « ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها » .

وقد كانت مع أهلها من البيت الذى عرف فى قرية حصة شبشير باسم بيت عثمان الكبير ، وتزوج منها والده أثناء هجرته إلى إقليم الغربية ، واسمها « جنينة » بنت عثمان ، ويصفها ولدها الأمين فيقول « إنها كانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجداً وطاعة لله وحمداً . . » ويقول إن منزلتها بين نساء القرية لم تكن تقل عن منزلة أبيه بين رجالها .

والذي نراه أن انتساب هذه الأم إلى بنى عدي بإقليم أسيوط ، وانتساب بنى عدي إلى القبيلة القرشية المعروفة ، أمر لا داعية للشك فيه ، لأن هجرة القبائل القرشية إلى إقليمي المنيا وأسيوط خبر من أخبار الفتح العربى المتواترة ، ولزوم هذا الاسم للقبيلة المعروفة به عند منفلوط لا يتسلسل مع الزمن اختلاقاً بغير سند أصيل ، وقد ينتسب رجل أو امرأة الى إحدى القبائل دعياً فيها بغير سند ، ولكن انتساب قرية كاملة الى القبيلة أمر نحسب أن تكذيبه أصعب من تصديقه ، ولا موجب لتكذيبه على أيه حال بغير دليل .

وإنما تحتاج الرواية إلى دليل راجح إذا ارتفعت النسبة إلى رجل معلوم ، إذ لا يلزم من صحة النسب إلى قبيلة عمر بن الخطاب أن يكون العدوي المنسوب من ذريته ، ولا يثبت ذلك إلا بسلسلة النسب المحدود ومتابعة أخبار الأبناء والأجداد ما بين الموطن الأول فى الحجاز وموطن فروع فى هذه الديار .

على أن الأخبار المتقدمة جميعاً لا تتناقض فى اختلافها ولا تتباعد كثيراً فى جوهرها . فكلها تنتهى إلى نتيجة واحدة لا غرابة فيها . وهى أن المصلح الغيور قد أنبتته قرية موصولة بالتاريخ ترشحه لرسالته التاريخية ، ونمته أسرة أبية تورثه ما قد ورث عنها من عزة وعزيمة .

محمد بن عبده بن حسن خير الله

نشأ الطفل « محمد عبده » فى بيت من بيوت القرية المتوسطة ، لا يحسب من أفقرها لأن الفقير فى القرية لا يقتنى الخيل ولا يفرغ لرياضة الفروسية وما إليها ، ولا يملك من موارد الكسب ما يعينه على فتح بيته للضيافة وإيواء الضيوف من علية الزائرين فى نظر أبناء القرية .

ولا يحسب من أغناها ، لأن القرية كان فيها من هو أغنى من أرباب ذلك البيت ولم تكن من السمعة بحيث يتسع زمامها كما يقول أبناء الريف لبيوت كثيرة من أصحاب الثراء ، وعدة سكانها فى أيام نشأة الطفل الصغير لم تزد على ألف نسمة عند نهاية القرن التاسع عشر ، كما جاء فى إحصاء سنة ١٨٩٧ ميلادية .

والمعلوم من شأن هذا البيت فى تلك الفترة أن أبناءه كانوا يزرعون أرضهم بأيديهم ويستأجرون معها أرضاً من ملك غيرهم يتعاونون على زرعها مع جيرانهم ، ويكفل لهم ما عرف عنهم من الجد والاستقامة وصلابة العود أن يزيدوا موردهم بين عام وآخر فى حدود طاقتهم ، فقد بلغ ما ملكوه من الأرض عند نشوب الثورة العرابية نحو أربعين فدانا فى خبر رواه الدكتور عثمان أمين عن صحيفة إنجليزية ، ولم نطلع على مرجع آخر يحدده بهذا المقدار ، ولكنه لا يجاوز حده المعقول إذا نظرنا إلى الأسرة التى كان يعولها والد الطفل على حالة بعيدة من حالة الفاقة والاضطرار .

ونحن نعرف أفراداً من تلك الأسرة قليلين ممن وردت أسماؤهم فى تراجم الأستاذ الإمام فى أثناء حياته وبعد مماته .

فمنهم جده حسن خير الله ، وعمه يونس حسن خير الله ، وابن عمه إبراهيم ، وأخوه من أبيه علي ومحروس ، وأختاه شقيقتاه : زمزم ومريم ، وأخوه من أمه مجاهد ، لأن أباه تزوج من أمه وهي أيم تقيم مع أبيها عثمان الكبير بقرية حصة شبشير على مقربة من طنطا ، وهؤلاء غير أفراد أسرته من أخوال أبيه أو

أحوال فى غير المحلة ، وكلهم من رجال الأسرة عملوا فى الزراعة ولم يعرف لهم عمل من أعمال كسب المعيشة فى غيرها .

ويتقاضانا البحث عن كل ما له دلالة خاصة من شأن هذه الأسرة أن نلتفت إلى « سيرها » أو عادتها فى التسمية . فإنها تختار الأسماء لمعانيها ومناسباتها ، فإذا اختارت اسماً من غير أسماء الأنبياء وأعلام الصحابة لم يكن هذا الاختيار جزافاً لغير معنى مقصود . فمن أسمائهم محمد وإبراهيم وعلي وحسن وعثمان وحمودة ، ومنها بهنس ودرويش ومجاهد ومحروس .ومعنى بهنس أنه يمشى مشية الأسد أو مشية الفارس المتبهنس ، وهو اسم يتم على عراقة فى حب الفروسية بين أجيال هذه الأسرة ، ودرويش لم تكن من الأسماء التى تطلق على المولودين حيثما اتفق ، لأن صاحبه كان من أهل التصوف وكانت له رحلات إلى شيوخ الطريق فى المغرب كرحلات السياح المتنسكين ، وقد سماه به والد اسمه « خضر » وهو اسم الإمام الذي تعلم من القرآن الكريم أنه كان يجوب الآفاق ويعلم موسى عليه السلام معرفة أهل الباطن وأسرار الشريعة الخفية . . واسم محروس غير عجيب أن يكون مقصوداً بمعناه من حراسة الله فى بيت مرزأ مضبطهد ، قد ابتلي العشرات من أبنائه بالنفى والسجن والمصادرة ، وقضى منهم من قضى بالطاعون ، ومن بقى بعده لم يزل بين خصومه الألداء عرضة للوشاية والخراب . واسم مجاهد ظاهر الدلالة على حب العمل فى سبيل الله ، وتظهر العاطفة الدينية فى تسمية البنات باسم زمزم ومريم ، فإنها تسمية أناس مشتغلين بأمر الدين . واسم عبده مضافاً إلى الضمير الذي ينوب عن جميع الأسماء الحسنى معناه أن المتسمي به « عبده » هو سبحانه وتعالى وليس بعبد أحد من خلقه . وقد يطلق هذا الاسم بغير نظير إلى هذا المعنى ، ولكنه إذا أطلق على المولود فى زمن يسام فيه أهله الذل والعنت ويرفعون فيه الرأس بالتحدي والمناجزة فليس هو من الأسماء التى تطلق جزافاً ولا تراد لمعنى ، وكذلك اسم خير الله كبير الأسرة : أنه خير الخالق وليس بخير أحد سواه ، وأصغر أبناء الأسرة « حمودة » هو اسم محمد للتحبيب ، سمي به لأن له أخاً أكبر منه يسمى محمداً وينادي أخوه الأصغر باسم حمودة كأنه ينادي باسم محمد الصغير .

ونحن نلتفت إلى هذه العادة فى التسمية ونرجح القصد فيها لأنها مناسبة لحالة الأسرة غير منقطعة عن معانيها كما تنقطع معانى الأسماء فى كثير من الأسر التى تجري فى اختيار الأسماء لأبنائها وبناتها مجرى التقليد الذي تتساوى فيه ظروفها وظروف غيرها . فإذا صح ما ذهبنا إليه فهو آية أخرى من آيات الاستقلال بالرأي فى هذا البيت ، وعادة من عادات أناس يريدون لأنفسهم ولا يراد لهم فيما يعنيهم من شؤون الآباء والأبناء .

واسم صاحب الترجمة « محمد » هو الاسم الذي يقترن باسم أبيه فيساوق لفظ التحية الإسلامية كلما ذكر النبى « محمد عبده » ورسوله .

فمحمد عبده اسم للوليد وذكرى محبوبة لنبى الإسلام عليه السلام .

وأغلب الظن أن « محمداً » نذر من يوم مولده لطلب العلم ، لأنه ولد بجوار مدينة طنطا فى أواخر سنة ١٢٦٥ هجرية أو أوائل السنة التى تليها ، وهو موعد من السنة يحتفل فيه بإحياء ليلة جامعة يشهدها المريدون من أنحاء الأقاليم وتتلى فيها سور القرآن الكريم يرتلها أشهر القراء بالمسجد الأحمدى ، وهو مشهور منذ بنائه بعلوم القرآن حفظاً وتجويداً وتفسيراً ، وله فى كل ليلة من ليالي الأسبوع مقرأة باسم أحد المحسنين من أصحاب الوقوف عليه ؛ ومن عادة قرائه الكبار أن يجلسوا بعد صلاة الجمعة ، أو بين العشائين ، كل ليلة من ليالي المقارئ لاستماع سور القرآن من المبتدئين بحفظه وتجويد تلاوته ، وهم الذين يخلفون كبار القراء بعد إتمام الحفظ وإحكام التلاوة والإلمام بما يتيسر لهم فى سنهم من تفسير آيات الفرائض والعبادات .

فإذا كان الوالد المغترب قد شهد بالمسجد ليلة الختام وشهد معها تسابق الفتية الصغار إلى تجويد القراءة والاستعداد لطلب العلم بمعهده الذي كان يسمي بالأزهر الصغير ، أو الأزهر الثانى ، فليس أقرب إلى الذهن من أن يخطر له أن ينذر وليده فى هذا الجوار لمثل هذه الكرامة ، وهو على ما طبع عليه من التدين والتطلع إلى عظائم الأمور ، ولم يكن لابن القرية يومئذ من مستقبل أعظم من مستقبل العالم الذي يقود الأمة فى شؤون الدين والدنيا ، ويحاسب ولاة الأمر على

ظلم أهل القرى ، وهو فى اغترابه لا ينسى ذلك الظلم ولا يتمنى لولده مقاماً أكبر من مقام ذلك الحسيب المهيب .

° ° °

لذلك بقى الطفل الصغير بعد عودة أبيه إلى محلة نصر معفى من تكاليف العمل فى الحقل مع أخويه وذوي قرباه ، وتعلم الكتابة والقراءة فى منزل والده ثم وكل إلى حافظ معتقد لتحفيظه القرآن ، ثم أرسل فى سن طلب العلم إلى طنطا لتلقى علومه تمهيداً للترقى منه إلى الجامعة الأزهرية ، ولم يقبل منه أبوه عذراً للتخلف عن المسجد بعد تزويجه المبكر فى نحو السادسة عشرة ، ولعله حسب أن إحجامه عن متابعة الدرس كان عرضاً من أعراض سن المراهقة ، وأنه مع ذكائه الذي ظهر منه فى تعلم الكتابة وحفظه للقرآن فى نحو سنتين خليق أن يعدل عن المعاندة فى طلب العلم الذي نذره له منذ ولادته ، وتفصيل ما بعد ذلك من مراحل تعليمه مبسوط فى سيرته التى كتبها ، ننقله بنصه ولا نرى لنا مرجعاً أولى بالاعتماد عليه وأوفى منه فى بابه ما كتبه بعنوان « نشأتى وتربيتى » من تلك السيرة التى نشرت بعد وفاته . قال رضوان الله عليه :

« تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرءوا القرآن عند هذا الحافظ ، ظناً منهم أن نجاحي فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملنى والدي إلى طنطا ، حيث كان أخي لأبى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية .

« وفى سنة مائتين وأحدى وثمانين هجرية جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوي على الأجرومية فى مسجد الأحمدي بطنطا ، وقضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم ، فإن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم

يعرفها ، فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر علىّ أخي فأخذنى إلى المسجد الأحمدي ، وأراد إكراهي على طلب العلم ، ولم يبق علي إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقارنى : وانتهى الجدال بتغلبى عليه . فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ، ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية .

« فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر..وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم...وسبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أوما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون نغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضلون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه .

عودة إلى طلب العلم

« بعد أن تزوجت بأربعين يوماً ، جاءنى والدي صحوة نهار وألزمنى بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم . . وبعد احتجاج وتمنع إباء ، لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ، ووجدت فرساً أحضره فركبته وأصحبنى والدي بأحد أقارنى . . وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعنى إلى محطة « إيتاي البارود » التى أركب منها قطار السكة الحديد إلى طنطا .

« كان اليوم شديد الحر ، والريح عاصفة ملتهبة ، تحصب الوجه يشبه الرمضاء . . فلم أستطع الاستمرار فى السير فقلت لصاحبى : أما مدوامة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولابد من التعريج على قرية أنتظر فيها حتى

يخفّ الحر . . فأبى علىّ ذلك فتركته ، وأجريت الفرس هارباً من مشادته ، وقلت إنى ذاهب إلى (كنيسة أورين) بلدة غالب سكانها من خؤولة أبى . وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . . أدركنى صاحبى وبقى معي إلى العصر ، وأرادنى على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وإن شئت قلت لوالدي إننى سافرت إلى طنطا . . فانصرف وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولت فيها حالتى ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى .

مع الشيخ درويش

« ذلك أن أحد أخوال أبى ، واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفاره إلى صحراء ليبيا . . ووصل فى أسفاره إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدنى والد الشيخ الظافر المشهور الذي كان قد سكن الآستانة وتوفى بها وعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية . وكان يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

« جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتّها فى الكنيسة ، وبيده كتاب يحتوي على رسالة كتبها محمد المدنى إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره . . فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءةُ ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد ، ولكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معانى ما قرأت ثم بعبارة واضحة تغالب إعراضى فتغلبه وتسبق إلى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعونى إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم .

« بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح علي فى قراءة شيء منه . قرأت ثم

تركته إلى اللعب ، وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لي معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لي إنه فى حاجة إلى الذهاب إلى لمزرعة ليعمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ، ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها إلى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وكل هوى ينازعنى إلى البطالة . . وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم .

مفتاح سعادتى

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

« لم يأت علىّ اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلىّ ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلىّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم . وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني إلى ما كنت أحب ويزهدونني فى عشرة الشيخ رحمه الله ، فكنت لا احتمل أن أرى واحداً منهم ، بل أفر من لقائهم جميعاً كما يفر السليم من الأجرب .

« وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ما هي طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الإسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال : ولو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب .

« هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم . . متاع تلك الدعاوي الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وإن كنا فى غمرة ساهية .

« وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قديفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوي بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت إذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : « إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته . وإن أعدى أعداء العلم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه . وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة ، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بممجود لديه إلا ما يسميه بعض الناس علماً . وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلها الإضرار بالناس » .

محور حياة

صحبنا الفتى الناشئ فى مراحل التعليم إلى نحو الثانية والعشرين من عمره فلو أننا أردنا أن نلتمس لحياته فى هذا الدور محوراً تدور عليه يجتمع لنا فى كلمة واحدة ، لما كانت هذه الكلمة أصدق ولا أوفى من كلمة التعليم .

صحبناه إلى أول لقاء له بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغانى وسنصحبه بعد ذلك ردحاً من العمر فى الصفحات التالية . ولا نرانا نعرف لحياته المباركة محوراً غير ذلك المحور الذي دارت عليه كل أدوار حياته ، على تعداد جوانبها واتساع ميادينها .

بل نحسب أننا لو صحبناه فى كل صفحة من الصفحات التى عنيت بأخباره وآثاره لما ابتعدنا من ذلك المحور المكين ، وإن ذهبنا إلى غاية الأمد الذي أحاطت به حياته الحافلة بجلائل أعماله ، متعلماً ومعلماً وعاملاً على نشر العلم النافع حيث استطاع ، وقد استطاع ما لم تستطعه العصبة أو لو العزم فى جيل واحد ، من الثانية والعشرين إلى السادسة والخمسين .

اننا نصاحب الطفل محمد عبده كما نصاحب الفتى محمد عبده ، والشيخ محمد عبده ، فلا نراه أبداً إلا على مفترق طريقين من طرق العلم ، أصلحها هو الذي يختاره له القدر أو يختاره لنفسه ، منذ تعلم الكتابة فى بيته إلى أن فارق دنياه وهو يناضل نضاله الدائم فى سبيل أصلح الثقافتين وألزم التعليمين .

– كان فى نحو السابعة حين ابتدأ بتعلم الكتابة والقراءة ، فكان فى قريته الصغيرة أمام طريقتين فى هذه المرحلة الأولى من مراحل التعليم : طريقة السوط والفلقة وصياح العشرات من الصبية بين جدران المكتب العتيق ، وطريقة التعلم فى البيت بين يدي أستاذ واحد من أهله يفهمه ويعنى بتفهمه ويعز عليه أن يعنته بالسوط والفلقة وجلبة الصياح فى مكان كالمكان الذي يختار للمكتب فى ذلك الزمن ، فكان من حظه أن يتعلم حروفه الأولى على أفضل الطريقتين .

وارتقى إلى المرحلة الثانية من مراحل التعليم فى القرية وهي حفظ القرآن ، فلم يتعلمه فى المكتب العتيق مأخوذاً بقسوة الضرب والشتم ، مرتاضاً على الترديد مع زملاء له يحفظون غير حفظه ويرددون غير ترديده ، ويستعينون بالحركة الآلية على هذا الحفظ الآلي الذي لا يعقله الأستاذ ولا التلاميذ ، بل هو قد حفظ منه ما استطاع أهله أن يعلموه فى البيت ، ثم أسلموه إلى الحافظ المعتقد الذي يقرأ الكتاب مع تلميذه الوحيد قراءة بعد قراءة ، قبل أن يأخذه باستظهاره من فاتحته إلى خاتمه مقروءاً أو غير مقروء ، لا فرق بين تعليم الضرير وهو لا ينظر إلى الصفحة وتعليم البصير الذى ينظر إلى الكلمات والآيات فيدرك جهده من الإدراك معنى الانتقال من آية إلى آية ، ويستعيده للفهم جهده قبل أن يستعيده للحفظ والاستظهار . . فكان فى هذه أيضاً مجدوداً موفقاً إلى أمثل الطريقتين ، وفضله فى مثل هذه السن أنه وافق هذه الطريقة باستعداده للمضى فيها إلى غايتها ، ولم ينفر منها كما نفر من التعليم – وهو أكبر من تلك سناً – لأنه تعليم معيب .

° ° °

ثم ألفى نفسه متردداً عند مفترق الطريقين أيضاً على فجوة أوسع من كل فجوة مرت به منذ اختبر التعليم فى البيت أو عند حافظ القرآن .

ألفى نفسه على مفترق الطريقين بين دروس المسجد الأحمدي يوم ذاك ودروس قريبه الصوفى الحكيم الشيخ درويش بكتيسة أورين .

ألفى نفسه بين طريقة الأذن والذاكرة ، وطريقة الذهن والوجدان :

فى الطريقة الأولى يبتدئ المعلم بتدريس النحو لجمع من التلاميذ الذين يجهلون كل شيء عنه ، فيلقى عليهم فى أول درس ومن أول صفحة إعراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويحدثهم عن حرف الجر وعن الاسم المجرور وعن المضاف والمضاف إليه وعن النعت ومطابقة الوصف للموصوف ، كأنهم قد فرغوا من دروس العربية كلها قبل أن يقرءوا البسملة على بابها الأول . . فمن وعي ما سمع فقد أدركته بركة العلم والمسجد ، ومن لم يع شيئاً مما سمع فذلك عندهم مطموس محجوب عن البركة والفائدة .

وهذه هي الطريقة التى سميناها بطريقة الأذن والذاكرة ، لأن أساتذتها يخاطبون فى تلميذهم أذناً تسمع الكلمات وذاكرة تثبتها كما هي وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعنيهم منه بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضيء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها .

وقد عاف الفتى الناشئ هذه الطريقة ولم يستطع أن يغالط نفسه فى حقيقتها

وإنما يفعل ذلك أحد اثنين من الطلاب : طالب مغلق الذهن عن كل معرفة مفهومة أو غير مفهومة ، فهو عاجز عن الاستماع إلى ما يفهم وما لا يفهم مما يلقى على أذنيه ، فلا يلبث بعد معالجة الحفظ والمراجعة زمناً أن يسلم الأمر تسليم اليائس لأنه من أولئك المطموسين « لم يفتح عليهم » وليس لهم من العلم نصيب مقدور .

والطالب الآخر الذي يزهد فى تلك الطريقة ولا يغالط فى حقيقتها هو صاحب الذهن الذي يتطلب الفهم والوجدان والذي يلمح النور إذا رآه . فإن لم يجدهما فى ساحة الدرس لم يبال أن يتركه لما هو أقدر عليه من شواغل حياته ، وبخاصة حين تكون هذه الشواغل رياضة كرياضة الفروسية تستريح إليها كل نفس حية وكل طبع سليم ، وعملاً كعمل الزراعة يقوى عليه صاحب الجسد فى العمل وصاحب البنية التى تحتمل الجهد ولا تعييها المشقة .

ولعمري إن من بواكير العظمة المستقلة فى هذا الفتى الناشئ أن يركن إلى عقله فى الحكم على هذه الطريقة بالعقم ولا يستسهل قبل ذلك أن يتهم عقله وأن يصنع ما صنع الألوف من قبله فى مثل بدايته ، فإنهم كانوا يكبرون أن يعيبوا هذا التعليم وهو محفوف بتلك الهالة الرهوبة التى تحف باسم المعهد الأحمدي وأسماء العلماء الذين يجلسون للتعليم فيه ، ومن اسم السيد البدوي تستعيد تلك الطريقة هيبتها وهو ثاو فى ضريحه براء منها . وأنه كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق فى ترجمته للأستاذ الإمام : « أشهر أولياء القطر المصرى وصيته وكراماته ذائعة فى أنحاء وادي النيل ، وللناس فيه اعتقاد ، ولزائريه من صور التوسل والزلفى ما لا يخلو من إسراف » .

ولا شك أن الشيخ « عبده حسن خير الله » قد تلقاها خيبة أمل مرة فى وليده المنذور للعلم والرئاسة الدينية والدنيوية ، ولولا رجاء الأب الذي يأبى أن تزعزعه صدمة أو صدمتان لما عاود الكرة على الفتى المتمرد ولا حال بينه وبين البقاء فى القرية كما أراد ، ولكنه لو كشف له حجاب الغيب لعلم أنه يشاهد من فتاه الصغير أنضر بواكير العقل المستقل والمعارضة القوية التى صار بها الطالب « الخائب » أستاذه الشرق الناهض بعد سنين .

أما الطريقة الأخرى ، طريقة العقل والوجدان ، فلم يكن بينه وبينها غير إشارة لطيفة من أستاذه الفلاح البسيط درويش خضر ، وغير كتاب مخطوط يلقى بين يديه ليقرأه ويستقل بفهمه ويسأل عما يغمض عليه من كلماته ، إن شاء .

فلم تكن لهذه الطريقة مهابة المعهد الكبير أو الأساتذة الكبراء ، ولم يكن لذلك الكتاب اسم يروع بالتواتر والتقليد ، أو شكل يعجب بصنيع الطبع والتجليد ، ولكنه كان بصفحاته المشوشة المبعثرة ، وخطه الساذج الممسوح ، كافياً لا جتذاب الطالب المتمرد على العلم وانصرافه عن لهو الفتوة فى ملاعب الخيل وحلبات السباق ، لأنه خاطب منه الذهن المتفتح والوجدان المتطلع إلى النور .

ولسنا نعلم اليوم شيئاً عما احتوته تلك الصفحات المخطوطة ، إلا أنها نخبة من حكم الصوفية وجوامع النوادر والأمثال .

ولكننا نستطيع أن نعلم عن تلك « الصوفية » أنها شيء غير الجذاب والتواكل وغير الكسل والزهد فى أعمال المعيشة ، لأن أستاذه الذي هداه إلى ذلك الكتاب كان فلاحاً يعمل فى الزراعة ، وكان يحضه على تعلم الحساب والهندسة والمنطق وعلوم الحياة ، وينهاه عن العزلة واجتناب الناس ، ولو كانوا على غير ما يرضاه من خلق وسيرة ، لأنهم بذلك أحوج إلى الهداية ومصاحبة العقلاء .

ولا يخلو مذهب صوفى قط من التفرقة بين الظاهر والباطن وبين شواغل الجسد وشواغل الروح ، ولكن هذه التفرقة قد تتراءى بالفوارق كما يتباعد

النقيضان ، وقد تتباعد بها كما يتباعد اللباب والقشور . ومثل هذه الصوفية هي التى نعلقها من مزاج رجل كالشيخ محمد عبده له بنية الفلاح السليم ونشاط الرياضى المقدام وثقة العقل المستقل وهمة الكفاح الذي يأبى أن يستكين لمغالبة الأحداث ، أو مغالبة الخصوم .

وفى الأسرة كلها على ما يظهر نفحة من هذه الصوفية العاملة التى تؤمن بحقيقة لهذه الدنيا وراء قشورها الظاهرة ، فمن أجداد محمد عبده أولئك الفلاحون الذين أقاموا مساكنهم حول ضريح « عبد الملك » وقامت المحلة كلها – من ثم – على أساس ذلك الضريح .

ومن خؤولة أبيه الشيخ « خضر » الذي تدل تسميته على هذه النزعة فى أبيه ، ومنهم الشيخ « درويش بن خضر » الذي وضع بين يدي تلميذه ذلك الكتاب وهو لا ينسى أن يحثه على العمل والعلم فى كل لقاء ، ومنهم أبوه « عبده » وأخوه « مجاهد » فيا تخلقا به من خلق وما عرفنا عنهما من غيرة على العلم ، مع اشتغالهما بالفلاحة وكفاح الحياة ، وهذه الطبائع التى تهديها الفطرة السليمة إلى الإيمان بشيء وراء القشور وسر وراء الكلمات ، قد تهديها هذه الفطرة السليمة بعينها إلى العصمة من أكاذيب الأدعياء وأباطيل اللصقاء بالصوفية ، لأن طبيعة العمل والجد فى فطرتهم تأبى عليهم أن ينخدعوا بما ينخدع به الكسالى الذين ينفرون من الجد الصادق بمقدار ارتياحهم إلى الأوهام الباطلة ، ويرحبون بما يحبب إليهم التواكل والاستقامة إلى أحلام اليقظة وتعلات الغرور بمقدار إعراضهم عن الواقع الصادع والبرهان الدامغ ، إن كان وراءهما جهد واجتهاد .

وغاية ما تسيغه الفطرة السليمة من استطلاع الأسرار أن تتفاءل بها لتمضى فى عملها ، ولكنها لا تتفاءل أو تتشاءم منها لتعرض عن العمل أو تركن إلى الكسل ، وكذلك كانت فطرة هذه الأسرة فى « صوفيتها » البريئة ، فإننا سمعنا عن عقائدهم فى الأولياء وأبناء الطريق ، ولكننا لم نسمع عن واحد منهم ساقه اعتقاده إلى إهمال حقله أو إلقاء فأسه والتخلي عن كفاحه للعيش ، أو كفاحه للخصوم .

• • •

ومن هذا التفاؤل إصغاء الطالب المتبرم بدروس المعهد إلى الكلمة التي لوح بها من قال عنه « إنه يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونها بالمجاذيب » . . وقد سمعها منه يوم كان يحدث نفسه بالانتقال من طنطا إلى القاهرة ، عسى أن يجد فى الأزهر ما لم يجده فى الأزهر الثانى أو الأزهر الصغير .

ولم يلبث أن أقام بالقاهرة أياماً حتى ألفى نفسه فى الأزهر كما ألفى نفسه قبل مرة على مفترق الطريقين : طريق الأذن والذاكرة ، وطريق الذهن والوجدان ، وقد سميتا يومئذ بين طلاب العلوم الدينية بطريقة التقليد وطريقة التجديد .

وحسبنا من تلخيص واف لصلابة المقلدين على جمودهم أن نعلم أن رئيسهم عليشا خرج يسعى بخنجره إلى مجلس الشيخ السنوسى ليقتله لأنه كتب فى مؤلف له أنه يجتهد بعلمه فى فهم الشريعة من كتاب الله ، غير متقيد بما كتبه الفقهاء من المتأخرين أو المتقدمين ، ولولا سفر الشيخ السنوسى من القاهرة لما برح الشيخ يتعقبه حيث كان يقضى عليه .

وقد كانت لأنصار التجديد مدرسة مستقلة يقصدها من يريدها وقلما يبحث عنها من كان يطلب العلم من يفتتحون كتاب النحو بإعراب البسملة ، ويختمون الكتب كلها بخاتم الذاكرة . فبحث الطالب الأزهري الغريب عن أساتذته المختارين من علماء التجديد ، وحضر على عالمين جليلين من أشهرهم وأقدرهم هما حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى ، وكلاهما من تلاميذ الشيخ حسن رضوان الذي تفرغ لحكمة النصوص بعد أن استوفى حظه من العلوم العقلية والشرعية ، ثم يئس من الدرس والتدريس فى الجامع الكبير فتركه ليلحق بأستاذه الذي كان يلقى دروسه فى غير حلقاته ، ونظم وهو يودع حلقاته أرجوزة يقول فيها عن جماعة المقلدين :

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا بل وقتهم فى « جاء زيد » ضيعوا
ظنوا بأن العلم علم القول لا والله بل علم القلوب فضلا

وعلم القلوب هذا هو العلم الذي ميزه الطالب الناشئ فى قريته وجاء إلى

العاصمة الكبرى ينشده فيجده على تلك الحال : إمامه العارف بفضله يبحث عن تمامه بعيداً من حلقات الجامع ، وخلفتاه النابغتان بعده يقنعان من درسه وتدريسه بالجانب المأمون من خنجر الشيخ عليش !

قال صاحب المنار نقلا عن الاستاذ الامام :

« . . . كان الشيخ حسن الطويل ممتازاً فى الأزهر بعلم المنطق وحضره عليه ولم يكن يشفى ما فى نفسه ، بل كانت تتشوف دائماً إلى علم غير موجود ، فكان يبحث فى خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ، ومما ظفر به كتاب القطب على الشمسية ناقصاً » .

قال : « وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان الدرس احتمالا أو شبهات الحذر فيها بينها ، حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت إليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها وأقصى أمنيتها . . » .

أهو مفترق الطريق مرة أخرى ؟

نعم ، ولكنه فى هذه المرة مفترق طريق فى مدرسة واحدة : مدرسة علم القلوب والعقول . وبديهة التلميذ الصادقة هي هاديه الأمين إلى أقوم الطريقين وأفضل الغايتين ، بين تعلم الشيخ حسن الطويل وتعلم السيد جمال الدين .

وإنما افترق التعليمان هنا بين طريق النظريات وطريق العمليات .

وكلاهما يخاطب الذهن والوجدان ، ولكن النظريات لا تذهب بعيداً وراء الفهم والمناقشة ، ولا تستريح النفوس المطبوعة على الحركة زمناً طويلاً إلى بحث من بحوث الذهن قصاراه ترجيح نظرية على نظرية وتوضيح شبهة واردة أو تصحيح غلطة خفية ، لأنها تفهم كيف تعمل ، وتهتدي لتسلك إلى الغاية التى تتحراها ولا تستريح إلى السكون دونها .

وغير هذه الطريق : طريق النظريات ، كانت طريق جمال الدين إلى « العمليات » التى تعيش مع صاحبها فى معترك الحياة ، وتعقب لها أثراً فى نفسه

وفيما يحيط به من أحوال قومه ، وخلاصة الفارق بين الطريقتين هي خلاصة الفارق بين صاحب درس وصاحب رسالة ، وقد يلتقيان ولكنهما لا يتساويان .

• • •

وبعد ، فإننا فى صفحات هذه السيرة لا نتوخى ترتيباً يقيدنا بترتيب أرقام السنين فى التقويم ، لأننا نتكلم عن نفحة من نفحات الحياة العالية بأوصافها وملامحها ، ولانتكلم عن نبذة من الزمن بترتيب حوادثه وأرقامه . فمكان الحادث من هذه السيرة هو مكانه فى موضع الدلالة على جوانب تلك الشخصية الحية ، ولاسيما جوانبها البارزة التى تنتظم من مبدأ العمر إلى نهايته ، وأولها وأهمها هذا الجانب الذي نراه على الدوام كأنه يوحد بين مسألة التعليم ومسألة العمر كله فى سيرة هذا المصلح العظيم الذى سمي بحق بالاستاذ الإمام .

ولهذا نتناول فى بعض هذا الفصل جملة الحوادث التى تتابعت بعد لقاء الطالب محمد عبده بأستاذه جمال الدين ، ومنه ما كان الخلاف فيه بين التلميذ والأستاذ بعد ملازمة السنوات الطوال .

• • •

تولى التحرير فى الصحف فكان مدار مقالاته التى كتبها فيها جميعاً على الدعوة إلى التعليم ، والتمييز بين التعليم النافع والتعليم العقيم الذي أدرك عقمه بالتجربة بعد التجربة من بواكير صباه .

ولم تمض سنوات بعد أول لقاء له بالسيد جمال الدين حتى جاشت البلاد بقلاقل الثورة الأولى ، وكان الطالب الذي تخرج يومئذ من معهده للتدريس يلقى دروسه ويكتب مقالاته ويشارك زعماء الثورة فيوافقهم على أمور ويخالفهم على غيرها ، ومن أهم ما خالفهم عليه أن يهتموا بتعليم الأمة لتوكل إليها حقوقها وهي أمينة عليها فإن ما يمنحه سلطان الحاكم بأمره يسلبه سلطان الحاكم بأمره « وإنما علينا – كما قال لزعيم عرابى – أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن يبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى

فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من عهد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمره قبل أن تستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى إلى الهلكة » .

وانتهت الثورة العرابية بنفيه إلى بيروت فكان عمله فيها التعليم بالمدرسة السلطانية ومحاضرة الطلاب والمريدين فى منزله وفى المساجد المشهورة ، وكان الأستاذ الشرتونى صاحب المعجم الكبير المسمى بأقرب الموارد يقول عن دروسه هناك : إنه يتكلم فيخرج النور من فيه .

وأذن له بالعودة إلى مصر فلم يفارق بيروت إلا بعد أن أودع آراءه فى إصلاح الأمة الإسلامية بالتعليم والتربية فى رسالتين أو « لائحتين » أرسل إحداهما إلى شيخ الإسلام بالآستانة ، وأرسل الثانية إلى والي بيروت ليشرح فيها ما اهتدى إليه أثناء مقامه من وسائل إصلاح البلاد من طريق التعليم والتربية .

وقد اتبع أستاذه جمال الدين فى حملات الإصلاح من طريق السياسة وعلى أيدي الأمراء والملوك الذين توسما فيهما صدق الرغبة فى استجابة الدعوة ، فلما بلغا بهذه الحملات المتداركة غاية مطافها ، عاد التلميذ يراجع أستاذه فيما هو أقوى وأجدى وقال له روى صاحب المنار :

« أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمي الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضى بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الإصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح » .

قال السيد لتلميذه فى رواية صاحب المنار : « إنما أنت مثبط . نحن قد شرعنا فى العمل ولابد من المضى فيه ، ما دمنا نرى منفذاً » .

ولكنه اختلاف الفطرة والاستعداد بين هذين الإمامين العظمين : أحدهما

خلق للتعليم والتهذيب والآخر خلق للدعوة والحركة فى مجال العمل السياسى والثورة « الأممية » . وظل المعلم المهذب على رأيه وعلى فطرته فى انتظار الفرصة الملائمة لأداء رسالته على حسب استعداده .

فلما عاد إلى مصر كان فى مرجوه أن يسند إليه عمل من أعمال التدريس فى معاهده العليا التى لا يعوقه فيها عائق من التقاليد الموروثة عن الانتفاع ببرامج الثقافة العصرية ، وأقرب هذه المعاهد إليه وأشبهها بعمله وبالرسالة التى أجمع العزم على أدائها هو معهد دار العلوم ، يجمع بين ثقافة الأزهر وثقافة العصر الحديث .

غير أن ولاة الأمر أوجسوا – على ما يظهر – من إسناد وظيفة التدريس فى دار العلوم إلى رجل مثله فى إيمانه بقوة التعليم واقتداره على بث هذه القوة فى نفوس الناشئة من معلمي المستقبل ، ومنهم مئات يتولون تعليم أبناء القطر كله بعد سنوات وينشرون فى أنحائه بذور نهضة متشعبة الأطراف ، هي أخطر على ولاة الأمر من الثورة العرابية التى أخمدوها وخيل إليهم أنهم استراحوا منها .

فأبعدوه عن وظائف التعليم واختاروا له وظيفة القضاء ، وهي وظيفة لوحظ فيها علمه بالشريعة ونزاهته فى الحكم وكفايته لتوجيه المحاكم الجديدة إلى وجهتها الصالحة فى أوائل نشأتها . ولكن لم تلاحظ فيها رغبته ولا كفايته للإصلاح من طريق التربية والتعليم ، وكان خليقاً أن يقبلها لو أنه نظر إلى مستقبله ولم ينظر إلى مستقبل رسالته فى الإصلاح ، لأن درجات الارتقاء فيها ممهدة إلى أرفعها وأعلاها فى مناصب الدولة ، ولم يكن للمعلم فى ذلك الحين مستقبل أرفع من مستقبل النظارة على مدرسة من المدارس الصغيرة ، لأن نظارة المدارس الثانوية والمدارس العليا كانت موقوفة يومئذ على الإنجليز والأجانب ، ولم يكن ناظر المدرسة الابتدائية يرتقى إلى درجته إلا وهو على باب الإحالة إلى المعاش . فلما حيل بينه وبين معاهد التعليم أسف لذلك وأوشك أن يستعفى ولاة الأمر من وظيفته القضائية . لأنه كما قال – جرب عمله فى التعليم وعلم أنه خلق له ولم يخلق « ليقول حكمت على هذا وحكمت لذاك . . . » .

• • •

إن الذي خلق للتعليم يعلم حيث شاء ، ويتعلم ما استطاع . وقد كان القاضى « محمد عبده » معلماً فى أحكامه كما روى عنه الذين شهدوا جلساته وسمعوا كلماته التى كان يلقيها على المتهمين وعلى الحاضرين فى الجلسة قبل النطق بحكم الإدانة ، وكانت له لازمة اشتهرت عنه بين زوار المحاكم قبل تلاوة الحكم ، وزعم بعضهم يومئذ أنها كانت خاصة بالأحكام المشدودة ، وترى فيما نظن أنها من لوازم التأمل ومراجعة الفكر عند كثير من المعممين أو المطربشين ، وهي زحزحة العمامة أو الطربوش إلى الأمام بحركة لدنية تنم على الاستغراق فى التفكير ، وكانت تلازم القاضى محمد عبده ثم ظلت ملازمة له بعد الانتقال من وظائف القضاء كما سمعت من أصحابه وعشرائه ، ولا نظنها كانت خاصة بالأحكام المشددة دون غيرها ، إلا أن يكون تشديد الحكم مستدعياً للأناة والتأمل قبل النطق به مراجعة للفكر وإبراء للذمة ولا نخالها – على أية حال – إلا علامة من علامات التفكير وإعادة النظر فيما يقيه من النصائح ويمليه من الأحكام .

وقد نظر فيما يتعلمه لوظيفته فعلم أنه بحاجة إلى التوسع فى مبادئ القانون الجنائى الذى تعمل به المحاكم ، لأن القانون المدنى يجرى على أحكام الشريعة فى مسائل المواريث وحقوق المال والمعاملة ، وعلم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه كفايته من الإحاطة الواجبة بتلك المبادئ فى أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين ، فشرع فى تعلم اللغة الفرنسية وثابر على تعلمها بعد انتقاله من وظائف القضاء ، ولم يسبق له درس هذه اللغة فى غير كتب الهجاء التى ألم بها وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ثم شغلته عنها شواغل الثورة العرابية ، فلما عاد إلى تعلمها لم يقنع بما وعاه منها للقراءة والفهم ولم تقعده صعوبة الكلام بلفظها الصحيح عن متابعة الدرس فى القاهرة وفى رحلاته إلى البلاد الأوربية فحرص على حضور دروس العطلة الصيفية بجامعة جنيف أثناء رحلته إلى سويسرة ، وكان يعنى على الخصوص باستماع محاضرات العلماء فى الآداب الأوربية وفلسفة التاريخ ، ولم يزل يقرأ ويستمع حتى جاوز فى اللغة مرتبة الفهم والمطالعة إلى مرتبة الإفهام والكتابة .

قال الدكتور عثمان أمين فى كتابه عن الأستاذ الإمام من سلسلة أعلام الإسلام : « لقد أجمع أصحاب الأستاذ الإمام وخاصته على أنه أتقن اللغة الفرنساوية تحدثاً وقراءة وفهماً على الرغم من قرب عهده بتعلمها . وهذا ما شهد به أخيراً الأستاذ لطفى السيد (باشا) حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يحلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنساوى « تين » ، فى كتابه المشهور عن الذهن ، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الإمام قد أملى فى مرض موته فصلا بالفرنساوية نشره المسيو دي جرفيل فى كتابه عن مصر الحديثة بعنوان « وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده » ، كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن الفرنساوية كتاب التربية للفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة . . » .

• • •

وتأبى ملكة التعليم إذا تمكنت من صاحبها أن تتوارى ولها مندوحة للبروز فى حركة من حركات ذهنه أو شواغل حياته . فقد كان القاضى التلميذ يتلقى دروسه الأولى فى اللغة الفرنسية وكأنه يعلم أستاذه كيف يعلمه تلك الدروس وكيف يختار له أوجزها وأنفعها لمثله ، وهداه إلهام البديهة إلى منهج فى تعليم اللغات للكبار على الخصوص لم يكن معلوماً فى ذلك الحين ولم ينتشر قط فى البلاد الغربية أو الشرقية قبل وفاته ، ونعنى به منهج التعليم الذى أطلقوا عليه بعد ذلك اسم المنهج الكلى أو منهج الابتداء بالكلام المجمل والانتهاء الى التفاصيل المتفرعة عليه ، ويؤثر المعلمون على هذا المنهج أن يبدأ قارئ اللغة بقراءة الجملة ثم يتعلم تفسيرها بفهم مفرداتها على حدة ، ثم يلم بقواعدها الضرورية ، أو بأجروميتها ونحوها وصرفها وبلاغتها ، من توضيح موقع الكلمة بالنسبة إلى الكلمات الأخرى وإلى التراكيب التى تحتويها .

جاءه المعلم وفى يده كتاب من كتب الأجرومية الأولية ، فقال للمعلم : لا وقت عندى للابتداء من البداية فلنبدأ من حيث ننتهى ، وتناول قصة من قصص إسكندر دوماس ليقرأ عبارتها ويستمع تصحيح المعلم لنطقه وتفسيره

لمعانيها . . . قال : أما ما عدا ذلك فهو عملى ، والنحو يأتى فى أثناء العمل . وعلى هذا المنهج أتم الكتاب وأتبعه بكتابين آخرين ، وتعود بعد الدرس أن يطالع ما قرأه على المعلم منفرداً بصوت مرتفع ، ليسمع نطقه ويتذكر مواضع خطئه وتصحيح معلمه ، واختبر فى نفسه نجاح هذا المنهج فأوصى به من كان يعرفهم من طلاب اللغة الفرنسية ، ومنه استفاد الشاعر حافظ إبراهيم فوائد حسنة فى هذا الباب ، كما سمعت منه وهو يحدثنا عن محاولته الأولى لترجمة كتاب « البؤساء » .

• • •

ومثل هذا التمكن فى ملكة التعليم خليق أن يزيدنا بصراً بطبيعة هذه الملكة حيثما برزت لنا فى أعمال ذوى الاستعداد الفطرى لتعليم الناس أفراداً كانوا أو جماعات ، فضلا عن نفعها لنا فى التبصير بترجمة الأستاذ الإمام ، أو بما سميناه محور حياته وأردنا به ذلك المرجع النفسانى الذى نرجع إليه لنهتدى به إلى بواعث نفسه ومقاصد سعيه واجتهاده . ويبدو من بروز هذه الملكة وإلحاحها على خواطر المستعدين لها وبوادر نفوسهم وأذهانهم أنها عبقرية خاصة من تلك العبقريات الروحية التى تخلق فى الإنسان ومعها حافز لا يستريح من حوافز الغيرة على إنجاز عملها والحماسة لتحقيق مقاصدها ، وشأنها فى ذلك شأن كل عبقرية موهوبة تطبع على أداء رسالتها فى عالم العقيدة والايمان أو فى عالم الفن والجمال . فلا يهدأ صاحب هذه العبقرية أو يبلغ رسالته ولو صدت الأسماع عنه أو حالت الحوائل القاسرة بينه وبين من يستمع إليه . ومن كان مطبوعاً على عبقرية التعليم فليس قصاراه من الإفضاء بعلمه أن ينقل طائفة من المعلومات المحفوظة من رأسه إلى رءوس غيره : تلك رسالة لا نفخة فيها من الروح ولا مدد لها من السليقة . وهى أشبه بنقل الصفحات من نسخة إلى نسخة تمر بالسمع أو تمر بالفكر على الأكثر — ولا تسرى منه إلى سرائر النفس ولا تتخطاه إلى بواعث الحياة . وهو عمل كعمل المأجور المسخر لإرادة غيره ولا إرادة له ولا غيرة عنده ولا إخلاص فى تفهم ما يلقيه فى آذان مستمعيه ، وسواء عنده عملوا بما يعلمون أو لم يكن لهم عمل

قط بعد فراغه من إلقاء تلك المعلومات وتقاضيه الأجر الذى سخروه له ، كأنه مجبر عليه .

وعلى غير هذا من النقيض إلى النقيض يعمل صاحب العبقرية المطبوعة على التعليم . فإنه يعلم ليدفع المتعلمين إلى عمل ويستثيرهم إلى غاية . ويبث فى نفوسهم من الحماسة مثل ما انطوى عليه فى أعماق ضميره من الحماسة لعمله وغايته ولا مطمع له فى أجر يناله منهم أو من سواهم بل هو يعطى الأجر ويجزله لو استطاع ، وليس بالسائغ فى طبعه أن يتحمل العلل لإعفاء نفسه من عناء عمله إذا توانى المتعلمون على يديه ولم يستجيبوا لدعوته بمثل حميته وإخلاصه ، لأنه يحسب استجابتهم غاية له تعنيه قبل أن تعنيهم ، وإن كان فيها غاية النفع لأولئك المتعلمين عليه .

وأكثر ما يكون هذا الباعث الوجدانى فى نفوس المعلمين المطبوعين خصلة من خصال النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه من غوث الضعيف والرثاء للذليل وكراهية الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء وصرعى الظلم والخديعة . ولا يثير هذه النخوة شىء كما تثيرها عزة الظالم الخادع واستكانة الجاهل الغافل ، ولكنها نخوة ترتفع مع ارتفاع الهمم وتقوى مع قوة الطباع ، فلا تقنع بمحاربة الجهل فى واحد وآحاد وهى قادرة على محاربته فى جماعات وأقوام ، ولا تقصر الغوث على الدرس وهى قادرة على غوث للضعيف المفتقر إليه كيفما كان .

وأعمق ما تكون النخوة إذا كانت سجية موروثة تنتقل من الأجداد إلى الآباء والأبناء ، كما رأيناها فى أسرة أستاذنا الإمام منذ عرفت لهم أعمال ورويت عنهم أخبار .

فهم فى قريتهم الصغيرة كرام يجودون بما عندهم ، ويأبون الضيم لأنفسهم ولمن يلوذ بهم من جيرتهم ، وقد كان أكبر ذنوبهم عند الأقوياء أنهم يأوون إليهم طرداءهم المظلومين ويشدون أزرهم بمعونة رجالهم وبقوة السلاح إذا وجدوا السلاح الذى ينفعهم فى مقاومتهم ، ومن لم يستطع منهم أن يقاوم القوة بالقوة لم

يصبر على الضيم فى بلده ، وآثر أن ينجو منه بكرامته وإن ضيع بعده كل تراثه من آبائه ، غير هذا التراث المضنون به على الضياع .

قيل إن العبقرى يستنزف من أسرته صفوة اللباب من خلائقها الحيوية أو ملكاتها الذهنية ، وقيل إنه من أجل ذلك قلما ينجب الذرية من العباقرة أمثاله ، وان ذريته لا تزال عرضة لنقص العمر أو نقص التكوين . وكل ما قيل من هذا القبيل فهو تشبيه على المجاز لا يخلو من المبالغة التى تعرض لكل تشبيه ، ولكنه كذلك لا يخلو من الصحة التى تؤيدها مشاهدات الواقع . ومن هذه المشاهدات أن طابع الأسرة المأثور عنها كثيراً ما يتجلى فى عبقريتها مكبراً مهيمناً منبعثاً على جادته فى غير هوادة ، وأنه فى انبعاثه عصى على الكبح والتوقف دون قبلته التى ينساق إليها ، وكأنما هو غريزة من الغرائز النوعية يخلق للفرد إرادة نوع كامل ، يوشك ألا يملك معه إرادته الفردية فى سبيل بقاء النوع وارتقائه .

وأحرى الخصال أن يورث فى أسرة صاحب الترجمة هو تلك النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه – كما أسلفنا – من غوث الضعيف والرثاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء : ورثها نخوة إنسان وأصبحت فيه نخوة معلم مطبوع على التعليم ، لانه لم يملك سلاحاً للنخوة أقوى من تعليم المغلوبين المستضعفين ، ولكنه لم يكن بالبداهة معطل النخوة فيما يملكه من أسبابها غير هذا السلاح الذى كان أنفذ سلاح فى يديه ، لأن أعماله فى إغاثة الملهوفين وإنصاف المظلومين كادت أن تكون وحدها وظيفة حياة عامرة بالمآثر حافلة بالحسنات ، وسيأتى من بيان هذه المآثر والحسنات ما يتسع له موضعه من هذا الكتاب . ولكننا نوجزه إذا قلنا إنه لم تسمع فى حياته دعوة إلى الغوث والإحسان تنفيساً عن المكروبين فى فواجع هذا البلد أو إعانة للمعوزين من ضعفائه إلا كان هو صاحب الدعوة أو كان فى مقدمة الملبين لها والعاملين على نجاحها ودوام أثرها .

وكاتب هذه السطور قد سمع بمحمد عبده نصير المظلوم قبل أن يسمع بمحمد عبده المصلح العظيم .

سمعت فى بلدتى بأقصى الصعيد ، وفى باكورة صباى ، بمأثرة من مآثر هذا القلب الكبير ، لم تكن إلا مثلاً واحداً من مئات المآثر التى سمعنا بها بعد ذلك حيث نزلنا من أقالم هذا البلد ، ولا يزال الكثير منه معروفاً مروياً فى أقليمه ، وان لم يصل نبأه إلى غير أهله .

شغلت بلدتى – اسوان – قضية كبيرة تقلبت بين محاكم الصعيد والعاصمة أكثر من عشر سنوات ، وأوشك الخصم القوى فيها أن يظفر بالحكم الأخير وان يجرد خصمه الضعيف من حقه ، مستعزاً عليه بقوة المال والجاه وسعة الحول والحيلة ، وقد شاعت الإشاعات التى تحققت بعد ذلك عن الرشوة المبذولة ، بألوف الجنيهات ، ثمنا لذلك الحكم الأخير الذى ينقضى به الأمر ولا يقبل المراجعة والإستئناف .

وقبل صدور الحكم بأيام يلتقى الخصم الضعيف بنائب بلدته فى مجلس الشورى ، فيستمع منه لإشاعة الرشوة ويرجحها له بما علمه من توكيد أنصار الخصم القوى ومن قسم مغلظ اقسمه أمامه أقربهم اليه : ليصدرن الحكم كما أملاه صاحبهم على – فلان باشا – وليسمعن نبأه بعد أيام !

وكان نائب البلدة فى مجلس الشورى يعرف الاستاذ الامام من زمالته له فى المجلس ، فاصطحب المسكين إلى عين شمس ، وترك صاحب القضية يبسطها للأستاذ الامام بسذاجته التى تنم على الصدق الأليم والحسرة البالغة ، فلم يكد هذا الرجل المثقل بشواغل وطنه الكبار يستمع إلى كلمة المظلمة والرشوة حتى اعتذر لضيوفه جميعاً وأفرغ من وقته زهاء ساعتين للاصغاء إلى قصة هذه القضية منذ نشأت قبل عشرة أعوام ، وترك الرجل يقول ويعيد كما يشاء على ديدن المظلوم الملهوف فى سذاجته وابتهاله واضطراب نفسه بين خوفه وأمله ، فلم يتعجله ولم يقتضب عليه لحاجة شرحه وتكراره ، ولم يدعه تلك الليلة الا على وعد بأن يلقاه عند باب وزارة العدل ، فى موعد افتتاح الدواوين .

وفى اليوم التالى لم يذهب المفتى إلى دار الافتاء ، بل توجه تواً إلى دار وزارة العدل وكلف الرئيس المسئول ان يبعث فى طلب « ملف القضية » ، من

المحكمة ، فقضى اليوم يراجع أوراق الملف مراجعة القاضى الخبير بأصالة الأسانيد وأساليب المراوغة وعلامات الغرض والتحيل فى التأجيل والتعجيل . وأيقن بصدق الدعوى وخطر الحكم المنتظر فيها ، فصنع ما لا ترتقى الشبهة إلى ذمته وعلمه ، وصدر الحكم الأخير بالحق الذى يعرفه أهل البلدة جميعاً ، فظل أبناؤها يتحدثون بهذه القضية كما يتحدث المؤمنون بكرامة القديسين ، وكان يوم وفاته رحمة الله مأتماً فى البلدة تبادل فيه الناس العزاء فى المساجد ، ونودى بنعيه على المآذن ، وتقرب فيه المحسنون بالذبائح والصدقات على جوانب الطرقات .

كتب قاسم أمين عن مروءة الأستاذ الامام بأسلوب القاضى الذى تعود أن يزن كلامه كما يزن أحكامه ، فقال فى رثائه يوم الاربعين :

« بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغاطيس الحديد ، فيندفع اليه ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين ، والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة كانت ، وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة لأنهم فى وسط المدينة الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن انفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الامور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه : يسعى مرة ومرتين وثلاثاً إلى أن يقضى حاجتهم وهم جميعهم فى نظره مستحقون ، سواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا . بل كان يسعى إلى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه مدة حياته . ولا يصل الانسان إلى هذا الخلق العظيم إلا إذا ربى نفسه على أن تتغلب على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكماً عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الاستاذ يرى ان الشر لا فائدة له مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى اصلاح فاعله . . » .

وفى هذا التأبين يقول قاسم : « من يرى أن الحياة لهو وزين له أن يعيش

ليأكل ويشرب ويسافر وينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين . أولئك لا يعلمون أن إمام مصر كان محركاً بقوة فوق الاعتيادية وأن عقله كان ملآناً بالفكر الى حد أنه كان لا يسعه كله ، الى حد أنه كان يفيض منه بالرغم . وأن قلبه كان ملتهباً بحب وطنه فلا يستريح إلا وهو مشغول به وبسعادته وبمستقبله وأنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالى بالألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذاً كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هذا القبيل ثم رأيته فى الغد منغمساً فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه كان بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم عنده أمل لا يزعزعه شىء فى إصلاح أمته . . » .

يقول قاسم هذا وربما كان هو – رحمه الله – أحد أصدقائه المشفقين الذين كانوا يكفكفونه أحياناً عن ارهاق نفسه بالجهد والمجاهدة كلما شعروا بحاجته إلى الراحة والدعة واوجسوا خيفة على صحته ، بل على حياته ، من عنت خصومه ومصاعب الاصلاح فى بيئته ، مع فساد الزمن وغلبة الجهل والهوى على نفوس الغافلين المتهاونين ، فضلاً عن المغرضين المتعمدين للاحباط والايذاء ، وهم فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة كثيرون .

وسمعت من زعيمين عاصراه وعاشراه كلاماً كالذى قاله قاسم فى تأبينه وذكر فيه وعده بالكف عن الجهد فيما يحاول من السعى العقيم والكفاح المقعد المقيم ثم عودته بعد قليل الى مثل ماكان فيه ، بل أشد مما كان فيه . . . وأحد الزعمين كانت له عليه جرأة الصديق الند وهو الزعيم سعد زغلول ، والآخر كان منه بمثابة الأخ الصغير فى بعض أعمال الاصلاح وأعمال الخير والإحسان . وكان أولهما يصرفه صرفاً عن بعض محاولاته التى كانت ديدنه الشاغل له فى أخريات عمله بوظيفة الافتاء ، فقال له من حوار مطول لا نثبته هنا بتفصيلاته : « أخشى أن يفسدك هؤلاء القوم قبل أن تصلحهم » . . . وكان الآخر – محمد محمود رحمه الله – يعيد عليه قوله مشيراً الى الخديو عباس الثانى : « ان هذا القولى » يريد أن يقتلك ، فلا تمكنه من بغيته ، ويريد بالقولى نسبة الخديو عباس الى قولة موطن جده محمد على الكبير .

وموضع النظر فى كلام قاسم وصاحبيه ان الاصلاح لم يكن فى حياة هذا المصلح الغيور عملا من أعمال الارادة يدبره لنفسه كتدبير المرء لما ينفعه ويريحه أو يعفيه من التعب والمشقة . ولكنه كان باعثاً نفسانياً مستحكماً فى ذلك القلب الكبير يغلبه على إرادته ويخلق له ارادة نوع كامل فى بنية إنسان واحد . وإن يكن من أعظم بنى الانسان . . . وذلك ما عناه قاسم بشغف العاشق بما يؤلمه ويضنيه وعنيناه بالعبقرية المطبوعة التى تلخصها كلمة « النخوة » وتدل سيرته وسيرة أهله على أنها خليقة موروثة فيه ، وأنها أقوى بواعثه الى رسالة حياته . وهى رسالة التعليم .

ولنا أن نقول إن النخوة الإنسانية فى نطاقها الواسع هى محور هذه الحياة فى نواحيها الكثيرة ، وإن رسالة التعليم عنده إنما كانت فى صميمها رسالة خلقية قبل أن تتجه الى وجهتها الفكرية ، فلم يكن يعنيه أن يعلم لينقل الى الناس « معلومات » يجهلونها وكفى ، ولكنه كان يعلم ليحفز الناس الى عمل يتوانون عنه ، ويحملهم على خلق يحبب إليهم ذلك العمل ويسعدهم عليه .

ولعلنا لم نخطىء إذ بدأنا السير كلها بهذا التمهيد عن هذه العبقرية من ناحيتها الخلقية والفكرية ، فإنها بمثابة الأساس الذى تقوم عليه حوادث الترجمة منذ بدأ الاستاذ الإمام حياته العاملة فى نحو العشرين الى أن فارق الحياة فى نحو السادسة والخمسين ، فأيما حادث تردد فيه رأى المؤرخ وحكم الناقد فإنما تقوم أصالته فى هذه الحياة بمقدار ثبوته على ذلك الاساس .

مع جمال الدين

كان لقاء السيد جمال الدين الأفغانى أهم حادث فى تربية الفتى الناشئ محمد عبده ، لأنه رده إلى سجيته وأقامه على جادة العلم والعمل التى استقام عليها بعد ذلك طول حياته ، واستقل بها حسب استعداده وفطرته حتى استقل بها آخر الأمر عن طريق أستاذه ، بعد أن فرقتهما الحوادث اضطراراً ووجب أن يعمل كل منهما على جادته ومنهاجه .

كان الفتى الناشئ (محمد عبده) قبل لقاء جمال الدين أشبه شيء بالطائر المغمى عليه قبل امتحان المدربين له فى ضوء النهار للتثبت من سلوك مطاره الى غايته القصوى .

ويقال إن هذا الطائر لا يزال بعد خروجه من الظلام يتلمس طريقه ارتفاعاً وانحداراً ويستقبل الوجهة ثم ينحرف عنها حتى ينطلق من حيرته على ثقة ، فيعتدل إلى الغاية التى ينويها ، فلا حيرة بعد ذلك ولا إحجام عن تلك الغاية الى اقصاها .

وكذلك كان محمد عبده بين الحيرة والإحجام قبل التقائه بجمال الدين :

صدمته الحياة العامة كما يصطدم بها كل شاب يخرج من معيشته فى الأسرة على المودة والعطف إلى معيشة الكفاح بين الناس على سنتها من الرياء والأثرة وتنازع البقاء ، وكان يشكو هذا الحال إلى شيخه القروي من أخوال أبيه كما قال فى ترجمته : « فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتى فى معاشرتهم وثقلهم على نفسى إذا لقيتهم ، وبعدهم على الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم ، فقال لي : هذا من أقوى الدواعي إلى ماحثثتك عليه ، فلو كانوا جميعاً هداة مهديين لما كانوا فى حاجة إليك . ثم أخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه إلي الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم ، وأنطلق فى القول على وجل فى الأمر ، وما زال بى حتى وجد عندي

شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم ، وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاء شديداً ومات فى السنة التالية » .

وفى هذه السنة – سنة ١٨٧١ – وفد السيد جمال الدين إلى القاهرة قادماً من الآستانة ، فوجد الفتى الناشئ حيث تركه شيخه القروي بين طريق العزلة وطريق العمل مع الناس ، ولكنه حين مضى فى هذا الطريق يخطو خطواته الأولى فقد شيخه الصوفى ولم يجد لعقله هادياً يعمل أمامه ويتجه ببصره المتطلع إلى غاية مداه ، لأنه كان يدرس علوم العقل على أساتذة يحسنون شرح النظريات ويبسطون القول فى الشكوك والموانع ثم لا ينتهون منها إلى قبلة يستقيم عليها السالك على قدر جهده فى طريقه المرسوم .

وكان جمال الدين قد مر بمثل هذا الدور فى مثل سنه : كان قد زهد فى صحبة الناس فاعتزلهم وخرج من طريق العزلة الى طريق العمل ، وكان يفهم أن الفناء فى الله اعتزال للعالم فعاد يفهم أن الفناء فى الله إنما هو فناء فى خلقه ، أو كما كان يقول لتلاميذه فى رواية الشيخ عبد القادر المغربى : « أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله . . . وإنما الفناء بكون فى خلق الله : تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » .

وقد كتب عنه تلميذه المسيحي أديب إسحاق وهو فى هذا الدور بين العزلة والعمل فقال : « إنه تبحر فى المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء فداخله من ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة حتى صار له فى القوم كثير من الأتباع والمريدين ، كل ذلك وهو دون العشرين » .

ولم يكن لجمال الدين أستاذ يجتنبه من حياة الخلوة والعزلة إلى حياة العمل والجهاد ، ولكن الحوادث كانت لها صيحة فى مسمعه أقوى من صيحة الإمام المرشد ، فاقتحم معركة الحياة لينصر فريقاً على فريق من أولياء الأمر فى وطنه ، وانتصر جمال الدين للأمير محمد أعظم خان : « فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جرأة واستخفافاً بالموت وأقام فى ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا

يستقر بمكان دارت الدائرة على محمد أعظم خان فانصرف الأولياء عنه إلا جمال الدين . . » .

حضر التلميذ على أستاذه دروساً نافعة فى كتب المنطق والحكمة والتصوف وأصول الدين ، ولكن الدروس الروحية التى كانت تسري من أحاديث هذا المصلح العظيم كانت أعظم وقعاً وأعمق أثراً من دروس الأوراق والأسفار ، ولم تكن شروحه للكتب التى كان يقرؤها على تلاميذه معانى « فكرية » تستخرج من ألفاظها « القاموسية » على عادة الشراح الذين يقفون بالعبارات عند ألفاظها ومعانيها ، ولكنه – كما سمعنا من مريديه الذين عرفناهم – كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسري إلى النفس فتحركها إلى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

وخير الأساتذة ، على ما نعلم ، هو الأستاذ الذي ينبه فى التلميذ ملكات ذهنه وضميره ويستجيش فى قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة على حسب فطرته واستعداده ، فليس بخير الأساتذة من يجعل تلاميذه نسخاً منه تحكيه ولا تزيد من عندها شيئاً غير الاقتداء به والعمل على غراره ، فهذه هي تربية التقليد والمحاكاة تصلح للذين خلقوا للاتباع ولا تصلح للذين خلقوا على نصيب من قدرة الاستقلال والاجتهاد .

وهكذا كانت تربية جمال الدين لمحمد عبده وهو يخطو خطواته الأولى على طريق العمل والإصلاح : إنه يخلق فيه ملكة كانت ممدودة فيه ، ولكنه رده إلى طبيعته العملية وعزز فيه تلك الثقة التى لا غنى عنها لمن يتولى عظائم الأمور وينهض إلى الغاية العصية والمطلب البعيد .

ولم تكن الطبيعة العملية طارئاً جديداً على سليقة الفتى الذي شب عن الطوق وهو يركب الخيل ويحمل السلاح ويتمرس برياضة الفروسية .

ولم تكن الثقة بالنفس طارئاً جديداً على سليقة الطالب الناشئ الذي استقل برأيه فى الحكم على تعليم زمنه بالعقم والجمود ، ومن حوله ألوف المتعلمين

والعلماء يتهمون أنفسهم ولا تهجس فى قلوبهم هاجسة من الشك فى صلاح ذلك التعليم ووجوب الصبر على مصاعبه وألغازه .

وقد لمح الأستاذ البصير ملامح تلك الثقة المكينة فى نفس ذلك الطالب الصغير ، وكان يعجب لتلك الثقة المطبوعة التى لا تكلف فيها فيسأله مغتبطاً راضياً : قل لي بالله . أى أبناء الملوك أنت ؟

ولكن تربية جمال الدين وزنت تلك الثقة بمقدار رسالتها الكبرى التى تهيأت لها بنزعاتها وآمالها واقتدرت عليها بطموحها واستعدادها ، لم تهيبها ولم تنكص عنها حين علمت مداها ، وعلمت أنه المدى الذي لا سبيل إلى الوفاء فيه قبل بلوغه ، وهو نهضة العالم الإسلامى بين مشارق الأرض ومغاربها ، نهضة العالم الاسلامى فى وجه الدول العظمى ، بل فى وجه ملوكه وأمرائه المتألبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للإصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطة جمال الدين للإصلاح أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الإسلامي كله فى معترك السياسة الدولية وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

وكانت هذه الخطة تتمة معقولة للفاتحة التى افتتح بها جمال الدين حياته وهو فى نحو العشرين ، لأنه افتتحها بالجهاد فى سبيل إمارة يقيمها للأمير الذي آمن بصلاحه وحسن الرجاء فى ولايته ، فإذا خطر له أنه قادر على أعباء هذه الخطة حيث كان – فى وطنه أو غير وطنه – فهو خاطر ليس بالغريب على الرجل الذي بدأ بتلك الفاتحة فى مطلع شبابه .

ولكن الفتى الفلاح لم يستهول الغاية التى طمح إليها ربيب بيت الوزارة ، كيفما كانت الخطة التى تنتهي إليها .

ونرجع هنا الى سليقة التصوف عند الرجلين لنعرف منها سر هذا الإقدام فى أمور تلك الممالك والعروش ، فإن التصوف فى لبابه كفء – بل أكبر من كفء – لمواجهة سلطان المالكين وأرباب التيجان المتحكمين .

هما طرفان من ملك ونسـك ... ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فإن لم تملك الدنيـا جميعـاً ... كما تهواه فاتركهـا جميعـا

وألزم خلائق الصوفى المطبوع أنه يستخف بعظمة الدنيا وأن تهون عليه رهبتها ورغبتها فلا يهابها ولا يتهالك عليها . وأزهد من الصوفى الذى لا يملك الدنيا ذلك الصوفى الذى لا تملكه الدنيا ولا يدخله الوجل ممن يملكونها .

وقد ثبت هذا الخلق من هذين الرجلين ثبات السليقة المتأصلة فيهما فلم يكن من عمل عادة متبوعة ولا من عمل تربية مكسوبة ، وكان جمال الدين يعبث بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبدالحميد وينبهه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفة ، فيجيبه ساخراً : « مه يا هذا .. إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليوناً من بنى آدم ، أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات الكهرمان » .

وكان الخديو عباس الثانى يشكو من مسلك محمد عبده فى حضرته ويقول : إنه يدخل علىّ كأنه فرعون ! .. ويستمع محمد عبده إلى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول : وأينا فرعون؟

وقد نزل جمال الدين بمصر وهى على حال كتلك الحال التى أخرجته من عزلته لينصر أحد الأميرين على أخيه : إذ كان الغيورون على البلد يخشون العواقب عليه إذا طال فيه حكم اسماعيل ويفكرون فى خلعه بإغراء الدول أو إغراء السلطان وإسناد العرش إلى خليفته محمد توفيق ، ولم يأبث جمال الدين أن تقدم الدعاة إلى هذا الانقلاب فجمع الأنصار من مريديه والمعجبين به لمخاطبة وكلاء الدول باسم الأمة ، وصارحهم بذلك فاتخذوا من موافقته على خلع اسماعيل حجة عند حكوماتهم على موافقة الحزب المستنير فى مصر لهذه السياسة التى كانت تتردد فيها بين الوعد والتنفيذ .

أما محمد عبده فقد كان عمله فى هذه الحركة أوفق لسنه وأقرب الى مزاجه الرياضى فى شبابه : كان على عزيمة صادقة أن يزيل اسماعيل بيده ، إن لم ينزل عن العرش باختياره أو يصدر الأمر من السلطان بعزله .

وكانت خديعة الخديو توفيق – مع ضعفه عن انجاز وعوده – أول خيبة منى بها جمال الدين فى خطته مع الأمراء والملوك . فإنه ظل يتودد إلى جمال الدين وأنصاره بعد ارتقائه العرش ويؤكد له كلما لقيه أنه يعتمد عليه وأنه « كل أمله فى مصر » لتحقيق برامج الاصلاح . ولكنه ضعف عن مقاومة الدول . وبلغ من مطاوعته لهم أنه كان يطلعهم على مطالب زعماء البلد منهم قبل النظر فيها . . .

ومن كلام أخصائه الانجليز – وبينهم المؤرخ المشهور ألفريد بتلر – أنه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضى الساعات يتكلم معهم باللغة الانجليزية التى لا يعرفها أولئك الموظفون ويذكر الأسماء بالحروف الهجائية فى سياق أحاديثه ليخفى موضوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب تلك الاسماء ، ويفضى فى هذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخاصة والأوراق المحفوظة تتعلق بالأسرة وعظماء البلاد .

وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقول أبو الطيب ، فلا جرم يساوره الشك من جانب جمال الدين ويتوقع منه أن يأتمر به كما ائتمر بأبيه ، ويغتنم الفرصة من حذر وكلاء الدول من دعوة جمال الدين إلى إعلان الحقوق الوطنية ورفع الرقابة الأجنبية ، فيتفق على إقصائه والإعراض عن حزبه ، ويمالئه على ذلك رجال الحاشية الخديوية على سنة الحواشى فى كل بلاط يكره النصحاء ويحب الاستئثار بسمع الأمير وهواه ، وينتهى الأمر بنفيه والتشهير به تسويغاً لتلك الفعلة – فى منشور بذئ لم يصب جمال الدين بمسبة ، ولكنه ارتد على توفيق وحاشيته بالمسبة التى لا تمحى ، وغير عليهم قلوب المخلصين من طلاب الاصلاح فداخلهم الشك الشديد فى إمكان الإصلاح على عهده بغير الثورة عليه .

وهذا بعض ما جاء فى ذلك المنشور البذئ : « إنه لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليها تمام العمران فى جميع الممالك والبلدان ، ومن أنجح الأبواب وأصلح الأسباب التى بها نجاح الممالك ، وسلوكها فى أقوم المسالك ، قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس ، بمظهر الحرية بدون أساس » .

ويتلو هذا كلام عن جماعة جمال الدين السرية يقولون فيه انها جماعة « رئيسها شخص يدعى جمال الدين الأفغانى مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن يعامل مرتكبه بالتشديد والإنكار ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد فى قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الاقطار الحجازية » .

ولم يذع خبر هذا المنشور إلا بعد سفر جمال الدين عن غير علم من أكثر أصحابه ومريديه ، وإنما علموا به بعد إعلانه فى الوقائع المصرية (عدد الحادى والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٩) .

وكان السيد جمال الدين قد مكث بمصر فى هذه الزيارة الثانية نحو ثمانى سنوات ، غرس فيها بذور نهضة مثمرة لم يشهد من ثمراتها الجنية ثمرة أنضج وأبقى من عزيمة تلميذه وخليفته « محمد عبده » ففارق هذه الديار وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته عليها : « حسبكم محمد عبده : حسبكم محمد عبده من وصى أمين » وطفق يذكره فى رحلاته بعد ذلك فيكتفى من الدلالة عليه بوصف الأخ الصديق ، فيعلم المستمعون إليه من يعنيه .

ولم يتصل السيد بأحد من أصدقائه وأصحابه بمصر الى ما بعد انتهاء الثورة العرابية ، ومنهم خادمه الامين العارف أبو تراب الذى كان يلازم السيد فى حله وترحاله ملازمة ظله ، لأن السيد قضى تلك الفترة فى رقبة الحكومة الهندية تارة ، وفى التنقل على غير قرار تارة أخرى . فلما رفعت عنه الرقابة شخص الى أوربة فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكتب من بورت سعيد الى الشيخ محمد عبده خطاباً يشكر له فيه رعايته لخادمه ويحمده « على البر والمعروف » ويطلب إليه إبلاغ سلامه وشكره لتلميذيه ابراهيم اللقانى وسعد زغلول ويذكر له عنوانه بالعاصمة الانجليزية فى إدارة جريدة الشرق والغرب ، أو عد الشاعر المستشرق مستر « بلنت » صديق العرابيين .

وكان الشيخ محمد عبده يومئذ قد نفى الى بيروت فبادر بالجواب على السيد وكتب إليه كتاباً نستغربه . كما استغربه تلميذ الإمام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار . لأنه فجع فيه بالتعظيم والتقديس فجعاً لم نعهده فى أسلوبه منذ صباه الى ختام حياته . وغلا فى اتضاعه والارتفاع بأستاذه غلواً يخالف المعهود من عرفانه لأعظم الناس قدراً عليه . وفيه كما قال السيد رشيد « من الاغراق والغلو فى السيد ما يستغرب صدوره عنه وإن كان من قبيل الشعريات . ويصف نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التى لم تعهد منه البتة » .

إلا أن الأسلوب هنا هو الأسلوب الذى لم يتكرر فى خطاب أو مقال للأستاذ الإمام ، لأنه أسلوب الساعة التى لم تتكرر فى حياته وليست هى مما يتكرر فى حياة أحد ، إذ كان كل ما يستوحيه فى تلك الساعة شعوراً مشبوباً يتوقد بحماسة الشباب وحماسة الثقة التى بقيت له فى منفاه بعد ضياع الثقة بأقرب الأقربين وأولى الأخصاء بالصدق والوفاء ، ويذكيها من وجدانه الحى ذلك الشوق المتجدد إلى أستاذه بعد انقطاع العهد وجلاء الغمة فى أعقاب الثورة عن ذلك المصير الذى له ما بعده وقد يكون ما بعده جهاداً آخر يرجى له من الفلاح ما لم يكتب للأستاذ ولا لتلميذه فى جهادهما الأول . فإن تكن فى الاسلوب غرابة تلحظ فى سائر الأحوال فقد كان الأغرب أن يجرى به القلم فى تلك الحال مجرى المتكرر المألوف .

ومن عبارات الخطاب التى لم تتكرر ولم تؤلف فى سواه قوله عن نفسه وأستاذه : « .. كنت أظن أن قدرتى غير محدودة ، ومكنتى لا مبتوتة ولا مقدورة ، فإذا أنا من الأيام كل يوم فى شأن جديد : تناولت القلم لأقدم إليك من روحى ما أنت به أعلم فلم أجد من نفسى سوى الأفكل[1] والقلب الأشل ، واليد المرتعشة والفرائص المرتعدة والفكر الذاهب والعقل الغائب ، كأنك بامولاى منحتنى نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل » .

(١) الأفكل : الرعدة – يقال أخذه أفكل ، إذا ارتعد من خوف .

وفى هذا الخطاب تحدث التلميذ إلى أستاذه عن مصير الجماعة التى تركها بمصر واستخلفه عليها فى غيابه ، وأفاض فى بيان ما يعنيه من أمر أصحابه ومريديه ولم يتحدث عن أمر نفسه لأنه اكتفى فيه بما كتبه زميله إبراهيم اللقانى إلى السيد كما علم منه . قال « إنى يامولاى لا أحدثك عن شئ مما أصابنا بعد فراقك . فقد تكفل ببيانه أخى العزيز إبراهيم أفندى اللقانى سوى ما تركه فى كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم ، وأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، وألجأوها إلى التصديق بما لا يقال ، حتى أنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة ركن فيها للعمل بالشدة والأخذ ببادرة الحدة ، ولكن لم يلبث أن وصلنا إليه وجلوت الأمر عليك ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس المبطلون .. وهكذا ضممت إلى كل من كان ينتسب إليك صادقا فى الإنتساب أو كاذباً ، حتى أنى لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأدنياء .. وأمثالهم من اللئام ، تحسيناً للظن وإيثاراً لجانب العفو ، فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة لكنهم لم يرعوا وداً ولم يحفظوا عهداً ، ولا حاجة الآن إلى إيضاح ما يصدر عنهم خيانة ولؤماً ، وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلاً ليس بالقليل ، يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك ، وكنا وإخواننا كما شرح لك إبراهيم أفندى اللقانى .. ولسيرنا فى تلك الحوادث نبأ طويل إذا أردت بامولاى أن أقدم إليك به تار يخاً ر بما يكون مفيداً فأنا رهين الإشارة ، ونحن الآن فى مدينة بيروت نقضى بها مدة ثلاث سنوات ، لا لذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه .. فها نحن سالكون فى سنتك وعلى سنتك ولا نزال إلى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم هنا إلى حيث أقمنا ، لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس لأسعد بالإقامة فى خدمتك .. ولا أتكدر مما أشرت إليه فى كتابك إلى أنى تراب حيث طعنت فى ثقتك بالناس أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن إلى وإلى إبراهيم أفندى .. أما اختلال ثقتك بالدواهى والبلايا

فقد صادف محلاً لمن نقضوا عهدك وحالفوا عدوك ، فاستبقوه للوجود وأنت موجود .. »

ولا نزيد فى الاقتباس من هذا الخطاب على ما أوردناه من هذه الفقرات الضرورية لجلاء الموقف كله وجلاء الموقف – خاصة بين هذين الرجلين فى أعقاب الثورة العرابية ، فجملة ما يقال فى هذا الموقف إنه موقف فتنة عمياء تلتبس خفاياها على المقيم بين ظهرانيها فضلاً عن المغترب البعيد عن ظواهرها وبواطنها ، محجوباً بحجاب الرقابة الكثيف عن المباح والمحظور من أخبارها ، ولولا ذلك لما التبست الحقائق على قلب ذلك المصلح العظيم ، فأوشك أن ييأس من الناس كافة على غير المعود من شيمته وشيم الدعاة المصلحين أجمعين .

ونحن لا نعرف الآن بياناً وافياً عن أسماء أولئك الأصحاب والأنصار الذين تركهم جمال الدين بعده فى الديار المصرية ، فإنه كان – أثناء مقامه بها – قد برتع من طائفة منهم دخلوا معه فى المحفل الماسونى الذي انضوى إليه السيد على أمل فى مناصرة الشرقيين والأوربيين على دعوته العامة ، تصديقاً لما شاع عن مزاعم الماسون أنهم ينتصرون للحرية الإنسانية ، ولا ينقادون لدولهم وحكوماتهم فى سياستها الشرقية ، فلما تبين بطلان هذه المزاعم نفض يديه من المحافل عامة وممن بقى على الولاء لها فى ذلك المحفل وفى غيره ، ولم يزل يحتفظ بأسماء زملائه الباقين على ولائه ، وهم الذين سماهم ولاة الأمر بجماعته السرية فى منشور نفيه ، ونحسبه لم يكتم أسماءهم إلا حماية لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة ، وتمكيناً لهم من العمل مع إخوانهم بمأمن من أعين الرقابة وحبائل الإغراء والدسيسة . فقد بقيت من هؤلاء الأولياء المخلصين بقية لم تعلن أسماؤهم لذلك السبب ولكنهم على الأرجح هم الفئة التى تألف منها فرع جماعة « العروة الوثقى » بالديار المصرية ، وهي الجماعة التى أصدرت صحيفتها فى باريس بعد انتقال الشيخ محمد عبده إليها .

فإن الشيخ قد عول على اللحاق بأستاذه فى باريس بعد أن أقام بمدينة بيروت عاماً أو أكثر من عام ، ولحق بأستاذه لإصدار صحيفة سياسية تشن الحملة على

الاستعمار وتعمل لإثارة الشعوب المغلوبة عليه . وكانت مجازفة من الشيخ لم يكترث لعواقبها الوبيلة عليه وعلى ذويه . ومنها فراق أطفاله الصغار وإطالة أجل النفي عن بلاده من ثلاث سنوات كادت تنقضي إلى غير نهاية موقوتة . مع المعيشة بغوائل الفاقة والمكيدة في ديار الغربة التي تجمعها عصبية المنفعة على كل من يكافح الاستعمار ولو في بلاد غير بلاده .

ويتلخص برنامج العروة الوثقى في مبدأ عام ينطوي على مبادئ كثيرة : وهو حرب الاستعمار بكل وسيلة مستطاعة . ومن تلك الوسائل تحريض المحكومين على حكوماتهم الأجنبية ، وإزالة أسباب الخلاف بين الدولة الإسلامية لسد الثغرات التي يتسلل منها المستعمر بين تلك الدول لتأليب بعضها على بعض وتسخيرها جميعاً كما حدث غير مرة في طريق الهند على علم من جمال الدين بدخائل هذه السياسة التقليدية ، ومنها ضم الصفوف الوطنية حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين ، وهو مبدأ تأسست عليه دعوة جمال الدين قبل نفيه ، ومن أجله أنشأ المحفل الماسوني الذي أنشأ بمصر للاشتراك بين أتباع الديانات جميعاً في قضية الحرية ، ولم يزل لسان حاله في الصحافة قبل النفي وبعده أديباً مسيحياً كاثوليكي المذهب هو أديب اسحق الذي ثبت على هذا المبدأ إلى يوم وفاته .

وقد كانت صحيفة « العروة الوثقى » إحدى وسائل الجماعة ولم تكن هي وسيلتها الوحيدة ولا وسيلتها الكبرى ، لان الحكيمين لم ينقطعا أثناء مقامهما بباريس عن الاتصال سراً وجهراً بأنحاء العالم الإسلامي ولا بمراجع السياسة الفعالة في عواصمها المشهورة ومن ذلك أن الجماعة أوفدت الشيخ محمد عبده إلى لندن لإثارة المسألة بجذافيرها أثناء قيام المهدي بثورته في السودان ، وكان زبانية الاستعمار – كعادتهم – يخيفون المصريين من مقاصد المهدي ويشيعون عن « مخابراتهم السرية » أنه ينوي غزو وادي النيل كله وأن الحكومة المصرية لا تقوى على صده بغير المعونة البريطانية . فلما سأل الشيخ محمد عبده في حديث جرى بينه وبين مندوب صحيفة البال مال غازيت عن هذا الخطر المزعوم قال : « لا خطر على مصر من حركة المهدي . إنما الخطر على مصر من وجودكم أنتم

فيها . وإنكم إذا غادرتم مصر فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها . ولن يكون في هجومه أدنى خطر . وهو الآن محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي ، وسينضمون إليه عند قدومه » .

وقد نجحت دعاية الشيخ في العاصمة الإنجليزية ورجحت هناك جانب الحزب الذي كان يدعو إلى إخلاء السودان . وتقرر هذا الإخلاء ، بل أعدت المعاهدة التي يتفق عليها الطرفان لتسوية هذه القضية . وأوشكت أن تبرم وتوضع موضع التنفيذ لولا ورود الأنباء بموت المهدي واستعداد خلفائه للهجوم على الحدود المصرية .

ولقد جرى هذا الحديث في خريف سنة ١٨٨٤ ولم يبق من المدة الموقوتة لنفيه غير شهور . ولكنه سئل عن الخديو توفيق في مطلع الحديث فلم يبال أن ينحي عليه وأن يصرح برأي الوطنيين فيه . وقال في غير مواربة : « إن توفيق باشا أساء إلينا أبلغ إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا لا نشعر إزاءه بأقل احترام . لكنه إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته . . إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

وتبدو من هذا التصريح القاطع نية البقاء حيث كان خارج القطر لمواصلة الجهاد مع أستاذه ، لأنه قطع بيده كل أمل له عند صاحب السلطة الشرعية وهو الخديو ، وأصحاب السلطة الفعلية وهم المحتلون .

* * *

على أن الحكيمين قد بقيا معاً في القارة الأوربية زمناً يسيراً يعملان بين باريس ولندن في مراقبة المسائل الشرقية عند نظرها في دوائر العاصمتين أو الكتابة عنها في الصحف السياسية . وكانا قد اضطرا إلى تعطيل صحيفة العروة الوثقى ولما ينقض على صدورها أكثر من ثمانية شهور خلال سنة (١٣٠١ هجرية و ١٨٨٤ ميلادية) ظهر في أثنائها ثمانية عشر عدداً ثم احتجبت على كره من الأستاذين لأنها صودرت في جميع البلاد الإسلامية واتفقت على مصادرتها

حكومات الدول الأجنبية وحكومات الملوك والأمراء الشرقيين لأنها كانت تحارب الحكم الأجنبي بجميع مساوئه كما كانت تحارب استبداد الحاكم الوطني وفساد أعوانه ورجاله . وكانت تبدئ القول وتعيد في الإلحاء على رؤساء الأمم المستعبدة من أبنائها لأن استعباد هذه الأمم إنما يكون بقوة رؤسائها . وربما كان من أسباب تعطيل الصحيفة أنها كانت تتخذ في البلاد التي تصل إليها دليلاً على أعضاء الجمعية الذين يتلقون أعدادها ويتولون توزيعها . فحيثما وصلت الأعداد مجموعة إلى جهة من الجهات فهناك الشبهة فيمن تصل إليه ومن وراء الشبهة مصادرة الدولة ومتابعة التضييق والإرهاق حيث لا عاصم من القانون ولا حماية من سلطان الرأي العام المكبوت . أن لم يكن محجوباً عن الأخبار العامة بالكتمان والسكوت .

ولبث جمال الدين قليلاً يحاول في عواصم الغرب محاولاته السياسية على خطته المعهودة بغير كبير جدوى . ثم بدا له أن يجرب هذه المحاولات من غير هذه الناحية . فأجمع الرحلة إلى عاصمة القياصرة وهو ينوي أن يستخدم مقامه فيها لأغراض ثلاثة : أولها رفع المظالم عن الرعايا المسلمين وتمكينهم من حريتهم الدينية على قدر المستطاع ، والغرض الثاني أن يكف من عداوة الدولة الروسية التقليدية لدولة الخلافة ويرجو ألا يقع منها عدوان جديد في أثناء مقامه بعاصمتها ، والغرض الثالث هو الانتفاع بالمنافسة القديمة بين الروس والإنجليز في تحريك المسائل الشرقية بجملتها . ولا سيما مسائل الأمم التي على طريق الهند من مصر إلى فارس إلى بلاده الأفغانية .

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد إلى بيروت وهو يزداد إيماناً بعقم المحاولات السياسية وضعف الأمل في الملوك والأمراء ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة على الأمم دون غيرها . وحصر الأمل كله في إعداد هذه الأمم للنهضة والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة . وقد أبرأ ذمته وأعطى سياسة أستاذه كل حقها من الرعاية والإخلاص . ولكنه اتخذ من الأرزاء التي ابتلي بها أستاذه على أيدي الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم .

ووجوب التحول بالجهود إلى أممهم . فقد شهر به خديو مصر ونفاه . وعذبه شاه إيران وأهانه وطرده من بلاده على شر حال . وخيب راجوات الهند رجاءه وأعرضوا عنه مجاملة للسادة المستعمرين . واعتقله السلطان العثماني في قفص من الذهب كما قال بعض المعجبين به من المستشرقين . ولم يبق أمامها أحد غير هؤلاء ينوطان به الرجاء ويشدان إليه الرحال . فمن صيانة الجهد عن الضياع أن يتوقف هذا الجهد من هذا الجانب وينصرف إلى ما هو أصلح وأجدى .

وظل الشيخ محمد عبده على هذا الرأي يزداد إيماناً به يوماً بعد يوم . ويضيف إليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم ما يعززه تعزيزاً لا سبيل فيه إلى الشك عنده . وقد كان يقول لتلاميذه الفنهاء والأدباء من أمثال العالم الديني السيد رشيد رضا والشاعر الوطني حافظ إبراهيم إن السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا و « إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا . فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم بالسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب . فينتشر أحسن الانتشار . فقال : إنما أنت مثبط [٢] » .

• • •

وأراد التلميذ الوفي بعد عودته إلى القاهرة واستقرار أستاذه بالآستانة أن يعاود الكرة ويتلطف في الإشارة إلى السيد بما تقضي به الحيطة في مقره المضطرب بين دسائس الحاشية المتربصين ومكائد الحساد المنافسين وغدرات الوزراء والسلاطين . . فجاءه الرد عنيفاً غاية العنف من السيد يقول فيه : إنك « تكتب لي ولا تمضي وتعقد الألغاز . . من أعدائي ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ . . فكن فيلسوفاً يرى العالم ألعوبة . ولا تكن صبياً هلوعاً » .

(٢) صفحة ٨٩٤ من تاريخ الاستاذ الإمام الجزء الأول لصاحب المنار .

ثم يقول عن رسالة أخرى : « إن الرسالة ما وصلت ولا بينت لنا موضعها وجلاً منك قوى الله قلبك » .

وقد أمسك الشيخ محمد عبده بعد ذلك عن الكتابة إلى السيد فى الآستانة . لأن الرسائل لا تصل أحياناً . وما يصل منها فى القليل من الأحايين تراقبه الشرطة وترفع خبره إلى المراجع العليا ولا حيلة فى صراحة القول مع ضررها المحقق بالمرسل إليه دون المرسل ولا حيلة كذلك فى التورية لأن السيد على عادته من الجرأة البالغة يحسبها هلعاً صبيانياً ويؤنب الكاتب عليها ذلك التأنيب الحكيم .

ونرى من وفاء البحث أن يتمم هذا الفصل بالنظر فى موضع التساؤل من هذه الفترة فى علاقة الأستاذين الحكيمين على رأي بعض المؤرخين المعاصرين . كالأستاذ عبد الرحمن الرافعي فيما تناول به سيرة الأستاذ الإمام من تاريخ الثورة العرابية . فقد كتب إلينا أديب علم أننا نكتب سيرة الأستاذ الإمام فاستحلفنا ألا ننسى هذه المسألة فى موضعها من السيرة وقال : « ومما أرجوه أن تناقشوا ما جاء فى كتاب الثورة العرابية تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بالصفحتين ٥٤٢ و٥٤٣ وهو :

« ونقطة الضعف فى شخصيته – أى شخصية الأستاذ الإمام هي تخلفه عن الكفاح السياسى واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى وقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩ فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن » وإنك لتلمح تراخي الصلات بينهما حتى الصلات الشخصية منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام . فإنك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد فى محنته ومنفاه . بل إن جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الإمام كلمة فى رثاء أستاذه الروحي والفلسفى وزميل جهاده فى العروة الوثقى . وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال فى أخلاق الأمة ونفسيتها » .

ولا حاجة إلى القول – بعد البيان المتقدم – بأن هذا النقد أثر من آثار

الإسراع فى المؤاخذة لغير سبب يوجبها ولا حجة تسندها . فما كان فى الأمر من شيء يوصف بالضعف على معنى من معانيه . لأن الضعف إنما يكون حذراً من ضياع منفعه أو خوفاً من وقوع ضرر . ولم يكن فى الكتابة إلى السيد محذور على الكاتب يتقيه وإنما المحذور كله على السيد أن يصيبه من القوم ما هو فى غنى عن احتماله . ويأبى هو أن يسميه خطراً يتوقاه . ولا نظن المؤرخ الفاضل كان يريد من الأستاذ الإمام أن يتلقى بعد كل مراسلة تقريعاً كذلك التقريع يرمى فيه بالوجل والهلع وينهي فيه عن تصوير الخطر ولو بالتلميح إليه . وقد كان جمال الدين رضوان الله عليه فى دار خلوده يأبى أن يحسب نفسه سجيناً مرغماً على البقاء حيث كان بضيافة السلطان فإنه بقى هناك بعد أن سدت فى وجهه مسالك البلاد وسد هو أمام نفسه ما كان مفتوحاً بين يديه . ولو أنه شاء الترحل عن الآستانة لما تعذر عليه ذلك . بل حدث مرة أنه هم بالترحل « وانتقل إلى مكان تحميه السيطرة الأجنبية ثم لم يلبث أن غادره وعاد إلى داره . تلبية لرجاء السلطان وأنفة له أن يذل أمام أعدائه فى عاصمة ملكه .

ويستطيع المؤرخ الفاضل أن يعلم لو شاء أن الأستاذ الإمام قد أفاض فى ترجمة السيد جمال الدين فى تصديره لترجمة الرد على الدهريين . ولكن الأستاذ الإمام شغل عن كتابة سيرته هو – أي سيرة محمد عبده بقلمه – مع الحاجة إليها لدفع مفتريات الخصوم عليه . وما أكثر تلك المفتريات عليه فى حياته وبعد مماته ! وإن فى بعض ما كتبه منها لتنويها – أشرف التنوية – بفضل جمال الدين عليه ولا يطلب من تلميذ بلغ أوجه من المكانة فى العالم أن يعترف لأستاذ له اعترافاً أكرم وأرفع من قول محمد عبده عن جمال الدين : إن ميراثه منه أقدس من ميراثه الأبوي . لأنه ميراث فى الروح بصفوة الرسل والقديسين .

* * *

وبعد هذا الاستطراد العارض فى موضعه نعود فنقول إنه لم يقاطع جمال الدين يوم كانت صحبته له تنفيه نفى الأبد عن أهله ووطنه . وقد عاد إلى بيروت وهو فى حكم المنفى عن مصر مدى الحياة . ولكنه خرج منها بأعجوبة من

أعاجيب السياسة تصدق عندنا تجارب الشيخ الحكيم للفضل السياسى الذي يحسن فيه صاحبه وهو ينوي أن يسىء . فقد توسط له فى العودة إلى مصر اثنان هما : الغازى أحمد مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة ، والأميرة نازلي فاضل وريثة البيت المنافس لبيت إسماعيل من فرع الأسرة الخديوية ، ومركزه الآستانة .

ذلك فضل باطنه الذي لا خفاء به أن الرجل أقصى من بيروت بطلب حق من السلطان العثمانى . ليأمن عاقبة دعوته إلى الإصلاح والحرية فى إحدي عواصم الدولة العثمانية واللاد العربية . ولولا ذلك ما جاءت الوساطة – من كلا طرفيها – من هذا الطريق .

مع الثورة العرابية

كان الشيخ محمد عبده ثائراً ولكنه لم يكن عرابياً . لأنه كان على خلاف مع الزعيم أحمد عرابى فى برنامجه العملي . ولم يجمع العزم على تأييد العرابيين إلا لتوحيد الصفوف فى وجه الاحتلال الأجنبى ، بعد التجاء الخديو توفيق إلى الدولة البريطانية .

كان يؤيد الثورة فى أمرين : « أولهما » تنبيه الرأي العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم وإصلاح الحكم وإسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة إلى الوطنيين . و« ثانيهما » وهو أحوج إلى الوقت والأناة هو التعويل على إنهاض الأمة وإقامة نهضتها على أسس التربية والتعليم ، وإعدادها للحكم النيابى المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيانته من عبث الولاة والمتسلطين ، لأنه – كما تقدم – كان سيئ الظن بالنظم التى تأتى من جانب الملوك والأمراء بعد تجربة هذه النظم فى سائر البلاد الشرقية . ولا فرق عنده بين المجالس النيابية وبين دواوين الحكومة إذا لم تكن للأمة قدرة على حماية مجالسها .

غير أنه كان يخالف زعماء الثورة فى اتباع الخطة التى تؤدي إلى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكري من جانب الدول الأجنبية .

وكان يؤيد الخديو فى سعيه إلى الاستقلال عن رقابة الدولتين – إنجلترا وفرنسا – ولكنه كان ينكر عليه نفاقه فى اتباع هذه السياسة واستخدامها لتعزيز سلطته والرجوع بسياسة القصر إلى مثل ما كانت عليه فى عهد أبيه أسماعيل وعهود أسلافه من قبله .

وكان يؤيد وزارة رياض باشا فى برنامج الإصلاح ولاسيما رفع السخرة وتحريم الجلد « أو الكرباج » والتشديد فى محاسبة المديرين على سوء المعاملة ، ويؤيد أكبر التأييد فى توسيع نطاق التعليم وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين إليه من الأقطار الشرقية .

ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتزالها .

وكان يؤيد الشكوى العامة ويشترك فيها بقلمه ولسانه . ولكنه كان يعيب على بعض الشاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكاواهم الصغيرة من قبيل فوات الوظائف والعلاوات ورفض المطالب والشفاعات . وقد كان بعض هؤلاء ينقم على الوزارة خير أعمالها وأجدره بالمؤازرة والثناء : وهو رفع السخرة وتحريم الكرباج . . لأن مصالحهم فى زراعة أرضهم والانتفاع بموارد الري فى جوارهم كانت تقوم على تسخير الفلاحين وتخويفهم بالضرب وسوء المعاملة بموافقة المديرين وأعوانهم . وقد جلبت الوزارة عليها سخط العلية من أصحاب الأموال بتقرير الضريبة التى تحصل للإنفاق على تحسين الصحة العامة وتدبير وسائل العلاج على الأصول الطبية . ولم تكن أمثال هذه الشكاوي بالقليلة بين أصوات الشكوى التى ترتفع باسم الإصلاح . ومن ورائها أشباه هذه الأغراض واللبانات .

ولهذه الشوائب التى امتزجت بالحركات العامة فى ذلك الحين . كما تمتزج بها فى كل زمن . لم يتيسر لذلك العقل الناقد أن يختار له حزباً بين الأحزاب يؤيده كل التأييد ويخذل ما عداه كل الخذلان . ولم يكن منحيزاً فى ثورته إلى فريق دون فريق إلا حين بدرت بوادر الاحتلال الأجنبى بمشايعة الخديو وحاشيته ووجب أن تتفق الأمة فريقاً واحداً على مقاومته . فأقدم على مواجهة الخطر الأكبر ولم يحجم لحظة من مناصرة ذلك الفريق .

أما الوجهة التى استقبلها بكل قلبه ومنحها كل وقته ووقف جهوده كلها على العمل لها وإقناع غيره بفضلها . فتلك هي الوجهة التى خلق لها بالفطرة ورجحتها عنده التجربة بعد التجربة . وهي إيقاظ حمية الرأي العام للمطالبة برفع المظالم وإصلاح أداة الحكم . وإنهاض الأمة على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم .

وكان قبل استفحال الخطب يلقى زعماء الثورة وأصحاب الرأي فيها ليقنعهم بفضل هذه الخطة ويحذرهم من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية إلى ما وراء

الغاية المأمونة . وصرح لهم فى بعض هذه الأحاديث بما يخشاه من سوء العاقبة كما قال فى بيت طلبة عصمت باشا قائد الإسكندرية : « إن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم القيامة » .

وانصرفوا فى ذلك اليوم والزعيم أحمد عرابى يقول مبتسماً : « أبذل جهدي فى ألا أكون مورد هذه اللعنة » .

وقد بسط الأستاذ الإمام آراء الزعماء وآراءه يومئذ فى تاريخه للثورة العرابية . وسمعنا كثيراً من تفصيلاتها على ألسنة شهودها الثقات . ويوافقه تمام الموافقة ما سمعه صديقنا الأستاذ المازنى ونقله عن والده حيث قال من كتابه عن قصة حياته :

« . . . ثم قامت الحركة العرابية وسارت بأسرع مما كان ينتظر . وكان غرضها تحرير المصريين والتخلص من عناصر الترك والشراكسة المتحكمين المستولين على المناصب فى الإدارة والجيش . ومضت إلى غايتها فى جو من الدسائس الأجنبية والاطماع الدولية ، فخشى الشيخ محمد عبده العاقبة ، وكان بعيد النظر سديد الرأي فتوقع إذ لجّ العرابيون فيما هم فيه ، ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتدال أن ينتهي الأمر باحتلال الإنجليز لمصر ، فكان لهذا يقاوم العرابيين مقاومة شديدة وينعي عليهم قصر نظرهم وقلة تبصرهم ، ويبسط فيهم لسانه حتى ضجوا وهددوه بالقتل إذا ظل يعترض طريقهم ويناوئهم ، وأراد بعض العرابيين من أصدقاء الإمام أن يصلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذي حاول إصلاح ذات البين أقربائى ، لأن بيت جدي كان هو مكان الاجتماع .

« وتكلم العرابيون ، وتكلم دعاة التوفيق ، ثم تكلم الشيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه أن العرابيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتلال الأجنبى ، فأخفقت المساعي للصلح والتوفيق .

« وكان أبى من رجال الأزهر وزملاء الشيخ محمد عبده فى الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين ، وإن كان لم ينبغ كما نبغوا . فسأل الشيخ محمد عبده :

أكنت تلج هذه اللجاجة فى عنادك مع العرابيين لو كان السيد جمال الدين فى مصر ؟ فكان جواب الشيخ محمد عبده هذه الكلمة المترعة : يامحمد ! . . لو كان السيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية ولا احتاج أحد إليها . لأن السيد كان يغنى بشخصه عن كل ذلك . وتمثل ببيت من رثاء المتنبى :

كان من نفسه الكبيرة فى جيـ ـش وإن خيل إنه إنسان

ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الإنجليزي الاسكندرية . انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين . ووضع يده فى أيديهم . لأن الواقعة قد وقعت وكان ما خاف أن يكون . فلم يسعه إلا أن يكون مع قومه ـــ ولو كانوا مخطئين – على الغريب . وكان يتمثل ببيتى الحماسة :

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحي الغد
وهل أنا إلا من « غزية » إن غوت غويت . وان ترشد غزية أرشد

« والواقع أن السيد جمال الدين كان كما وصفه تلميذه الأكبر الشيخ محمد : « من نفسه الكبيرة فى جيش » . وهو الذي يرجع إليه الفضل الأول فى قيام الحركة الدستورية فى تركيا ومصر وإيران . وهو الذي أثار نفوس الهنود المسلمين على الاستعمار الإنجليزي . وقد خشيه سلطان تركيا وشاه إيران وخديو مصر والإمبراطورية البريطانية ».

* * *

ويشتمل تاريخ الأستاذ الإمام فى الثورة العرابية على أمثله شتى من أمثلة العظمة بالرأى الأصيل والنظر البعيد والغيرة الصادقة والخلق النبيل . ولكنه لم يشتمل على موقف من المواقف التى يضرب بها المثل فى سير العظماء على تقديسهم للواجب أبلى من موقفه الأخير منها . وهي تواجه خطر الاحتلال الأجنبى وتتسابق إلى المأزق الوبيل الذي يفض عنها الأنصار ويبعد عنها ذوي المآرب والمخاوف . وإنه لأحصف عقلاً وأبعد نظراً من أن تخفى عليه العاقبة ولو

على سبيل الترجيح إذا حال الأمل الطيب دون العلم بها فى ذلك المأزق علم اليقين .

وأي عاقبة ؟ عاقبة الوقوع فى قبضة الاحتلال الأجنبى نفسه . وأخطر منه وقوع أعداء الاحتلال فى قبضة الخديو المنتصر المنتقم . ومعه رؤساء جميع الوزارات الذين عاداهم العرابيون . وفى طليعتهم أحمد رياض أقربهم إلى الأستاذ الإمام وأستاذه جمال الدين .

وأنبل من ذلك أنه ثبت على رأيه فى محاربة الاحتلال الأجنبى وخيانة توفيق لوطنه فى مذكرته التى كتبها أثناء محاكمته وقال فيها :

« هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال جميع الأجناس والأديان . فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنكليز » .

ثم قال عن مؤامرة الخديو لحرق القاهرة إنه « شاع فى القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً فى نفس القاهرة . إلى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بالأمر . واستدعي الخديو إبراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب إليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم إليه . ففعل وبالغ الخديو فى حسن استقبالهم وأكرمهم من المواعيد . ثم أوعز إلى المدير أن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوي وإحضارهم إلى القاهرة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم . ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر . ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً إلى محافظ الإسكندرية هذا نصه : قد ضمن عرابى أمر الأمين العام ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولاً لدي القناصل . وإذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول فى ميناء الإسكندرية وعقول الناس مهيجة فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل . فاختر لنفسك أما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا » .

إلى أن قال : « وفى يوم هذا الحادث توجهت إلى السراي فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام . ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون إلا ما يسر الخديو . فإذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم » .

وهكذا جمع الشيخ السجين فى تقرير واحد بين اتهام السلطتين . ولم يخطر له أن يداري إحداهما ليأمن شرها ويحتمي بها من الأخرى . كما فعل كثير من الذين قدموا إلى المحكمة العسكرية . وهم يعلمون أنها خاضعة للسلطة الإنجليزية وأن أحكامها تعرض على القصر الخديوي ومجلس النظار لإقرارها .

وقد تلقى هذا التقرير محامي العرابيين برودلي صاحب التاريخ المستفيض عن محاكمات الثورة ، وكان الشيخ محمد عبده يعرض عنه لأنه لم يقبل فى بادئ الأمر أن يدافع عنه محام إنجليزي ، مع علمه بنظام المحاكم الخاصة وصعوبة الدفاع وفاقاً لهذا على غير المختصين من الإنجليز . ثم علم أن شاعر الأحرار (بلنت) صديق القضية الأيرلندية والقضية المصرية هو صاحب الرأي فى اختياره فقبل أن يفاتحه بأوجه دفاعه . وقال المحامي فى ذلك إن الشيخ محمد عبده « لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا فى أواخر أيامه فى السجن ، وحينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التى سعينا لاستحقاقها » .

وإن هذه الصدمة – كما سماها برودلي – لهي خير مثال لذلك التفاهم العسير بين عقول الشرقيين والغربيين فى الدوافع النفسية التى تحامرهم بإبان الفتن الاجتماعية . ولعلها سبب من أسباب ارتياب الشيخ محمد عبده فى نية محاميه أو قدرته ، فإن الشيخ قد سئل كما سئل غيره – وكان عمله فى الثورة غير عملهم وداعيه إلى المشاركة فيها غير دواعيهم – فنفى بطبيعة الحال أكاذيب الشهود الملفقين وتهم الأذناب المسخرين من قبل القصر والحاشية . ولم يعترف من التهم بغير الواقع الذي وقع منه رأياً وعملاً . وكله – كما رأينا – أخطر من أن يعد الاعتراف به نكوصاً عن التبعة وتنصلاً من الجريرة . فخيل إلى برودلي أن موقف

الشيخ السجين – بين ما نفاه عن نفسه وأنكره من شهادة غيره – إنما كان ضعفاً تبتلي به النفوس الشرقية فى أمثال هذه الشدائد . وليس أسهل عند هؤلاء الغربيين من مداراة سوء الفهم عندهم بالخلاف المزعوم بين طبائع الشرقيين وطبائع الغربيين .

على أن هذا المحامى نفسه لم يستطع أن يحجب عن عقله عظمة الرجل فى غير ما توهمه من أثر « الصدمة » . . وأشاد بمواهبه الخارقة فى غير موضع من كتابه فقال : « إنه ربما كان أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين . . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأى العام عاملاً حقيقياً فى الترقى المصري ولم يكن متهوساً فى الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسيع الشديد ، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر . ووطنيته التى لا شائبة للأنانية فيها هي التى حالت دون استياء رفقائه المتحمسين من خطبه الدينية علانية . حتى إن عرابى باشا صديقه قال عنه مرة : إن رأي الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة » .

ثم كتب بعد توديعه : « فى مساء اليوم الأول من شهر يونية سنة ١٨٨١ ودعت فى الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . . وإذا جاز لمصر أن تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوماً من الأيام فإنها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر . . » .

ولو أن المحامي كاتب هذه النبوءة أتيح له أن يمد بصره وراء السنوات الثلاث لعلم أن البلاد لم تستغن حقاً عن الشيخ محمد عبده ، وعلم قبل ذلك أن أمانة الصدق التى عهدها فى « موكله » هي التى حملته على أن ينفى ما نفى ويثبت ما أثبت ولم يحمله على ذلك خوف للعقاب . فإنه لم ينقطع عن حملته على الاحتلال وعلى الخديو صنيعته فى قلب العاصمة البريطانية . وهو يعلم أنه – بذلك – يطيل منفاه أبداً . وقد طال منفاه فعلاً فعاد إلى مصر بعد انقضاء موعد النفى بخمس سنوات .

ولسنا فى هذا الفصل بصدد البحث عن ظروف الثورة العرابية وتبعات

زعائها ودعاتها وجرائم خصومها وأشياعها المندسين عليها . ولكننا نستغنى عن ذلك فى هذا المقام بوزن هذه الثورة بميزان الثورات عامة . ونعود إلى طبائع الثورات جميعاً فى الشرق والغرب ، فنرى أن الثورة العرابية لم تكن بدعاً بينها . لأنه ما من ثورة حدثت قط إلا اشترك فيها الأنصار والخصوم على اختلاف الأفكار واختلاف الأمزجة واختلاف النيات واختلاف المظاهر والألوان ، ولا يختلط هؤلاء فى هذا الطوفان المريج إلا اختلطت الأعمال والتبعات وأفلت الزمام من الأيدي واختفى الزمام حيناً عن الأبصار والبصائر فلا يدرى من هو القابض عليه ومن هو المتخلى عنه ، ولا يعرف أين كان مبدؤه ومنتهاه بين أيدى الأنصار وأيدى الخصوم .

ومن طبائع الثورات أن يخطئ الإنسان خطأ لا حيلة له فيه وأن يكون خصمه هو المسئول عن خطئه . . ومن طبائعها أن تكون الثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها إلى غير مجراها ، بل من طبائعها أن تنقسم الصواب والخطأ فلا يكون الصواب كله يوما فى جانب ولا يكون الخطأ كله فى جانب ، وهكذا كانت الثورة العرابية بعد اندفاعها إن لم تكن كذلك عند بداءتها وقبل استفحالها . وربما كان من خطأ الشيخ محمد عبده – بمذهبه السوي فى الإصلاح – أنه كان المهندس الذي حاول أن يسوس مجري السيل كما يسوس مجري النيل . . ولكن الفارق بينه وبين الأكثرين من مخالفيه أن خطأه لم ينجم عنه ضرر ، وأنه أدرك الأضرار التى تنجم عن أخطائهم وهم غافلون عنها ، وأنه لم تكن له يد فيها ولكنه اضطلع معهم بجميع تبعاتها ولم يتركهم وحدهم – حين جد الجد لاحتمال جريرتها .

القضية القومية

انتظم محمد عبده فى سلك الحزب الوطنى منذ نشأة هذا الحزب قبيل عزل الخديو إسماعيل .

وقد تؤدي تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب إلى لبس كثير فى أذهان المعاصرين الذين ألفوا نشوء الأحزاب على وضعها الحديث .

فإن الحزب الوطنى الذي انتسب إليه معظم المشتركين فى الثورة العرابية لم يكن حزباً يقابل أحزاباً أخري من أبناء البلاد تتعارض فى المبادئ والبرامج على النحو الذي نعهده اليوم فى الأحزاب السياسية ، ولكنه كان فى حقيقته هيئة واحدة شاملة للحركة الوطنية فى جملتها . وإنما سمي بالحزب ليقابل جماعة الشراكسة والترك والألبانيين والأرمن الذين كانو يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة .

فالحزب الوطنى على هذا الاعتبار كان هو حزب المصريين الفلاحين أو حزب الأمة المصرية ، ومن أجل هذا كان شعاره « مصر للمصريين » جامعاً لمبادئه المتعددة فى كلمتين اثنتين ، أو هو فى الواقع كان مبدأ واحداً يجري تطبيقه على مختلف المسائل التى كانت تدخل فى نطاق القضية القومية بجميع جوانبها .

كان رفع المظالم عن أبناء البلاد ومحاربة الفساد والإسراف فى دواوين الحكومة هو مبدأ المبادئ فى سياسة الحزب الوطنى منذ تأليفه قبل نهاية حكم الخديو إسماعيل . وينطوي فى هذا المبدأ أن يصير حكم البلاد إلى أيدي أبنائها الذين أصابهم الظلم من حكم « العثمانيين » غير المصريين ، وينطوي فى هذا المبدأ أيضاً منع التدخل الأجنبى الذي جرت إليه سياسة البذخ والإسراف وسياسة الديون فى عهد اسماعيل على الخصوص . وينطوي فيه تنظيم إدارة الحكم والتوفيق بين مقاصد الحكام ومقاصد الرعية .

وكان محمد عبده فلاحاً بمولده وتربيته ينتمي إلى قرية نشأت في ظل عهد الإقطاع ، وكان مصابه ومصاب أهله من ظلم الطبقة الحاكمة أشد وقعاً في نفوسهم من مصاب إخوانهم أبناء القرية ، لأنهم كانوا بمنزلتهم الاجتماعية هدفاً لأنظار الحاكم المتسلط ، وحائلاً في كثير من الأحيان بينه وبين أغراضه من عامة الرعية فكان مصابهم بالظلم مضاعفاً لأنه مصاب في الرزق ومصاب في الكرامة .

وكانت ثورته على « الراعي » الجائر ثورة من يشعر في قرارة نفسه بأنه أهل للمنازعة مع ذلك الراعي الجائر ، وليس قصاراه أنه أهل للخضوع أو يسخط في صمت واستسلام ، واستفادت هذه الثورة من التعليم والرياضة الروحية أنها أصبحت عقيدة من عقائد الضمير ولم ترتهن بحدود القرية أو الطبقة ولا بحدود المصلحة الاجتماعية أو السياسية .

وكانت حماسة النخوة سليقة في الرجل كما أسلفنا ، وهي شيء غير اندفاع التطرف الذي يساور بعض ذوي الآراء ، وإن التبس أمرهما أحياناً على من يحكم عليهما بالمظاهر والأشكال .

فإن تطرف الاندفاع قد يأتي من الخفة والعجلة ، ولكن حماسة النخوة تأتي على الأكثر من شعور عميق وعقيدة متأصلة ، وربما كانت حماسة النخوة عوناً لصاحبها على الصبر الطويل ، ولكن خفة التطرف قد يستثيرها الغرض العاجل أو تموت .

كذلك ينبغي أن نفرق بين الإندفاع والإقدام ، لأنهما قد يتلاقيان أحياناً وقد يكون الإفتراق بينهما أكثر من اللقاء ، فربما اندفع المندفع إلى الفرار كما اندفع إلى الإقدام ، ولكن المقدم في غير اندفاع هو في الحقيقة ثابت حيث كان ، وإن خيل إلى أناس أنه مدفوع إلى غير ما أراد .

وتاريخ محمد عبده في خدمة القضية القومية هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده ، ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع مع الخفة والعجلة ، لأن نظرته ان الغرض القريب لم تعجله قط عن النظر الطويل إلى الغرض البعيد ، وهو الغرض الدائم وراء جميع الأغراض .

وقد أقدم يوماً على الترصد لخديو إسماعيل عند قصر النيل للقضاء عليه — أولى من الانتظار به إلى أزمة بينه وبين الدولة تزيله عن عرشه — ولو أنه أخطأه في هذه المرة وسنحت الفرصة للتفاهم مع ولي عهده على تعديل سياسة أبيه بعد عزله . لزال إسماعيل عن العرش مقتولاً في أغلب الظن ولم يزل معزولاً كما أراد جمال الدين وحزبه في الساعة الأخيرة . وقد كان التآمر على العزل خطراً لا يقل عن خطر الإقدام على القتل . وليس لاندفاع التطرف مذهب وراء مذهب الإقدام على هذين الخطرين .

ولما نشبت الثورة العرابية كان حذره من السيطرة الأجنبية أشد من حذر العرابيين وحذر الخديو توفيق . لأنه لم يخالف العرابيين في أدوار الثورة الأولى إلا خشية الاحتلال الأجنبي الذي يجر على جالبه لعنة الأبد كما قال . ولم يؤيد الثورة كل التأييد في مرحلتها الأخيرة إلا لأن الخديو توفيق جنح إلى الدولة المحتلة وحارب جنوده بجنودها .

وفي كل أولئك كان محمد عبده أشد إقداماً على الخطر من الجميع : كان أشد منهم إقداماً في معارضة الثورة حين عارضها . وأشد إقداماً في تأييدها حين أيدها . وكان أبعد منهم نظراً وأصدق منهم غيرة في كلتا الحالتين .

ولما وقع المحظور ودخل الإنجليز مصر محتلين . وبارحها محمد عبده منفياً عن وطنه . كان هذا المنفى أسبق أبناء الوطن إلى عاصمة الدولة الإنجليزية ليعلن الحرب على الاحتلال في عقر داره . وقال لهم في صحافتهم : « إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم . وإن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل . ولقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكي تكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا » .

وبلغ في الصراحة معهم ما لم يبلغه قائل من بعده حيث يقول لصحيفة البال مال :

« لمَ لا تغادرون بلادنا في الحال ؟ لقد علمنا الإنجليز شيئاً واحداً هو التضامن في مطالبتكم بالجلاء . . . شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا

وأردنا لبلادنا إصلاحاً وتقدماً كتقدم الأوربيين فى طريق الحرية . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك . وليس فى مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً ، وهو أن تغادروا بلادنا حالاً إلى غير رجعة .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق كانت مشايعتهم هي الجريمة الكبري التى نعاها عليه فى وجوههم إذ قال : « إن توفيقاً أساء إلينا أبلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، وانضم أيام الحرب إلى أعدائنا ... ولا يمكننا أن نشعر إزاءه بأقل احترام » .

قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفياً عن بلاده أبداً . لأنه لن يعود على غير رضا الخديو صاحب السلطة الشرعية ورضا المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد بقى فعلاً غير مأذون له بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدود لنفيه ، وهو ثلاث سنوات .

وانقضت فترة من هذه السنين فى الحملة السياسية على الاحتلال بين لندن وباريس ، وكان محمد عبده فى صحبة جمال الدين قد اختار هذه المدينة مركزاً لنشاطها السياسى ، لأنها عاصمة الدولة الفرنسية التى كانت تنافس الدولة البريطانية وتساومها على مشاكل القضية المصرية . فكان من أملها أثناء الحملة على الاحتلال البريطانى أن تثار القضية كلها فى ميدان السياسة الدولية لمطالبة الانجليز بالجلاء عن مصر ، وأن يكون مثار الحملة من باريس بعد مضى السنوات الأولى على دخول الجنود الإنجليزية إلى قلاع القاهرة والإسكندرية ، وبعد صدور الوعود الأولى من وزراء لندن باقتراب موعد الجلاء . ثم انقضت السنوات فى التجارب التى ابتلى بها الحكيمان من معاملة الساسة الغربيين والساسة الشرقيين ، وكان أثرها جميعا شعوراً عميقاً بخيبة الأمل وضياع الجهد فى هذا السبيل . فأما ساسة الغرب فقد كانت قضايا الأمم عندهم صفقات للمساومة وتبادل الغنائم والاتفاق على توزيع المستعمرات الجديدة بعد المستعمرات التى يثيرون قضاياها . . وأما ساسة الشرق فقد كانت مخاوفهم من

تحرر شعوبهم كمخاوف الأجنبى من تحرير مستعمراته المغلوبة ، وكان الأجنبى يستعين بهم على توطيد حكمه بين التهديد بالخلع والترغيب فى فضلات السلطة من يديه . فخلفت خيبة الأمل فيهم جميعاً مرارتها التى تعصف بالأمل لولا قوة اليقين وانصراف العزيمة إلى العمل فى غير هذه السبيل . وقد تدرك قسوة أذاها فى نفس الأستاذ الإمام من كلماته عن السياسة وسوء أثرها فى نهضات التقدم بعد أكثر من عشر سنوات قضاها فى تجارب شتى لما أصابه منها ، فقال فى كتابه عن الإسلام والنصرانية : « إن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة . . ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ! » .

لقد كان للعزيمة الصادقة عملها أمام هذه الخيبة القاسية .

وكانت هي العزيمة التى لا يشغلها الغرض القريب عن الغرض البعيد ، ولا يبئسها الأمل الضائع أن تصمد للأمل الذي لا يضيع .

ونفس أخرى كانت هذه الخيبة خليقة أن تضربها بضربة الوهن والقنوط فتهجر السياسة وتهجر القضية معها .

ولكنها كانت عزيمة تصدق نفسها إذا كذبتها السياسة الخادعة . . فاستحالت بكل ما فيها من قوة إصرار على ترك السياسة والإقبال على العمل فى الطريق الذي لا عوج فيه إلى الغاية التى لا ريب فيها . وقضت على السياسة عندها بهذا الإصرار قبل أن تقضى السياسة عليها .

لا تعويل بعد اليوم على السياسة ولا على الساسة . وإنما التعويل كله على الأمم . ولا معول للأمم فى جهادها أنفع لها وأصدق فى المضى بها إلى غايتها من العلم الحي والتربية القويمة .

ولقد كان يقول للمقربين إليه من مريديه : لو كان فى هذه الأمة مائة رجل لما استطاع الإنجليز أن يحكموها . ولما أدركوا منها أرباً فى حكمهم إياها . وإنما الرجل عنده صاحب الفكر البصير والخلق المكين : صاحب الكفاءة الذي إن

وجد فى الأمة قادها لا محالة ولم يتمكن أجنبى ذو سطوة أو ثروة أن ينازعها على قيادها .

• • •

بهذه العزيمة عاد من منفاه وهو ينيف على الأربعين . ولا بديل له من استكانة اليأس إلا أن يقبل بكل ما أوتى من الثبات والأمل على العمل الذي آمن بأنه رسالته الباقية فى الحياة . ووثق من جدوي الاعتماد عليه طول الزمن . إذ لا جدوى للاعتماد على السياسة والساسة غير خداع السراب .

ولو أننا ألقينا على لسانه كلاماً يقوله فى هداية التعليم كالذى قاله فى ضلال السياسة لخلناه قائماً قاعداً يقول :«بارك الله فى العلم والتعليم ، وفى علم وتعلم،وفى عالم وعليم ومعلوم ، وفى كل حرف من حروف العين واللام والميم ! » .

تقرب من الخديو فلم يكن تقربه إليه ليخدم سياسته . ولكنه أراد أن يقود الخديو إلى إحياء النهضة العلمية فى أقدم الجامعات الشرقية . وأن يجري على يديه تطهير الدواوين حيث يتصل الديوان بأعمال الخير والإحسان . أو يتصل بتربية البيت وصيانة الأسرة وحسن الوصاية على الأزواج والأبناء .

وبعد بضعة عشرة سنة لمع فى أفق السياسة آخر بروقها الخلابة فى فضاء القضية القومية . وعرضت الدولة الفرنسية سرابها الأخير على الذين استنجدوا بها لإنقاذ مصر من مهاوي الاستعمار . ثم أسفرت مساعي الخفاء عن العلن المكشوف فإذا هو اتفاق بين الدولتين – بريطانيا وفرنسا – على تبادل التصرف المطلق فى مصر ومراكش . تفعل كل منهما ما تشاء بالبلد الذي استولت عليه وتتفقان معاً ذلك الاتفاق الذي سموه بالودي لإقناع الدولة الأخري بمثل هذا التفاهم على صفقات الاستعمار .

واطمأنت بريطانيا العظمى إلى مكانها بوادي النيل . وبدا لها أنها إذا نزلت للمصريين عن سلطانها على الحكومة لم يتأولوا ذلك بالاضطرار إليه خوفاً من إثارة قضية مصر فى محيط السياسة الدولية . ولكنهم يتقلبون منه ما يرضيهم

باختيارهم ويرضى الدولة المحتلة باختيارها . فأرسلت صديق العرابيين القديم – سكوين بلنت – يسأل مفتى الديار رأيه فى أسس الدستور التى يقام عليها بناء الحكومة ونظام الإدارة . فكانت خلاصة جوابه على ما يفهم من بين سطور الصحف التى حرفت هذا الجواب : أن يكون الدستور مقيداً لسلطة الاحتلال وسلطة الخديو . وأن يكون إعلانه ضماناً من السلطتين باحترامه ومنع المساس بحقوقه . وأن يكون للرئيس المصري حق جدي فى ديوانه فلا يكون عمله فيه عالة على الرؤساء الإنجليز . وإن يكون نظام التعليم إجبارياً فى جميع أنحاء البلاد . وأن تكون للمجلس النيابى حقوق الإشراف على السلطة التنفيذية أو سلطة الوزارة . فإذا اختلف مجلس النواب ومجلس الوزراء عرض الخلاف على هيئة مشتركة من النواب وقضاة محكمة الاستئناف . وتلتزم الوزارة بحكم هذه الهيئة فلا يكون لولي الأمر من سلطان على الحكم . إلا ما يتقبله الوزراء ويحتملون تبعته فى حدود الدستور والقانون .

كان هذا قبيل وفاة المفتى بسنة واحدة (سنة ١٩٠٤) وكان للاحتلال أجل فى علم الغيب لم ينته قبل نيف وخمسين سنة . ولم يكن له فى علم الإنسان أجل محدود . ولكنه لم يكن أمل الغد القريب بعد بضع سنوات على كل حال . ولو أنه كان – من التفاؤل الطامح – أمل سنوات عشر أو عشرين لما كان فى الواسع أن تدار الحكومة خلال هذه المدة بالدعوة إلى الإضراب وترك الحكم كله بين أيدي المحتلين . ولو بدأت الدعوة إلى الإضراب فى تلك السنة لما نفذت ولا تم الاتفاق عليها قبل انقضاء تلك السنين . فليس تقدير وقوع الجلاء فعلاً فى تلك السنة إلا تسجيلاً بعبارة أخرى لانفراد المحتلين بالولاية على الدولة بمعزل عن أبناء البلاد فى جميع الدواوين .

وقد كان المفتى موظفاً يتولي عمله فى خدمة بلاده مع مئات من خيرة أبناء الوطن فى مناصب الوزارة والقضاء والتعليم والبناء والتعمير . فإذا كان العاملون فى السياسة قادرين على تبليغ أمانتهم بالكتابة فى الصحف والخطابة على المنابر . فأمانة الموظف الذي يخدم بلاده لا تؤدى فى غير الديوان . ولا يزال لقاء

المستشار والمفتش والعميد عملاً من أعماله المتكررة إن لم تكن من أعماله اليومية ، وبخاصة مستشار وزارة التشريع . ولا تؤدى وظيفة واحدة بغير الرجوع إلى هاتين الوزارتين .

ولاموجب هنا للموازنة بين من يعدون الأمم للاستقلال بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم ، فإن الأمم تستطيع على الدوام أن تعتمد على كلتا الخطتين وأن ترشح لكل منهما من هو أصلح لها وأقدر عليها وأرغب فيها . وليس ثمة من ضرورة توجب عليها أن تختار هذه وحدها أو تلك وحدها ، منفصلتين غير مجتمعتين .

وإنما المسألة هي مسألة هذا المصلح القدير على الإصلاح ، أي الخطتين يختار ، وأيتهما ترجى منه منفعتها ، ويؤمن فيها على وقته وجهده من الضياع والفوات .

إن هذا المصلح الذي تمت له عدة الإصلاح وقيادة الأمة فى طريق التقدم والحرية قد جرب السياسة فلم تثمر له ثمرة يرضاها .

إنه آمن بأن عمل السنين فى السياسة والاعتماد على الساسة قد يضيع ولا يبقى من أثره ما ينفع ، بل قد يبقى من أثره ما يضر ولا تمحو ضيره الأيام والسنون ، ولكن عمل السنين فى تربية الأمة وتعليمها لن يضيع ولن يذهب سدى ، ولن يندم عليه العامل ولا الأمة التى يعمل لها ، قصرت بها الطريق أو طالت إلى غايتها من التقدم والحرية .

إنه ابتلي من السياسة والساسة بتلك الخيبة التى بغضتها إليه وأورثته تلك المرارة « النفسية » التى جعلت كل عمل فيها غصة لا تطاق وأذى لا يحتمل ، ونفرته منها ذلك النفور الذي يصد العزيمة عنها ويدحض الرجاء فيها . وليس من طبيعة الغيرة الصادقة أن تمضى إلى وجهة تصد عنها أو تخدع النفس من السعي الذي لا رجاء فيه . فليس له ولا لأحد أن يصرفه عن العمل الذي يرجو جدواه . ليكرهه على العمل الذي لا يجدي عنده . وإن أجدى كثيراً أو قليلاً عند غيره .

وأيا كان رأي التاريخ فى جدوى الخطتين على قضية مصر فلا خلاف فى رجحان كفته على كفة خصومه بميزان الصدق والإخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الإصلاح . لأنه آمن بخطته ولم يعطل على أحد خطة يؤثرها ويطمئن إلى عقباها . ولكن خصومه قد سوغوا أسوأ ظنونه فى السياسة يوم صدوه عن طريقه ونصروا عليه أعداءه وأعداء رسالته الباقية ، وكان أسوأ ما صنعوه أن يحسبوا عليه حماية القانون لمنصبه إخلالاً بالوطنية وهم يحمدون لولي الأمر أن يطأطئ رأسه لراية الاحتلال كي يغنم من المحتلين إغضاءهم عن عبثه بوظائف الحكومة . وهو لا يرمي بذلك العبث إلى شيء غير محاربة العلم واتهام الدين بما هو بريء منه ، إذ يجعله حائلاً بين المسلم وبين علوم الحضارة فى القرن العشرين .

في الأزهر

وقفنا بتاريخ الأزهر الحديث عند أوائل النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وهو يومئذ حومة صراع خفى بين طلاب الإصلاح المجددين وبين شيعة الجمود والتقليد من المحافظين على القديم : إذا تولاه شيخ عصرى . أو شيخ فى بالقياس إلى شيوخه المعمرين سعى سعيه البطيء إلى تنظيم الإدارة وترتيب أوقات العمل ومواعيد الامتحانات وشروطها دون مساس بجوهر التعليم من موضوعات الدروس وكتب التدريس وأشخاص المدرسين . وإذا أحس ولاة الأمر بادرة السخط على هذا النصيب المقتصد من الإصلاح البطيء أعادوا إليه شيخاً من المشهورين بالتعصب للقديم . وأعادوا الأزهر فى الحقيقة إلى ذلك الشيخ ليتولى عنهم ستر نياتهم نحو الإصلاح ويدفع عنهم بجموده وتقليده شبهات العدوان على حرمات هذا المعهد العتيق . بل شبهات العدوان على حرمات الدين . إذ كان كل تغيير فى المألوف بينهم لايقل عن سبة الخروج من الدين .

وكانت الحكومة – كما تقدم – تخشى أن تتعرض لهذه الشبهات فى زمن تكاثرت فيه الشبهات عليها من سياستها الأجنبية . وأوشكت هذه السياسة أن تجعلها رهينة بالسلطان الأجنبى فى أمور القضاء والتشريع وفى أمور « الامتيازات الأجنبية » على التعميم . فلم تكن لها بقية من السمعة الحسنة فى هذا الباب تجازف بتعريضها للثورة عليها من رجال الدين . فى أكبر معاهد الإسلام . فاتبعت مع الأزهر خطة الانتظار وآثرت أن تتلقى طلب الإصلاح من أهله فتلبيه . وظلت على هذه الخطة لاتجرؤ على تبديلها إلى مابعد الاحتلال البريطانى واستيلاء المحتلين علانية على دواوين الحكم بدعوى الإصلاح والتنظم .

عندئذ تحول الموقف كله من جانب السلطة الشرعية أو سلطة الخديو بمعزل عن وزرائه وموظفيه . فإن استئثار المحتلين بدعوى الإصلاح والتنظيم فى دواوين الحكومة جميعاً لم يدع له مكاناً يعمل فيه منطلق اليدين غير الجامع الأزهر وديوان الأوقاف والمحاكم الشرعية . وهي الجهات الدينية التى أمسك المحتلون

عن التعرض لها إلا فيما يتعلق منها بميزانية الدولة كوظائف القضاة الشرعيين وموظفى المحاكم الشرعية . فأصبح من هم الخديو أن يدفع عنه تهمة العجز عن الإصلاح والتنظيم فيما بين يديه من الدواوين والمعاهد . فإن هذا العجز حجة عليه وعلى الحكم الوطنى برمته فى أيدي السلطة الأجنبية . وبرهان محسوس يرتكن إليه المحتلون – أمام العالم – كلما التمسوا ذلك البرهان المحسوس للحجر عليه وعلى أداة الحكم التى ترتبط بها « المصالح الأجنبية » ودعوى الامتيازات .

ومع هذه الضرورة الملحة على ولي الأمر لم يجرؤ على « اقتحام العقبة » بغير تمهيد يعفيه من تهمة التهجم على حرمة المسجد وتقاليد الدين . فدبر مع المخلصين من طلاب الإصلاح « حيلة شرعية » للبدء بالإصلاح المطلوب . واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية فى مسألة العلوم التى يجوز تدريسها بالجامع ولاتعتبر العناية بها فى أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية . وكلفوا عالماً تونسياً فاضلاً – هو الأستاذ محمد بيرم أشهر علماء جامع الزيتونة فى عصره – أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع يومذاك (١٣٠٥هـ ١٨٨٧م) فكتب إليه بعد تمهيد وجيز :

« . . . ما قولكم رضى الله عنكم . هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف . لاسيما ماينبغي عليه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجاري به الأمم المعاصرين لها فى كل مايشمله الأمر بالاستعداد ؟ بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجباً وجوباً كفائياً على نحو التفصيل الذي ذكره فيها الإمام حجة الإسلام الغزالي فى إحياء العلوم ونقله علماء الحنفية أيضاً وأقروه . وإذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءتها مثل ماتجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين . . . أفيدوا الجواب لازلتم مقصداً لأولي الألباب » .

وقد كان الأستاذ الإنبابى يعلم مصدر الاستفتاء فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه . وكتب فى جوابه مايلي :

« . . . يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية . لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية . بل يجب منها ماتتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوباً كفائياً . كما يجب علم الطب لذلك – كما أفاده الغزالي فى مواضع من الإحياء – وأن مازاد عن الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة . ولايدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية . فإنه حرام كما قال الغزالي وعلل ذلك بما محصله أنه يخشى من ممارسته نسبة التأثير للكواكب والتعرض للإخبار بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطئ لخفاء بعض الشروط . وأما الطبيعيات – وهي الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها كما فى الإحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم . فإن كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها كما أفاده العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتثرة ، بل لها حينئذ ، أهمية بحسب أهمية ثمرتها . كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن فى علم الطب . وكمعرفة عمل الآلات النافعة فى مصلحة العبد . وإن كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام لأنه يؤدي للوقوع فى العقائد المخالفة للشرع كما أفاده العلامة المذكور . نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة الممارس للكتاب والسنة للأمن عليه مما ذكرنا قياساً على المنطق المختلط بالفلسفة على ماهو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة ثانيها الجواز مطلقاً ونسبه الملوي فى شرح السلم للجمهور ، وثالثها المنع مطلقاً ونسبه صاحب السلم لابن الصلاح والنووي . قال الملوي : ووافقها على ذلك كثير من العلماء . ولما كان الإمام النووي ممن يقول فى المنطق بالمنع مطلقاً مشى على نظير ذلك فى الطبيعة . فعد فى كتاب السير من لروضة من العلوم المحرمة علوم الطبيعيات بدون أن يفصل . لكن حيث يعتمد التفصيل هناك فلنعتمده هنا . إذ لافرق فى ذلك . فإن مظنة الضرر والنفع موجودة فى كل منهما . . » إلى آخر الجواب مما يدل عليه أوله المتقدم .

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر – الشافعي –

صدرت الموافقة عليها من مفتى الديار المصرية . وهو حنفى المذهب . فقال إن « ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا وما استظهره من أن الخلاف الجاري فى علم المنطق يجري فى علم الطبيعة أيضاً وجيه . والله سبحانه وتعالى أعلم » .

* * *

ويستطيع الناظر فى تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح منها أنها تفتح الباب فيما أباحته للتفرقة بين طريقة وطريقة وغاية وغاية ، ولاسيما فى المنطق والطبيعيات ، فلايشق على المعارض فى تدريس علم منها أن يؤجل تدريسه على الأقل إلى أن يثبت خلوص الكتاب المقرر من الشوائب الممنوعة ، وابتعاد المدرس له عن مذهب الفلاسفة أو مذهب المنجمين ، ولايصعب على المعترض أن يحسب الإنباء عن مواعيد الكسوف والخسوف والقرانات الفلكية المحققة افتياتاً على الغيب لجواز الخطأ فيها على الناظر كما جاء فى الفتوى .

وتلك كانت النية منذ صدرت الفتوى اضطراراً بهذا التحفظ والتقييد ، فإن الشيخ قد أصدرها وهو ينوي تعطيل برنامج الإصلاح بأمثال هذه الحجج التى لاتعنى أحداً يريدها بعد السير فى خطوات التنفيذ العملية . وقد عاد الشيخ محمد عبده من المنفى واقترح على الشيخ الإنبابى هذا تدريس مقدمة ابن خلدون فلم يجبه إلى مقترحه وقال « إن العادة لم تجر بذلك . . » ثم سكت حين أراد الشيخ محمد عبده أن يبين له وجه المشابهة بين المقدمة وما يدرس من كتب المتأخرين على عهده ، ولم يرد أن يدخل فى الحديث .

* * *

لاجرم يكون صدور هذه الفتوى العقيمة هو كل ماتم من « مشروعات » هذا الاصلاح . فلم تزل حبراً على ورق إلى العهد الذي أنشئ فيه للأزهر مجلس خاص لوضع الفتوي فى موضع التنفيذ . وكان الشيخ محمد عبده عضواً فيه . وقد عين للأزهر وكيل ذو كفاية وخلق . له « شخصية قوية » لايسهل إهمالها .

وهو الشيخ حسونة النواوي من أصدقاء الشيخ محمد عبده وأركان المدرسة الجديدة من بين العلماء المجددين . وقد اتفقت الآراء على اختياره ليحول دون تعطيل « المشروعات » عند تطبيقها . إذا صدرت بها القوانين والمراسيم .

مضى بين اتصال الشيخ محمد عبده بالأزهر وصدور تلك الفتوى نيف وعشرون سنة ، حضر فيها مراحل هذه الحركة من بداءتها الأولى وهو طالب ومدرس ومشرف على الإدارة والتدريس :

وصل إلى الأزهر طالباً حوالي سنة ١٨٦٦ ميلادية فاجتهد لنفسه فى البحث عن أساتذته ودروسه . ثم أغناه حضور جمال الدين إلى مصر عن المعلمين فيما يحتاج إلى المعلم وأغناه ذكاؤه وصبره عن الكتب المقروءة فى حلقات التدريس . إذ كان يبحث عن الكتاب المفيد حيث أصابه . فيقرأه لنفسه ويجنى منه خير مايجنى من الفائدة فى زمن وجيز . يريحه من حضور دروسه على المعلمين « التقليديين » وكثيراً مايكون من غير الكتب المقررة للدراسة الحلقات .

وقد مر بنا كيف كان الناشئ محمد عبده يبتلى بالنقيضين على مفترق الطريق فى معاهد تعليمه منذ صباه . ولكن مفترق الطريق هذا كان فى عهده الأول بالأزهر على أبعد ماتكون الشقة بين النقيضين . فقد كان من طرف الجمود يترامى إلى زاوية الجمود السحيقة فى كهف الشيخ محمد عليش . وكان من طرف التجديد يترامى إلى غاية مرماه ، حيث تتطامن العقبات والسدود ، فى ساحة جمال الدين . بل فى ميدان جمال الدين .

وقد كان الشيخ محمد عليش رجلاً صالحاً عفيفاً عن المطامع الدنيوية التى كانت تستهوي طلاب المظاهر من علماء عصره . وكان مخلصاً صادق النية فى كراهة البدع التى يخشى منها على الدين . ولكنه إخلاص قاده إلى التطرف الشديد وأوشك أن يبغض إليه كل تفكير يستقل به طالب العلم . ولو كان من تفكير حكماء الإسلام .

وأبلغه ابنه يوماً أن طالباً بالأزهر يحضر على جمال الدين ويقرأ كتب المعتزلة

والمتكلمين . فحمل عكازه وذهب مع ابنه وأصحابه الشبان إلى حيث يجلس ذلك الطالب الجريء . ودارت بين العالم الكبير والطالب الناشئ مشادة . أحرى أن تسمى مشاجرة . لأنها انتهت إلى التماسك بالأيدي واعتصام العالم الكبير بعكازه . وألجأت الطالب الناشئ إلى اصطحاب عصاه كلما ذهب إلى حلقته . رداً لعادية الزملاء المستأنسين بحماية شيخهم . إن لم يكن رداً لعادية الشيخ الوقور .

وتقدم إلى امتحان شهادة العالمية وهو بهذه السمعة فى دوائر الجامدين ودوائر المجددين . فدخل أعضاء اللجنة وهم متعاهدون على إسقاطه كيفما كانت إجابته على أسئلتهم التى قدروا أن تكون معجزة لمثله . فلم يستطيعوا أن يحرموه بعد العنت والمكابرة . بل لم يستطيعوا أن يكتفوا بمنحه الدرجة الصغرى وهي شهادة اللجنة من الدرجة الثالثة ، حتى أنقذه منهم بعض الإنقاذ رئيس اللجنة ورئيس الجامع فى ذلك الحين الشيخ « المهدي العباسى » أحد كبار العلماء المناصرين لحركة التجديد وإن لم يكن من المحبين لجمال الدين . وأقسم الرجل أنه لو عرف درجة فوق الأولى لما استكثرها عليه . وكادت اللجنة أن تنفض على غير اتفاق . لولا خشية العاقبة من مجابهة شيخ الجامع بالتحدي والإجحاف . فاقترح بعض الأعضاء التوسط بين الدرجتين واتفقوا أخيراً على منحة الدرجة الثانية . ثم رفعت هذه الدرجة إلى الأولى بعد سنوات . وكانت سنة فى نحو الثامنة والعشرين حين دخوله الامتحان (١٨٨٧) .

وبعد التدريس فى الأزهر نحو سنتين عين أستاذاً بدار العلوم (١٨٧٩) وفصل منها بعد أشهر معدودات لغير سبب مذكور فى قرار فصله . ولكنه كان مفهوماً بين المطلعين على سياسة القصر قبيل الثورة العرابية . فإنه كان قد عرف بالدعوة فى دروسه إلى المبادئ الخطرة التى أشارت إليها الحكومة فى قرار نفيها للسيد جمال الدين . وكان أكثر من ذلك تلميذ جمال الدين الأول . فكان خطر جمال الدين أهون عليهم من خطر هذا التلميذ . وهم يكلون إليه تعليم المعلمين !

أي مكان أسلم – أسلم للحكومة الخديوية – تضع فيه المدرس المعزول من وظيفة التدريس للمعلمين ؟

إن السؤال عن المكان المأمون الذي يشغله هذا الفتى الريفى قد أصبح فى تلك الآونة شغلا للدولة تعنى به مع عنايتها بكل مكان تتوقع منه الخطر على وجودها ، ولم يمض على هذا الفتى الريفى فى الثلاثين من عمره سنتان ، أو سنوات ثلاث ، فى الحياة العامة حتى أصبح فى رأي الدولة واحداً من آحاد معدودين يحسب لهم حسابهم عند كل حركة من حركاتهم ، بل كل نية تحسها الدولة من نياتهم !

نعم . إنه فى حالته وبيئته و «مؤهلاته» التقليدية واحد من عدة آلاف لايعرف لهم اسم ولايحسب لهم حساب ، ولكنه فى نفسه ، أو فى هموم نفسه وآمالها ، واحد لا ثانى له من غراره ، وإن يكن فى توقع الخطر منه واحداً من بضعة آحاد معدودين ، خارج الوظائف والدواوين .

ولقد عزل من وظيفة التدريس بدار العلوم وهو عالم من علماء الأزهر ، فإذا كان تعليمه هو الخطر المحذور فهو عائد إلى التعليم فى مدرسة أكبر باتساعها وأخطر بقدوتها من دار العلوم ، وهي الجامعة الأزهرية مالم تشغله عنها وظيفة يرضاها . وقد أخذ فى ذلك الحين ينشر مقالاته فى الصحف ويجمع حوله طائفة من قراء أدبه والمعجبين بآرائه ، فإذا خلي بينه وبين الصحافة فمن ذا يعلم العاقبة المنتظرة بعد قليل ؟ وماذا يمنع أن تتيح له الظروف لساناً من ألسنة الصحافة السيارة يستقل به ويملي منه دروسه التى حيل دون إملائها بين الجدران فى دار العلوم ؟

إن التحرير عمل يناسبه ، فليكن إذن محرراً فى صحيفة الحكومة بين سمعها وبصرها ، وليؤخذ عليه سبيل التدريس فى الأزهر والكتابة فى الصحافة السيارة ، بعمل يعجبه فى ظاهره ويحد من نشاطه المحذور فى باطنه ، وهو تحرير الوقائع المصرية : تحرير الصحيفة التى يدل اسمها عليها ، وهو نشر الوقائع الرسمية .

لو قال قائل إن هذا الإنسان خلقة مجبولة للتعليم . وان رمق الحياة ورمق التعليم فيها شيء واحد ، لما وصل إلى حدود الإغراق الذي تبيحه المبالغة للمبالغ فى مثل هذا المقام .

فإنه عزل من مدرسة التعليم للمعلمين ليلحق بمكان يقال فيه بحق إنه آخر مكان ينتظر منه إلقاء الدروس . وإنه المكان الذى لا يقع فى أن الدروس تلقى منه على الأمة وعلى الحكومة . وهما على أبواب ثورة قلما تجمعهما على وفاق .

ولكن صحيفة الوقائع الرسمية تحولت على يد هذا المحرر «الرسمي» إلى منبر لنشر الدعوة وإعلان الشكوى . وإسماع الحكومة ماتريد أن تسمعه وما لاتريد أن أن يسمع بحال ، وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ما كان قائله لو تكلم فى حلقات الأزهر أو على منصة التدريس بدار العلوم .

ولاتتسع هذه المناسبة لأكثر من الإشارة إلى عناوين بعض المقالات التى نشرها للناس باسم الوقائع الرسمية . ومنها مقال فى انتقاد التعليم بوزارة المعارف . ومقال عن التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية . ومقال فى الحملة على الرشوة . ومقال فى الإلحاء على البدع التى تصدر من نظارة الأوقاف . ومقال عن تأثير التعليم فى العقيدة . ومقال عن الشورى وآخر عن اختلاف القوانين باختلاف الأمم . وآخر عن الملكات والعادات . وآخر عن تعدد الزوجات . وآخر عن إسراف الفلاح وضرر الديون وغيرها قرابة أربعين مقالا . أو أربعين درساً . فى أمثال الشئون القومية التى يتجه فيها الخطاب إلى الأمة والحكومة . وتلام فيها كلتاهما بمقدار حقها من الملام .

ولم يهمل شأن الأزهر وهو يتكلم عن إصلاح التعليم ويتصل برئيس الوزارة بحكم وظيفته فى الصحيفة الرسمية . فكل ماعملته الوزارة الرياضية من أعمال الإصلاح وتنظيم الإدارة بالأزهر فإنما على علم منه بمشورته وبفضل وساطته بين الحكومة وعلمائه . ولكن الثورة العرابية شغلت علماء الأزهر يومئذ عن مسائل التعليم والإدارة وضمت الكثيرين منهم إلى جانب الثائرين فى وجه الخديو بعد انضمامه إلى السلطة الأجنبية . وكان الشيخ محمد عبده أحد العلماء الذين كانوا

يأخذون العهد والقسم من الثائرين على الإخلاص والأمانة . وجوزي على ذلك بالنفي إلى خارج الديار ثلاث سنوات امتدت إلى سبع سنوات . ولم ينقذه من حكم الموت إلا تلك الصلة القديمة التي سبقت له مع الوزارة الرياضية .

* * *

وعاد إلى الاتصال بالأزهر على أثر عودته من منفاه . ولكنه حيل بينه وبين الانقطاع للتدريس فيه بإسناد الوظائف المختلفة إليه . وكانت أول مشاركة له في وظائفه تعيينه عضواً بمجلس إدارته (سنة ١٨٩٤) ثم تعززت مكانته الرسمية بولايته منصب الإفتاء بعد ذلك بخمس سنوات . وكان وجود مثله عضواً بمجلس الإدارة كافياً لإخراج الفتوى القديمة – فتوى الشيخ الإنبابي – من حيز القول المهمل إلى حيز العمل الفعال . ولكن قيامه على منصب الإفتاء رجع بالفتوى إلى صاحبها وأغنى العاملين على الإصلاح داخل الأزهر وخارجه عن مهمة التوفيق بين الوعد والإنجاز ، وبين النية والتنفيذ .

* * *

وقد كان في وسع الشيخ محمد عبده وأعوانه الثقات أن ينجزوا في ثلاث سنوات . أو أربع سنوات . ماستغرق إنجازه منهم أكثر من عشرسنين ، وهي المدة التي أشرف فيها الشيخ محمد عبده بشخصه على إدارة الأزهر ، منذ تعيينه عضواً بمجلس الإدارة إلى استقالته من منصب الإفتاء . ولكنه آثر أن يتمهل اختياراً لتسويغ الانتقال من القديم إلى الجديد في نفوس أنصار القديم المتشبثين ببقائه بين الموافقة باللسان والمراوغة في التنفيذ . واضطر في كثير من الأحيان إلى التمهل اضطراراً لتراجع ولي الأمر – الخديو عباس الثاني وحاشيته – في وعودهم . وعدولهم عن العمل على التغيير الصريح إلى مراوغة كمراوغة الشيوخ الجامدين بين الموافقة اللسانية والتعويق في التنفيذ . ولكن دعاة الإصلاح تمكنوا – مع هذه التعويقات – من إقامة الأسس التي يصعب على المعارضين أن يهدموها بعد إقامتها . وكان عملهم مدى السنين العشر أعظم مما يتسع له هذا

الأمد القصير بالقياس إلى القرون المتوالية التي تم تبديلها في خلالها . بعد الشروع فيه والعدول عنه واستمرار الدعوة إليه أعواماً إثر أعوام .

ويطول بنا بيان التشريعات والإجراءات الإدارية التي تقضي المراسم الضرورية باستصدارها قبل كل خطوة تخطو في تغيير شيء من القديم واعتماد شيء من الجديد . ولكن المقارنة السريعة بين ما كان عليه الأزهر في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وما صار إليه في مطلع هذا القرن العشرين هي الأثر العملي المحسوس لجميع تلك التشريعات والإجراءات في حيز التقرير والتنفيذ .

كانت سيئات الإدارة لاتحصى . وكانت حسناتها القليلة تجري – إذا جرت – عفواً على غير نظام .

كان مشايخ الأزهر يوزعون المرتبات والجرايات على غير قاعدة مرعية . حسبما يتجمع عندهم من محاصيل الأوقاف المحبوسة على أتباع المذاهب أو على أبناء الأقاليم . فربما هبطت مكافأة العالم في الشهر إلى مادون العشرين قرشاً أو ارتفعت إلى بضعة جنيهات . ولاضمان لعودتها في السنة التالية إذا تغير الشيوخ واختلف حساب الأوقاف واختلف معه حساب توزيعها بين الشيوخ والمقدمين على الأروقة والأقسام .

وكان شأن كساوى التشريفة كشأن المرتبات والجرايات . يختص بها الشيخ الأكبر من يشاء من أبناء مذهبه أو إقليمه أو خاصة أشياعه ومريديه . ولا وجه لمراجعته أو الاحتجاج عليه عند هيئة مسموعة الكلمة في الجامع أو عند ولاة الأمور من الولاة والوزراء .

ولا ينتظر في مثل هذه الحالة أن يجري عمل المدرسين والطلاب على وتيرة مطردة أو تجري رقابة التدريس كله على مبدأ معروف . فمن شاء من الأساتذة أو التلاميذ حضر حلقات الدرس ومن شاء منهم غاب عنها ولم يسأل عن حضوره أو غيابه . وليس للعمل أو للإجازة أو الامتحان موعد مقرر في سنة من السنين . فإذا قيد الطالب اسمه بين مستحقي الجراية أو السكن بأروقة الجامع فقد يحسب

من طلابه إلى أن يتجاوز الستين ولاتنقطع جرايته مادام من المرضيِّ عنهم بين شيعة صاحب الرواق .

وكانت العلوم الحديثة محرمة لاتدرس ولايرضى عن طلابها فى غير الحلقات الأزهرية . وكانت علوم السلف التى تنسب إلى الفلاسفة أو المعتزلة قرينة بتهمة الكفر والزندقة . ومن اشتغل بها معلماً أو متعلماً فسبيله أن يعتزل الجماعة خفية . . ولا سلامة له باعتزالهم جهرة على سنة الأقدمين ممن اشتهروا بالاعتزال .

وكانت تدبيرات الصحة مهملة . بل كادت أن تكون ممنوعة . لقلة اطمئنان العلماء الجامدين إلى المواد التى تستخدم للتعقيم والتطعيم . بل قلة اطمئنانهم إلى أقوال الأطباء فى عدوى الجراثيم .ولولا أن النظافة أدب من آداب الإسلام لما تقبل القائمون على إدارة الجامع عملا من أعمال الوقاية فى أزمنة الوباء . غير الأمر بإغلاق الجامع ووقف الشعائر والدروس فى أوقته . وهو الأمر الذي يتحرج منه المسئولون ويحتالون له بمختلف الحيل كلما استطاعوا أن يتجنبوه بالإعلان الصريح .

وتبدل ذلك كله فى سنوات قلائل . وأول ماتبدل منه أمر العناية بالتدبيرات الصحية . فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج طلابه والكشف عليهم بالمجان .

ولم يكن باليسير تنظيم أعمال التدريس بغير تنظيم أوقات العمل والمرتبات . إذ لم يكن للأزهر مورد محصور عند المراجع الرسمية . يصرف منه على المرتبات الكافية لمدرسيه المعتمدين . فسعى الشيخ محمد عبده عند الوزارة لتخصيص مبلغ من ميزانية الدولة تنفق منه على الدراسة فى الأزهر . وكانت حجة الشيخ على المستشار المالي الانجليزي – الذي كانت له الرقابة على الميزانية أن الأزهر يخرج الموظفين لدواوين الحكومة من القضاة الشرعيين . فالإنفاق عليه واجب حكومي كالإنفاق على مدارس الحقوق والشرطة والمعلمين . وواصل الشيخ سعيه عند ديوان الأوقاف حتى أرصدت فى ميزانيته مبالغ سنوية للجامعة الأزهرية . وكان من فتواه للديوان أن هذا المصرف جائز . بل مفروض على الديوان . فى

مقدمة مصارفه الخيرية : وأولها الصرف على تعليم الدين وإعداد الوعاظ والأئمة للمساجد التى تقام فيها الصلوات الجامعة . فتوافر للأزهر مدد من ميزانية الحكومة وميزانية الأوقاف يكفى لتنظيم التدريس ورفع المرتبات إلى مستواه اللائق بطبقة العلماء . وأقله فى مبدأ الأمر لا يقل عن اثنى عشر جنيهاً مشاهرة . عدا الإعانات المرصدة من بعض الأوقاف الخاصة . ومنها أوقاف السكن والجراية .

وتقرر تدريس العلوم الحديثة مع الترغيب فيها بالمكافأة الحسنة . والترشيح لوظائف القضاء والتعليم .

إن المصاعب التى وجب تذليلها لوضع هذا التغيير موضع التنفيذ أطول شرحاً من وجوه الاصلاح بكل ماقتضاه بحثها وترتيبها والمضى فى تنفيذ قوانينها وإجراءاتها . ولكن القارىء الذي لم ينهد ذلك العهد قد يتمثلها أمامه كلما تذكر الموانع التى كانت تعترض هذا التغيير . وتذكر القوى الظاهرة والخفية التى كانت تدعم تلك الموانع وماتستطيع أن تثيره من زوابع القلق والسخط فى أنحاء العالم الإسلامى بما رحب . فضلا عن جوانب الأزهر وجوانب المدينة المصرية . والقرية المصرية . التى عرفنا علاقتها المتأصلة بذلك المسجد العتيق .

من تلك الموانع منافع الشيوخ الذين رفعت أيديهم عن موارد الأوقاف . وامتنع عليهم جاه التصرف بكساوى التشريف ومنازل العلماء فى المجتمع وعند ولاة الأمور .

ومن تلك الموانع لبانات المقدمين على الأروقة وأهواؤهم التى انقضى زمانها بانقضاء زمان التحكم فى الجرايات والمساكن والطلاب والعلماء .

ومنها جاه العلم الذي ضاع على زمرة « السلفيين » الجامدين بعد أن حفظوه لأنفسهم دون « الدخلاء » عليهم من رجال العلوم الدينية والعلوم « الدنيوية » على السواء .

ومنها جيوش الطلاب والمتطلعين إلى الطلب ممن أحسوا وعورة الطريق بعد

اقترابهم من نهايتها الميسرة لهم على « النظام » القديم . وقد يزيد عليهم فى العدد طلاب « الجراية » والمسكن بغير أمل فى نهاية قط على نظام قديم أو جديد .

ومنها قسوة الجهل المطبق والظن السيئ فى عقول الدهماء الذين سمعوا من « الأئمة » المصدقين أن القول بدوران الأرض كفر براح . وإن معلم الجغرافية مسخر من أعداء الدين ليعلم أبناء المسلمين أنها كرة مستديرة دوارة فى الفضاء . وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات . . . لأن القول بالطبيعة إنكار لوجود الله وإثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخلاق .

ومنها ولعله يجمعها بحذافيرها ، سلطان ولي الأمر إذ أدرك بعد حين أن الإصلاح قد قوّت عليه سلطانه وفوت عليه الغنيمة التى يجنيها لنفسه ويغدق منها الأجور على خدامه وحواشيه .

* * *

ونقول إن مناوأة الأمير لحركة الإصلاح الأزهرية تجمع تلك الموانع والعراقيل بحذافيرها اعتباراً بما عهدناه من أساليب الأمراء والملوك فى اضطهاد المصلحين من رعاياهم كلما وقع الصدام بين أرباب التيجان ودعاة الإصلاح منذ أقدم العصور . فإن الملوك والأمراء الذين يضيقون ذرعاً بدعوات الإصلاح قد جرت عادتهم قديماً باستفزاز رعاياهم واستثارة الجهلاء والمغرضين على قادة الرأي فيهم ، لمداراة سلطتهم وإخفاء مكيدتهم وتمويه سياستهم على الناس ، كي يتقبلوها منهم كأنها استجابة لرجائهم وتلبية لمطالبهم وغيرة على عقائدهم وشعائرهم . فيحمدهم الناس على شرورهم وهم أحرى أن يضاعفوا لهم المقت بما أصابوا من أفهامهم وعقائدهم فوق مصابهم فى المصالح والأرزاق . وقد كان الملوك والأمراء يخدعون شعوبهم هذه الخديعة وهم وحدهم فى بلادهم منفردون بسلطة الحكم وجاه الولاية ، فأما الخديو عباس الثانى فقد كانت معه سلطة أخرى فى بلاده أقوى منه وأقدر على كبحه والحد من مآربه وأطماعه ، فكانت حاجته إلى استثارة الجهلاء باسم الدين تزيد على حاجة أسلافه من أهل بيته

وحاجة الأسبقين من زملائه فى أساليب الاضطهاد . وقد أسفّ غاية الإسفاف . وتبذّل غاية التبذل فلم يدع وسيلة يدرك بها مآربه لم يتوسل بها غير مبال بما يعقبها من الأثر على سمعته وسمعة وطنه . بل على سمعة دينه البريء مما يفتريه عليه وعلى أهله . ولم يتورع – وهو أمير البلاد – عن التحريض على إثارة الشغب بين طلاب الأزهر وخدمته وعماله . ولاعن تسخير الصحف التى تتجر بنهش الأعراض والمساومة على الفضائح والوشايات للافتراء على مخالفيه وهو أعلم الناس بتزاهتهم عما يدعيه . وخلع نقاب الحياء فلم يتورع عن اتهام الإسلام والمسلمين بكراهة العلم الحديث وتصوير العلوم التى أدخلها المفتى إلى الأزهر فى صورة الجناية على الدين . ولم يبال أن يعلنها حرباً دينية بين الكفر والإسلام . إذا تأتى له بذلك أن يقصى الشيخ محمد عبده وكبار الموظفين من أعوانه عن إدارة الأزهر كما يقصيهم عن الإفتاء وديوان الأوقاف . بل تطوع بالوقوف تحت العلم البريطانى لاستعراض جيش الاحتلال . لعله يضمن بذلك أن يكف يد العميد البريطانى عن معارضته فيما يتعلق من تلك المسألة بالميزانية ونظام الدواوين !

* * *

ومن البديهي أن الخديو قد عول على الدسيسة الخفية فى تدبير هذه الحملة الواسعة على المفتى وأعوانه بمجلس الإدارة ومجلس الأوقاف الأعلى . ولكن الدسيسة التى يتآمر عليها عشرات من المغرضين والجامدين والمأجورين لا تكتم عن الناس فى أوانها وإن جازت فيها المغالطة أو المكابرة بين أنصارها وخصومها . إلا أن التاريخ قد ينفض يديه من دسائس هذه الفترة جميعاً ولا يحتفظ بشيء من أخبارها غير مراسيم الخديو وخطبه المنشورة التى ألقاها فى قصره . ولا حاجة بالمؤرخ إلى بيان للدسيسة كلها أوضح من بيانها . . فإنها ناطقة بدعواها الظاهرة عن مكيدتها الخفية . ودعواها الظاهرة أن تدريس العلوم الحديثة فى الجامعة الأزهرية خطر على الإسلام . وإن المفتى وأعوانه قد أبعدوا من مناصبهم لأنهم يصرون على تدريس تلك العلوم .

قال الخديو فى الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الجديد .

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين الحنيق فى مصر وجميع الأقطار الإسلامية ..وأول شئ أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر الشريف . والشغب بعيداً عنه . فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار . لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شئ »

وقد صدرت المراسم بعد خروج الشيخ محمد عبده باختيار شيخين من الحزب القديم لأكبر المناصب الدينية . وهنا منصب الإفتاء ومنصب مشيخة الأزهر . فعين الشيخ عبد القادر الرافعي مفتياً للديار وعين الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخاً للجامع الأزهر .فأما المفتى فقد توفى على أثر تعيينه فلم يؤثر عنه عمل ولاقول فى برنامج التعليم الذي يرتضيه رجال العهد الجديد . وأما شيخ الجامع الأزهر فقد صرح برأيه فى حديث نشرته صحيفة الجوائب المصرية (١٣ مارس سنة ١٩٠٥) فقال عن رأيه فى الغرض من إنشاء الأزهر :

« إن غرض السلف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويؤخذ فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم . وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ولايزال يؤديها فهي حفظ الدين لاغير . وماسوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له » .

ثم قال عن إصلاح التعليم : « إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فيه ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره فى هذا البلد وغيره من البلاد الإسلامية . وإنى أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة فى الأزهر . ولكنى لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى فى ربوعه » .

ثم قرن بين حركة الإصلاح والسياسة فقال : « إنى رأيت الكثيرين من

إخوانى خدمة العلم فى منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة » .

* * *

وهذا هو شرط « الأزهر » الصالح فى عرف المشيخة التى اختارها ولي الأمرلتعتدل به من طريق الزيغ والشغب إلى طريق الإيمان والأمان !

معهد يستبد ولي الأمر بإدارته وتعليمه ليستخدم سمعته الدينية فى تعزيز سلطانه وتوفير ثروته ، ثم يكل المشيخة فيه إلى أناس يريدونه فى القرن العشرين مدرسة كبرى لاتعرف شيئاً عن علوم « الأعصر » ولاتدري شيئاً عن الدنيا والديوان ، لأن كل شيء عن الدنيا والديوان إنما هو سياسة تترك لولي الأمر ولا يحسن برجل الدين أن يعرض لها من قريب أو بعيد !

ومن تمام العلم بهذه السياسة التى نعاها الشيخ الصالح على المفتى وأصحابه أن نذكر أنها سياسة فى صميم العمل الأزهري . لأنها سياسة الحاكم الشرعية ومساجد العبادة والتدريس ، وقد كانت من صميم السياسة التى أدخلها المفتى فى برنامج الإصلاح بعد ولاية الإفتاء ، وعلى أساسها تم الإصلاح اليسير الذي سمحت به الأحوال بعد ذلك بسنوات . ولكنه لم يسلم قط من دسائس الخديو وحلفائه فى دور التعليم وفى دور التوظيف ، فقد كان من أصعب الأمور تخريج قضاة يحكمون فى المواريث ويبرمون العقود والمواثيق وينظرون فى مشكلات الأسرة والوصاية على التركات وهم لايعرفون شيئاً عن الحساب والرياضة وعن نظم الإدارة وتقاليد الدواوين ، وكان أصعب من ذلك حرمان طلاب الأزهر من وظائف المحاكم الشرعية قضائية وكتابية وهم ألوف يتخرجون بلا عمل ولايستعدون بتعليمهم الأول لوظائف التدريس فى المدارس الأميرية أو الأهلية . وقد كان الخديو أشد المعارضين لإنشاء المدرسة الخاصة التى يتخرج منها القضاة الشرعيون ، ولكنه كان لايبالي أن يعلن الوعد بإنشائها على حدة يوم كانت المسألة عنده مسألة الحملة على تدريس العلوم العصرية فى الأزهر . فقال فى خطابه الذي تقدم ذكره عن تاريخ القضاة الشرعيين : « إنه ستنشأ له مدرسة مستقلة

يقصدها كل من يحصل على شهادة العالمية فى الأزهر ويريد التوظف فى القضاء » .

وبهذا الوعد الذي أعلنه وهو ينوي المراوغة فيه خيل إليه أنه يسكت طلاب الأزهر وعلماءه عن تحريم العلوم وعن تخريج القضاة والموظفين الشرعيين من مدرسة خاصة ، غير الجامعة الأزهرية !

أما إصلاح المساجد فقد كان مشروعاً من مشروعات الإصلاح الكثيرة التى عنى بها ذلك الرجل المغضوب عليه . لأنه لايترك موضعاً للإصلاح يمكان يستبد فيه إليه عمل ، ولو كان من أعمال الاستشارة والمراجعة .

كان المفتى بحكم وظيفته عضواً فى المجلس الأعلى للديوان الأوقاف ، ومن عملها الإشراف على مساجد العبادة والتعليم فى الأقاليم . فكان أول مانظر فيه إنشاء إدارة مستقلة بالديوان تسمى إدارة المساجد وتتخصص لتعيين الأئمة والمدرسين فى مساجد المدن والقرى التى تتسع لإلقاء الدروس على مثال الدروس العصرية بالجامعة الأزهرية ، ولزم من ذلك أن ترصد النفقات لتدبير الوسائل الصحية فى المساجد ومايلحق بها من أماكن الوضوء ، وأن يختار الأئمة من العلماء الازهريين الذين يصلحون للخطابة والتعليم ونشر التربية العصرية من طريق الوعظ والإرشاد . وأن ترفع مكافآت الأئمة والوعاظ من جنيه واحد أو جنيهين فى الشهر إلى المرتب الذي يناسب طبقة العلماء والمدرسين ، واشتمل التقرير المتقدم إلى المجلس الأعلى بديوان الأوقاف على تفاصيل لهذه اللائحة — لائحة المساجد — تبسط الغاية من هذا المشروع لولاة الأمور ، وهي تزويد البلاد بقوة من قوى التربية الاجتماعية واليقظة الوطنية ، تحقق للأمة مقصداً لايقل فى أثره الواسع عن أثر المدارس والجامعات .

ولو كتب لهذا المشروع أن ينفذ على الوجه الأمثل لخلق تلك العناية فى مدى سنوات . ولكنه لم يكد ينتهي إلى علم الخديو قبل عرضه على المجلس الأعلى . حتى تحركت دواليب الدسيسة لإحباطه والتشهير به فى كل مكان . ولم يكن من السهل أن يجترئ أحد على التشهير بمشروع كهذا المشروع لايختلف فى نفعه

رأيان . ولكن الحجة التى لايسندها الرأي قد تسندها حروف المواثيق المطوية فى أضابير الديوان . وليس فى تلك المواثيق نص على المباخر الصحية ولا على دروس التربية الاجتماعية . وليس لكل مسجد وقف محبوس عليه يكفى لمرتب الإمام العالم وتكاليف الدراسة العامة . وقد يجهز للناظر على الأوقاف عامة أن يرصد تكاليفها جملة ولايفرقها أجزاء ينفصل بعضها عن بعض بإدارته والإشراف عليه . ويجوز له أن يتمم النفقة على المسجد بالنفقة على سائر الخيرات التى لم يقيدها الواقفون بوجه من وجوه الانفاق غير وجوه الإحسان . ولكن الناظر العام على الأوقاف يصنع ذلك إذا كان من همه أن يصنع الخير حيثما السبيل وجد إليه . ولكنه يقف عند كل حرف من حروف الحجج المطوية إذا كان من همه غير ذلك أو كان من همه — على عكس ذلك — أن يغلق الباب دون كل مشروع من هذه المشروعات العامة تتحول إليه مصارف الأوقاف وتخرج بذلك من قبضة يديه . وقد كان القاضى الأكبر فى القاهرة لذلك الحين يتولى منصبه بالإرادة السلطانية من دار الخلافة العثمانية وكان ينقم على المفتى رأيه فى استقلال مصر عن السيادة التركية . وينقم عليه فوق ذلك مكانته فى البلاد الإسلامية وهو فى رأي نفسه أولى بتلك المكانة من مفتى القاهرة التابعة لمقر الخلافة فى الآستانة ، فلم يكن أيسر من حمله على الحكم بمخالفة المشروع لشروط النظارة واحتجاجه على تنفيذه بغير إذن من صاحب الولاية الشرعية . ولم تكن شئون المساجد مما يعرض على الوكالة البريطانية لأنها من صميم المسائل الدينية التى تعهدت باجتناب المساس بها فيما أعلنته من سياستها العامة . ولكن ولي الأمر الشرعي أرسل اللائحة إلى دار الوكالة ، ثم أبلغها احتجاج القاضى الأكبر عليها . وأراد مرة أخرى أن يأباه الدين ويخشى أن يعرضه لاستنكار دار الخلافة وتدخل الوكالة البريطانية . !

* * *

أما الرجل المغضوب عليه لأنه مصاب بداء الإصلاح . . فقد لاحقه ذلك الداء العضال إلى عقر داره بعين شمس . ففارق الجامعة الأزهرية وهو يفكر فى

خطته الأولى التى اقترحها على أستاذه السيد جمال الدين فى مقتبل صباه . وراح يعد العدة لافتتاح مدرسته إلى جوار بيته لتخريج الدعاة ورسل الإصلاح ممن يتقبل دعوته ويؤمن بمقاصده . وتمت العدة لذلك . أوكادت . لو لم تدركه المنية قبل موسم العمل . فقضى نحبه صيف ذلك العام بعد اعتزاله إدارة الأزهر بثلاثة شهور .

عباس الثانى

في سيرة محمد عبده شخصان مهان كان لكل منهما أثر كبير يفرد بالكتابة عنه فى تاريخ حياته العملية : هما جمال الدين الأفغانى وقد تقدم الكلام على أثر التعاون بينهما فى دعوة الإصلاح وحركة النهضة . وعباس حلمي الثانى خديو مصر بعد الاحتلال البريطانى . وسنقصر الكلام عليه فى هذا الفصل ملتزمين فيه ما يستطاع من الإيجاز .

كان جمال الدين مثلا للقوة المؤيدة الموجبة . وكان عباس الثانى مثلا للقوة المعطلة السالبة : أولاهما قوة روحية مستمدة من عظمة الأستاذ وعظمة تلميذه فى وقت واحد . وثانيتهما قوة مادية مستمدة من سلطان المنصب وظروف السياسة . يكاد الذكاء فى صاحبها أن يكون لغواً لايذكر فيما يعنينا من هذه السيرة . لأنه لايقدم ولايؤخر فى مركز الحكم الذي يستعين به الحاكم على المقاومة والتعطيل . فكل حاكم فى مركز عباس الثانى كان مستطيعاً أن يصنع ماصنعه فى خصومته للأستاذ الإمام .

* * *

جلس عباس حلمي على الأريكة الخديوية بعد أبيه « محمد توفيق » خديو الثورة العرابية . وبعد جده إسماعيل الذى عزلته دول الرقابة الثنائية – إنجلترا وفرنسا – بموافقة السلطان العثمانى صاحب السيادة الشرعية على البلاد .

وكان دون الثامنة عشرة حين توفى أبوه . فوجب أن تفرض عليه الوصاية إلى أن يبلغ سن الولاية . وكان السلطان العثمانى هو « صاحب الاختصاص » باختيار الوصى أو الأوصياء . ولكن المحتلين تدخلوا فى الأمر واحتالوا على اتقاء هذا الإشراف الفعلي على الدولة المصرية . فحسبوا السنين بالحساب الهجرى رعاية لدين الأمير ودين الخليفة . واتخذت الأزمة على هذا النحو حلا يرضاه

الأمير ويبغضه . لأنه يعفيه من الوصاية ويثبت له غلبه ..ذ البريطاني على شؤون السياسة العليا في بلاده .

جلس على عرشه وهو مقسم النفس بين هذين الشعورين . ولكنهما في الواقع ينتهيان إلى شعور واحد بسطوة الاحتلال وافتياته على حقوقه وحقوق الدولة التي يتلقى أمر التعيين « بفرماناتها الشاهانية » .

وملكته حماسة السن بين الحذر والاندفاع فغلبت في نفسه الفنية نزعة التحدي على نزعة الحذر . وواجه المحتلين بالمعارضة التي لم يألفوها من أبيه بعد اعترافه لهم بحماية عرشه . فأقبل عليه أنصار الحركة الوطنية من المتطرفين والمعتدلين . وحف به أبناء الجيل الجديد من أنداده في السن ومن الشبان الذين يكبرونه سناً ولكنهم لم يشهدوا صدمة الاحتلال ولم يحتملوا خيبة الثورة العرابية .

وكان للأمير الشاب رأي صائب في الثورة العرابية وفي مسلك أبيه معها ومع المحتلين .

كان بطبيعة الحال ينفر من الثوار ويسميهم بالعصاة كما يسميهم جميع أبناء بيته . ولكنه كان يتقبل العذر من بعضهم لأنه كان لايبرئ أباه من بعض الخطأ ومن بعض الضعف في علاج الثورة وعلاج الأزمات الأجنبية . وكثيراً ماسمع في بداءة حكمه وهو يسخر من أبيه تلك السخرية التي عابها عليه لورد كرومر في كتابه عنه . ويقول لمحدثيه : سامح الله الوالد الطيب . لو كنت في مكانه لما فعلت هذا .. أو لو كنت في مكانه لما سمحت نفسي بذلك !

ورأيه هذا في أبيه هو الذي أنساه ممالأة الشيخ محمد عبده للثورة في دورها الأخير ورغبته في الاطلاع على تاريخ لتلك الثورة يكتبه رجل يعرف أخطاء الثوار ويعرف أخطاء ولي الأمر . عسى أن يستفيد لنفسه من تجربة الحوادث التي عرضت أباه للثورة وعرضته وعرضت الثوار معه لكارثة الاحتلال .

وفي إحدى المقابلات التي لم تكن قليلة بينه وبين الشيخ محمد عبده شكا الأمير للشيخ مايلقاه من عنت المحتلين وحجرهم عليه وعلى وزرائه ووقوفهم دون

مايرجوه لبلده من الخير والقوة . فاغتنم الشيخ هذه الفرصة السانحة وذكره بما يستطيعه من أسباب الخير والقوة معاً في المعاهد التي له الولاية عليها ولا ولاية عليها للمحتلين . وهي معاهد الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . فراقه حديث الشيخ وكلفه أن يعود إليه بشرح مستفيض لوجوه الإصلاح المطلوب . وانتقل برنامج الإصلاح فعلا من تلك الفتوى المهملة — فتوى الشيخ الإنبابي — إلى العمل الحثيث على تنفيذ مطالب الإصلاح الأزهري في الإدارة والتعليم . ومضى العاملون في عملهم الناجح بضع سنوات . تغيرت فيها سياسة الخديو مع المحتلين . فلقي منه المصلحون شر مايلقاه دعاة التقدم من دعاة النكسة والجمود .

وتبين بعد الوقعة الكبرى بين عباس الثاني والمحتلين أن النزاع كله فيما بينهم إنما كان نزاعاً على نفوذ الحكم ولم يكن نزاعاً على حقوق الأمة ولا على مبادئ القضية الوطنية . وأن عباساً كتوفيق . و إسماعيل من قبله . ينازعون السيطرة الأجنبية باسم الأمة تارة واسم الحقوق الدستورية تارة أخرى ولايعنيهم في الواقع إلا أن يستبدلوا سيطرة في أيديهم بسيطرة في أيدي الدول الأجنبية . ومن طلب منهم الحكم النيابي وشجع الأحرار من رعيته على طلبه فإنما يتخذ الحكم النيابي حجة على الدولة البريطانية عند شعوبها لأنها تؤمن به في بلادها . ويلتمس من وراء ذلك أن يحكم من وراء النواب والوزراء ويستعيد لنفسه كل سلطانه المحدود . أو يستعيد القليل من الكثير في مسائل التولية والعزل ومسائل الصرف والمنع على الخصوص .

وقد جرب طلاب الدستور أساليب إسماعيل وتوفيق في هذه المناورات ثم جربوا أساليب عباس بعدهما فتكشف لهم عن ولع بالاستبداد في عباس لم يتكشف لهم مثله من أبيه وجده . لأنه لم يكد يظفر بقليل من السلطان على عهد سياسة الوفاق بعد عزل لورد كرومر حتى انقلب على شيعته وشيعة الحركة الدستورية . فساقهم إلى السجن واحداً بعد واحد . ثم ألجأهم إلى المنفى باختيارهم فراراً من السجن والمصادرة .

ولاح له شبح العزل بعد الوقعة الكبرى بينه وبين المحتلين فقنع بالقليل الميسور ، واستعاض عن وفرة السلطان بوفرة المال يتهافت عليه حيثما وجد السبيل إليه ، بل ظهر للأمة قصارى أمله من المحتلين بتسمية الحزب الذي ينتمي إليه ويرصد صحيفته للدفاع عنه فى جميع أطواره وتقلباته . . فقد سماه « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية » إيذاناً للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الإصلاح والقناعة منهم بالمبادئ الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ولم تذكر فى عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ولا عن الحرية الوطنية كأنهما على الأقل مطلب مؤجل إلى مابعد الفراغ من إصلاح الأداة الحكومية الذي ارتهن به المحتلون موعد الجلاء . . فلا جلاء إذن وفى الأداة الحكومية خلل يأخذونه ويدعون على هواهم أنه لايزال بحاجة إلى الإصلاح .

* * *

وقد أشرنا إلى الوقعة الكبري التى كانت نقطة التحول فى سياسة الخديو عباس الثانى مع المحتلين ، فنذكر فى هذا السياق أنها هي الحادثة التى اشتهرت بحادثة الحدود واصطدم فيها الخديو بسردار الجيش المصري – الجنرال كتشنر المشهور – لأنه صرح للسردار بانتقاده لحركات الفرق العسكرية ووجه انتقاده – على الأكثر – إلى الفرق التى يقودها الضباط الإنجليز – فاستقال السردار وطلبت الوكالة البريطانية ترتضيه ، واضطر الخديو إلى استرداد كلماته وتوجيه ثنائه إلى الفرق التى أعلن انتقادها عند عرض الجيش على الحدود ، ففعل راغماً وهو يعتقد أنه نجا من خطر العزل بقبول هذا الإرغام .

حدث هذا فى أوائل سنة ١٨٩٤ . . وقبل نهاية السنة كان الشيخ محمد عبده على اتصال بالخديو يزوره فى قصر عابدين – مقر العمل الرسمي – تارة ويدعى لزيارته أحياناً فى قصري القبة والمنتزه حيث يقضى سائر أوقاته فى أعماله غير الرسمية . وكان يصحبه فى مبدأ هذا الاتصال محمد ماهر باشا الذي كان يدعى يومئذ ببطل حادثة الحدود ، لأنه كان وكيلا لنظارة الحربية وكان على نزاع دائم مع السردار حول اختصاص الوكيل والقائد العام فى شؤون الجيش وإدارة

الإستعلامات السرية . وقد اصطحبه الخديو فى رحلته إلى الحدود وشاع بعد ذلك أن الجنرال كتشنر تعمد خلق الأزمة والتهويل فيها لأنه غضب من اصطحاب الخديو لخصمه واعتبره انتصاراً له عليه . . فبيت النية على خلق الأزمة التى تزج بالدولة البريطانية فى الخلاف بينه وبين الوكيل والتسليم له بالرأي النافذ فى الجيش وفى ديوان الوزارة .

قال « أحمد شفيق باشا » فى مذكراته وهو من رجال الحاشية الخديوية وكان فى صحبة الخديو أثناء هذه الرحلة : « ترجع حركة الإصلاح الحديثة فى الأزهر إلى أواخر سنة ١٨٩٤ . وذلك أن الشيخ محمد عبده لما رأى من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الإنجليز مال إليه وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا . فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال إليه أيضاً لما أنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى . وتقابلا مراراً بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه . وتحدثا فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق أمانيه . فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الإنجليز ولا يعارضون الخديو فى العمل لاصلاحها لأنها دينية محضة . وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . وأشار على سموه أن يبدأ بإصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم الشيخ إلى سموه مذكرة بما يراه من وجوه الإصلاح » .

وكتب الشيخ محمد عبده المذكرة وانتهى البحث فيها إلى تأليف مجلس الإدارة من خمسة أعضاء . ثلاثة منهم هم أكبر علماء المذاهب فى الأزهر وهم : الشيخ سليم البشري المالكي والشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعي والشيخ يوسف الحنبلي . والعضوان الآخران هما الشيخ عبدالكريم سلمان والشيخ محمد عبده من العلماء المعينين لوظائف الحكومة .

ولكن الشيخ عبد الرحمن الشربينى أنكر مبدأ الإصلاح من أساسه . فاستقال قبل شروع المجلس فى عمله . ولم يقبل بعد ذلك عملا فى إدارة الأزهر إلا بعد إجماع النية على إقصاء الشيخ محمد عبده عن مجلس الإدارة والعودة بالأزهر إلى منهجه القديم . فاختاره الخديو لمشيخة الأزهر – كما تقدم – على هذه النية .

تلك كانت قصة الملتقى التاريخي بين أعظم رجلين فى مصر لذلك الحين :

أعظم رجل فى مصر بعرشه الموروث وولايته الشرعية وحقوقه الرسمية .

وأعظم رجل فى مصر برجاحة لبه ومتانة خلقه وعلو همته وصدق غيرته على حرية وطنه والنهوض بأمته .

أراد الأمير بتقريب الشيخ إليه أن يستعين به على تعويض السلطة التى انتزعها الإنجليز منه بسلطة فى مجاله المأمون لا تمتد إليها يد الإنجليز ، وأن يقيم الحجة عليهم فى دعواهم التى يلهجون بها ويتذرعون بها لتسويغ رقابتهم على دواوين الحكومة وإطالة أمد الاحتلال ، وهي دعوى الإصلاح ، فإن الإدارة التى تنقل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية من الفوضى إلى النظام لا تعجز عن إصلاح ديوان من دواوين الحكومة قديم عهد بالنظام « العصري » مهما يعرض له من عوارض الاحتلال .

وأراد الشيخ بالتقرب إلى الأمير أن يسند ولي الأمر فى محنته مع السلطة الاجنبية ، وأن يستفيد من رغبته فى العمل سنداً للمصلحين وعوناً له على رسالته المرجوة من قديم ، وليس بين يديه – بعد عودته من منفاه – مجال أنفع من هذا المجال من طريق الإيمان الصادق والتعليم المفيد .

* * *

ولكن الخديو لم ينس حب السلطة الذي ساقه فى الحقيقة إلى طريق الإصلاح فى هذا المجال الواسع ، ولم يلبث أن علم أن رجلا كالشيخ محمد عبده جدير أن يعينه فى كل مهمة من مهام هذا العمل الكبير ، إلا أن يكون عوناً له على تسخير الأزهر ومحاكم الشرع ومرافق الأوقاف للسلطة التى تفعل ماتشاء ، لأنها خلصت فى هذا الجانب من قيود المحتلين .

واشتد طغيان هذه الآفة على نفس الأمير بعد اضطراره إلى مصانعة المحتلين ، فإنه أراد له مجالاً لا يلجأ فيه إلى مصانعة أحد من رعاياه المسخرين له من باب أولى ، ولجت به هذه الآفة لجاجها المخيف حين زين له فقدان السلطة أن يتهافت

على جمع المال من كل مورد مفتوح بين يديه . ووجد هذا المورد مفتوحاً على مصراعيه فى خزائن الأوقاف ووصايا التركات رفى احتكار السيطرة على المحاكم الشرعية التى يتخرج قضاتها من بين يديه .

ولم تمض فترة التمهيد للإصلاح والتنظيم فى مجال الدواوين الدينية حتى كان للخديو مسلك آخر مع الشيخ محمد عبده وأعوانه ومريديه . فهو يستبقيه للانتفاع بقدرته وشجاعته ، بل للاحتماء بمكانته الدينية أحياناً فى وجه السلطة الأجنبية . ولكنه يحاذر أن يسلمه زمام التصريف والتدبير فى مركز من مراكز الأزهر المستقله . . . فتخطاه فى التعيين لمشيخة الأزهر مرتين ، وكان ترشيحه لمنصب الإفتاء فى الواقع حيلة مستورة لإبعاده عن المشيخة ، وهو أجدر بها وأقدر على الاصلاح فيها من كل من تولاها على عهد الخديو عباس ، وهو أعرف برجحانه عليهم من سواه .

وسر آخر بعيد جداً من هذا المجال إليه هذا المسلك المتبدل من جانب الأمير .

فإنه كان يطمح إلى الخلافة ويريد أن يستمد من سمعة الأزهر وعلمائه فى العالم الإسلامي سنداً دينياً يرجحه على أمراء المسلمين الذين ينفسونها على السلاطين العثمانيين ، وكان يرجو من مصانعة المحتلين أحياناً أن يعاونوه بالسند السياسى وأن يؤيدهم فى المحيط الدولي بيت سفوا الإيطالى صديق الأسرة العلوية القديم . ومصلحته فى ترشيح الخليفة المصري أن تدين له اليمن وشواطئ البحر الأحمر لأنه صديق الخليفة المطاع . ولايأبى المحتلون هذه المصلحة للدولة الإيطالية ، لأنها دخلت معهم فى المساومة على أملاك الدولة العثمانية واتفقت معهم على نصيبها من المستعمرات : اليمن وأرتريا والصومال . فضلا عن مصلحة الدولة البريطانية بين مسلمي الهند وغيرهم فى قيام الخلافة فى بلد يهيمنون عليه . ولم يغفل عبد الحميد – باقعة آل عثمان – عن هذه المساعي الخفية . بل فطن لها واحتجز عنده جمال الدين الأفغانى لكيلا يعود إلى القاهرة ويؤيد هذه الحركة بنفوذه ونفوذ تلاميذه من المصريين والشرقيين . وحدث لما قام الخديو عباس بزيادة دار الخلافة للمرة الأولى أنه التقى هناك بجمال الدين فاستدعى هذا إليه على الأثر

وسأله : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يريد أنه يتآمر مع الخديو على إسناد الخلافة إليه . فكان جواب السيد : إن الخلافة ليست خاتماً فى يدي أضعه فى أصبع من أشاء . ولم يفقد عباس الأمل فى الخلافة بتأييد جمال الدين أو غير جمال الدين . ولم يخف عليه أن « محمد عبده » هو زميل جمال الدين فى سمعته العالمية بين المسلمين . ولكنه علم بعد ذلك موضع الخلاف بين جمال الدين ومحمد عبده فى خطة السياسة . وأن هذه الجهود السياسية حول الخلافة وماشابهها لاتجري مع برنامج عمله وليست مما يصرفه عن خطة الإصلاح من طريق التربية والتعليم متى وجد السبيل إليها . فيئس من موافقته على هذا المسعى . وكاد أن يحسبه عقبة يتخطاها قبل توطين النفس على نجاحه بموافقة سواه .

• • •

ولانسهب فى إحصاء حوادث الخلاف التى تتابعت بين الخديو والمفتى واستحكم من أجلها الجفاء فى النهاية بين هذين الرجلين اللذين خلقا للتعاون فى هذا المجال الواسع لو كان للتعاون محل بين الاستبداد والعمل المستقيم . فإن من حوادث تلك السنين سفاسف وصغائر لاجدوى من تعدادها ، ومنها دسائس ومكايد ليس أيسر من المواربة فيها . ولكننا نذكر منها مايدل على طبيعتها التى يأباها كل إصلاح . ولاينتظر من رجل ذي خلق وكرامة أن يغضى عنها أو يترخص بينه وبين نفسه . أو بينه وبين الناس ، فى قبولها .

فالخديو كان ينفق من أموال الأوقاف العامة على أوقاف أسرته وعلى مزارعه الخاصة . فكف يده عن ذلك فصل الحسابين ومراجعة المجلس للمصارف والموارد فى « ميزانية الديوان » . . . ولجأ إلى الحيلة – مع تشديد الرقابة على الميزانية – فاصطنع طريقة الاستبدال لحمل الديوان على إقامة المبانى وتعمير الأرض البور وعرضها بعد ذلك للمبادلة بينها وبين مزارعه التى لاتساويها فى القيمة ولافى الجودة . وكان أشهر هذه الصفقات صفقة أرض « مشتهر » وأرض ديوان الأوقاف التى أعدت للبيع فى الجيزة بثمن أرض البناء . وفرق مابينهما من الثمن لايقل عن ثلاثين ألف جنيه . وظاهر الأمر أنها مبادلة بين مسيو

اسمه زرفداكي اليونانى الذى عرض على الديوان مزرعة مشتهر باسمه وقسم المبانى فى الديوان . ولسوء حظ الخديو أن موظفاً من كبار موظفيه فى القصر كان مندوباً عن ولي الأمر بالمجلس الأعلى فكان رأيه كرأي المفتى فى هذه الصفقة وآراء الخبراء المختصين بتقدير المبادلات . وثبت من معاينتهم أن هناك نقصاً فى تقدير أحد البدلين وزيادة فى تقدير البدل الآخر تبلغ جملتها خمسين ألف جنيه . فغضب الخديو على موظفه الكبير وعزله من خدمته لأنه لايسأل عن سبب عزل الموظفين فى ديوانه . ولكنه لم يستطع عزل المفتى لهذا السبب ولا كان فى حدود سلطته القانونية أن يعزله لغير سبب . فتحمل الأسباب للسخط عليه فى غير مسائل الصفقات التى يتحاشى أن تثار للقيل والقال .

وكادت أوامره فى الازهر أن تكون إلغاء تاماً لقوانينه التى وضعت لترفيه أحواله وصيانة الكرامة الواجبة لعلمائه ومنع العبث بدرجاته العلمية ومراتبه الدينية . فلم تكن كساوى التشريفة لعلمائه بأسعد حظاً من الرتب والنياشين التى كانت تباع فى الأسواق بأسعارها المحدودة لكل درجة من درجاتها . سوى أن الرتب والنياشين تباع بالمال وكساوى التشريفة تباع بالخدمات والسعايات فى سوق الدعاية أو سوق المتاجرة باسم الدين . وان لمن أغرب الخواطر التى خطر للخديو أن يسوم المجلس عليها أن يرسل إلى أحد الأعضاء من يقترح عليه الاستقالة ويأمر رئيس المجلس أن يطلب كسوة التشريفة من الدرجة الأولى لإمام قصره تمهيداً لتعيينه خلفاً للعضو المستقيل . وبهذا يتطوع المجلس لتحويل هيئته الموقرة إلى أداة تجري أهواء الخديو ولبانانه مجرى القوانين وتحوي تبعاتها أمام الناس على الرغم من أنوف المخالفين له من الأعضاء . ولايبقى بعد ذلك أعضاء ينتظر منهم الخلاف غير محمد عبده وصاحبه عبد الكريم سلمان . فلما تأخر صدور الطلب من شيخ المجلس بالإنعام على إمام القصر بالكسوة المطلوبة قال له مؤنباً فى محفل التشريفات : ألم آمرك بتوجيه كسوة التشريفة إلى إمام معيّن بدلاً من الشيخ الذي ينوي أن يستقيل ؟ فتلعثم شيخ الجامع وبادر الشيخ محمد عبده إلى الجواب قائلا : إن المجلس إنما يعمل بالقانون الذي أصدره سموه . فإذا بدا لسموه أن

ينقضه ليجري الإنعام بالكساوى العلمية على حسب رغبات سموه الشخصية فهو صاحب الشأن فى إصدار القانون بالنظام الجديد .

وأكبر الظن عندنا أن تفويت المنافع لم يلهب من ضرام الغيظ فى نفس الأمير ماألهبه هذا الجواب الصريح من مفتى الديار . ومَن مفتى الديار هذا ؟ إنه عند العالم الإسلامي أكبر مقام دينى علمي فى زمانه . ولكنه عند الأمير لايعدو أن يكون فلاحاً بين ألوف الألوف من أولئك العبيد الأرقاء الذين خلقوا للسمع والطاعة عند كل أمر وكل سؤال .

وإذا صح أن يكون ضرام الغيظ عذراً للمتسلط المستبد المغلوب على استبداده فهذا هو العذر الذي قد يفسر ذلك الإسفاف الذي هبط بالأمير إلى الدرك الأسفل فى حقده على ذلك الفلاح الجريء واستباحة مالايستبيحه الكريم ، ولا اللئيم العاقل ، فى الكيد له والسعي إلى إجلائه عن مقامه : مقامه فى منصبه ، ومقامه فى أعين الناس بين مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يكن ليخفى عليه أنه كان أعظم مقام فى بلاد الإسلام .

ولولا الحقد الذي يسلب المرء رشاده لما سمح أمير فى مركزه أن يخطب علانية ليجعل العمل على نهاض المسلمين بالتعليم الصالح زيغاً فى العقيدة ومروقاً من الدين ، وليسند مشيخة الجامعة الإسلامية الكبرى إلى رجل يقول إن تعليم هذا العلم يمحو الدين ويزري بعلماء المسلمين .

ولولا هذا الحقد لما استباح لنفسه أن يحبط كل عمل لذلك المصلح الكبير حتى العمل الذي جهد فيه جهده طول حياته لإبراء المسلمين من داء الخمول وإنقاذهم من الأوهام التى تعوقهم عن اللحاق بجيرانهم فى ركب الحضارة لسوء فهم الدين واختلاق الموانع التى يزيفها الجامدون باسم الشرع المظلوم .

فقد كاد المسلمون الآسيويون أن ينعزلوا عن سكان أفريقية الجنوبية ويفقدوا وظائفهم وأشغالهم فيها لشيوع تلك الأوهام بينهم وكثرة المرجفين بالتحريم والتحليل بين أدعياء الدين فيهم ، وقد تعاقبت على تلك البلاد هجرة المسلمين

من الهنود والعرب واختلاطهم بأبنائها الأصلاء . فدخل فى الإسلام طوعاً ألوف من الإفريقيين السود لما أنسوه من سماحة هذا الدين وسلامته من شوائب المحظورات التى تكثر فى عباداتهم كما تكثر فى عبادات بعض الأوربيين والآسيويين . ثم حالت هذه الحال زمناً بعد ازدحام بالأوربيين وخضوع أكثرها لحكوماتهم أو جماعات التبشير منهم ، فتحرج المسلمون أنفسهم من مجاراة أولئك الغرباء الطارئين عليهم ، وقعدت بهم وساوسهم الدينية عن كفاح الحياة معهم ، تحرجاً من مجاراة القوم فى عاداتهم وأزيائهم ، وخسر الإسلام زمناً ما كان يكسبه من سهولته وقلة قيوده فى أحوال المعيشة قبل وفود الأوربيين ، فأعرض عنه أبناء البلاد الأصلاء وهانت مخالفته على طلاب الرزق الذين تضطرهم مطالب العيش إلى مشاركة الأوربيين وغير المسلمين الآسيويين فى مرافق أعمالهم ، من ذا الذي يقوى على زحام العيش فى بيئة يخشى فيها أن يلبس القبعة وأن يتناول الطعام من العلب المحفوظة وأن يؤدي الصلاة فى مسجد له إمام على غير مذهبه بين المذاهب الأربعة ؟

هذه وأمثالها كانت عوائق المعيشة ، بل عوائق التدين بالإسلام ، فى معترك الحياة بين المسلمين وجيرانهم من سكان أفريقية الجنوبية والشرقية . . . وفى هذه وأمثالها كانت أسئلة الاستفتاء تتوارد على مفتى الديار المصرية فيجيب عنها وهو يعلم خطر الإجابة التى يجيب بها من يجهل ظروفها وعواقبها ، وكانت إحدى هذه الفتاوى تلك الفتوى التى شغلت صحافة مصر ، وصحافة العالم الإسلامي ، عدة أشهر باسم فتوى الترنسفال ، ونتيجتها فى بضعة أسطر أن الشيخ المفتى أباح للمسلم أن يلبس القبعة وأن يأكل من طعام أهل الكتاب كما ورد فى القرآن الكريم ، وأن يؤدي الصلاة وراء كل إمام يدين بالإسلام .

هذه هي الفتوى وهذه هي ظروفها وعواقبها التى تظر إليها مفتى مصر فى إجابته عنها .

ولم يبح المفتى عادة واحدة كان يحرمها الخديو وحملة الأقلام الذين سخرهم فى الحملة الشعواء على فتوى الترنسفال . فإنهم كانوا جميعاً يلبسون

القبعات ويأكلون فى المطاعم الأوربية وفى بيوت الأجانب ويغشون الولائم « الرسمية » وغير الرسمية داخل القطر المصري وخارجه . ومن شهد منهم صلوات الجمع فإنما كان يشهدها ومعه مئات من المسلمين من أتباع المذاهب الأربعة . . . ولكن الفتوى عمل من أعمال المفتى يجب إحباطه والتشهير به وتنفير الناس منه مهما يكن فى ذلك من الضرر بالإسلام والمسلمين . وقد يكون فى ذلك إعراض الوطنيين السود عن الإسلام بعد إقبالهم عليه . وقد يكون فيه تعويق لجهاد المسلمين المهاجرين عن كفاح الحياة فى أفريقية الجنوبية مع سائر المهاجرين الذين تعفيهم عقائدهم من تلك القيود . وقد يكون فيه استخفاف المسلم بتكاليف دينه إذا ثقلت عليه فى لبسه ومأكله وعبادته مع أبناء ملته ووطنه . وقد يكون فيه المساس بسمعة الدين بين أهل الحضارة وتمثيله لهم فى صورة العقبة المتحجرة التى تأبى على المسلم أن يجتمع على معيشة واحدة مع أبناء الحضارة الأوربية . . . وقد يكون فيه كل ذلك ، بل كان فيه كل ذلك لو أفلح كيد المضللين كما أرادوه . لكن ماذا يعنيهم ذلك كله إذا اشتفت صدورهم من الرجل المغضوب عليه وأفسدوا عليه عمله فى خدمة الإسلام والمسلمين أو فى خدمة مايشاء من مقصد عام ، ماداموا لايجدون له مقاصد خاصة يفسدونها عليه ؟

إلى هذا الحضيض أسفّت جماعة الحملة على فتوى الترنسفال ، ولانظن أن نقل الكثير أو القليل من كلامهم الذي ملأوا به الصحف بضعة أشهر يزيد القارئ علماً بمبلغ ذلك الإسفاف . فإن الاتجار باسم الدين هو عنوان عملهم الوضيع . وإنه لعنوان يغنى عن أسوأ ما كتبوه تحته من كذب فاضح وهراء مرذول .

وأحس من هذا الكذب وهذا الهراء أن يسبوا عرض الرجل بالتهم التى يعلمون أنها باطل مختلق لأنهم الذين اختلقوه وروجوه . فقد كان قراء الصحف المصورة لذلك العهد يجهلون الكثير عن صناعة التصوير الشمسى التى يعرفها اليوم عامة القراء ويحسنها بعض هواة التصوير كما يحسنها الخبراء المختصون بتدبير المناظر للصحافة المصورة . . ومن أسرار تلك الصناعة التى كانت مجهولة يومئذ

عند عامة القراء أن يلفق المصور رسماً واحداً من ثلاثة رسوم أو أربعة متفرقات . فهذا التلفيق هو الذي توسلوا به إلى خداع العامة بصورة للمفتى فى حلبة الرقص يحاصر فتاة إفرنجية وكلبها يعبث بأطراف جبته . ولو استطاعوا المبالغة فى رص المحظورات جميعاً فى منظر واحد لتمموا هذا المنظر بكأس من الخمر وصفحة من لحم الخنزير . ولكنهم عجزوا عن جمعها فاكتفوا من المحظورات بمحظور المفتى مع امرأة يغازلها ويراقصها ويصحبها كلبها فى حلبة الرقص على غير المألوف فى مراقص القوم . وخيل إليهم أنها ريبة لاتدفع ودليل من أدلة الإثبات لايدحض . ولكن الصورة أحيلت على التحقيق القضائى فلم تثبت على امتحان الخبراء ولا على المعالجة بأدوات التحليل والتكبير . وأدين صاحب الصحيفة التى قبلت أن تنشرها لهم بين صحف الخلاعة التى سخروها لحملتهم ، واسمها « حمارة منيتى » يغنى عن المزيد فى الدلالة عليها . . . وإلى قصة هذه الصورة يشير اللقانى رحمه الله فى بعض أبياته إذ يقول :

مكيدة لفقوهـــا بصورة مستعـــاره
دبروهـــا وكانوا بقبـــة الاستشاره
ولطخـــوا بعد هذا بالطين وجه الحماره

ويعنى بالقبة قصر الأمير المعروف . لأنهم دبروا فيه هذه التلفيقة وكاد سرها أن ينكشف بين أيدي القضاة والمحققين ، لولا ضرورة التستر على مقام الأمير المهدد بهذه الفضيحة .

ودون هذا الحضيض من الابتذال فى حق أمير يهدده الاحتلال فى كرامة عرشه أن يذهب فى مساومة المحتلين إلى حد الاعتراف باحتلال بلاده واستعراض الجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى يوم الاحتفال بعيد ملك الإنجليز . تزلفاً منه إلى العميد البريطانى ليغضى عن تصرفه بالوظائف الحكومية التى تحده القوانين عن محاسبة موظفيها بغير إدانة يثبتها التحقيق . ومنها وظائف المندوبين الحكوميين بمجلس إدارة الأزهر ، ووظيفة الإفتاء التى يصدر بها قرار التعيين والعزل من وزارة الحقانية .

وكانت مجلة المنار تنشر فتاوى المفتى هي الصحيفة الوحيدة التى انتقدت هذا المسلك المعيب . فكان الجواب عليها من سماسرة الحملة على فتوى الترنسفال سيلا من الشتائم والمغالطات وتمجيداً لموقف الأمير تحت الراية البريطانية يوشك أن يحسبه فتحاً له من فتوح الوطنية والاستقلال . وعلى هذا النحو كتب كاتبهم فى صحيفة المؤيد يقول « أولاً » عن مجلة المنار : « إن صاحبها يملؤها بالاختلاقات الشرعية » ثم يقول :

« لم يدر صاحب جريدة المنار الذي إن خرج عن مدار بحثه ضل و إن دخل فى غيره ذل . إن الجناب العالى وقف تحت ذلك لعلم بحضرة جلالة الملك إدوارد السابع ملك الإنكليز وإمبراطور الهند ولم يكن جناب اللورد كرومر فى ذلك الموقف إلا صورة من صور الملك التى يمثله بها فى هذا اليوم مائة قائد فوق كرة الأرض . . . وينكر صاحب المنار استعراض الجناب العالي لعساكر جيش الاحتلال مشيراً إلى اكتفاء المغفور له الخديو السابق بالإشراف عليه من نوافذ القصر . كأنه لم يدر أن مولانا الخديو الحالي حفظه الله عسكري النشأة يرتدي فى الأعياد والمواسم الكسوة العسكرية . وهو عالم بدقائق الحركات الحربية بحيث لو أخذ بيده قيادة جيش جرار لكان من أمهر قادة عصره . وماذا يريد بقوله وقف الجناب العالي تحت العلم الإنكليزي فى أول يوم من شهر الصيام ؟ وأي دخل للأيام والأيام إخوة والليالي أخوات ولم يعلم بأن مائة مليون من المسلمين يحيون هذا العلم فى ذلك اليوم يوم الاستعراض[1] » .

ولم تشذ عن خدمة الدسائس الخديوية فى هذه الحرب الشائنة بينه وبين المفتى صحيفة واحدة من الصحف التى كانت تنعت نفسها بنعت الوطنية بين متطرفة ومعتدلة أو محافظة على القديم وغالبة فى المطالبة بالتجديد . . وبلغ الكتاب أجله واستقال الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة وجيء بأعداء العلوم الحديثة شيوخاً للجامعة الإسلامية ومدبرين لنظام الإدارة والتعليم فيها . فانتظم المتطرفون والمعتدلون صفاً واحداً فى الثناء على أعداء الإصلاح والشماتة بالمفتى

(١) عدد ١١ يناير ١٩٠٥ من صحيفة المؤيد بتوقيع إبراهيم المويلحي .

المستقيل . وراح أشد هذه الصحف تطرفاً يقول إنه تأخر فى الاستقالة لأنه كان من الواجب عليه أن يتخلى عن عمله منذ علم أن « ولي الأمر » متغير عليه .

وليس هؤلاء الصحفيون من الغباء بحيث يجهلون حكم الفضلاء عليهم وحكم التاريخ من بعدهم إذا علم الناس أنهم فى القرن العشرين يستنكرون التعليم الحديث باسم الدين . فنقلوا المسألة بحذافيرها من حرب بين الإصلاح واللصوصية إلى حرب بين المفتى والسلطة الشرعية . وحسبوا عجز الخديو عن فصل الموظف الكبير بغير محاكمة تأديبية دليلا على تأييد الاحتلال الأجنبى لذلك الموظف الكبير . ومثله فى حماية القانون ونظام الدواوين لهم ألوف الموظفين .

أما المسألة بحذافيرها فى وضعها الصحيح فهي أن المفتى لم ينتفع بحقه فى وظيفته لجر منفعة شخصية أو ترويج سياسة بريطانية أو التفريط فى حق من الحقوق الوطنية . فإذا كان سماسرة القصر يريدون أن يقولوا إن إصلاحه للتعليم وتطهيره للدواوين ونهوضه بأبناء وطنه وأبناء دينه عمل يوافق الاحتلال ولا يوافق الوطنية فذلك هو الخزي الأكبر لمن يفتريه . لأنه يدمغ الوطنية بميسم الهوان ويدعي للاحتلال فضلا يسقط حجة الوطنى عليه ولا يطمع فى ادعائه بألسنة مأجوريه .

وإنما الخيانة للوطن ذلك الجرم المهين الذي أقدم عليه الخديو ودافعوا عنه دفاع المستميت يوم وقف تحت العلم البريطانى ليحمى جيش الاحتلال . وأقبح منه فى الإجرام أن يقترف هذه الجريمة فى حق وطنه وحق عرشه ليتوسل بها إلى حمل الإنجليز على الإغضاء عنه حين يتعرض لوظائف الحكومة التى يحميها القانون . وأقبح من كل هذا أن يكون همّ الأمير من التعرض لتلك الوظائف خيانة الأمانة وسلب المال الحرام وتلويث موظفيه الكبار بلوثة الجبن والاختلاس . أما الموظف الذي يعمل فى تلك الوظيفة مايشرفه ويشرف أبناء وطنه ودينه فلا جناح عليه أن يحسن ويسيء الأمير وتابعوه . وإنما يسيئون إلى أقدس المقدسات من حرمات الحق والفضيلة .

• • •

ولسنا فى مقام الموازنة بين وطنية محمد عبده ووطنية عباس الثانى وسماسرة قصره . فإننا بهذه الموازنة نهبط بقدر الرجل العظيم الذي لانعرف فى زمانه قدراً أحق من قدره بالتشريف والإكبار ، ولكننا نزيد هذا الشرف بياناً لمن يجهلونه بمثل من أمثلة كثيرة لمواقفه إلى جانب الخديو حين يعتدي عليه المحتلون وحين ينظر الخديو حوله فلا يرى له سنداً أقدر على حمايته من مكانة الشيخ فى العالم الإسلامي ومن شجاعته التى لايعنيها إغضاب الإنجليز منه . وهو لا يأمن غضب الأمير عليه .

ونحن فى هذا الكتاب الموجز لانملك الإسهاب حيث يغنينا الإيجاز المفيد ، وحسبنا – على قاعدتنا هذه – حادث واحد هو الذي استهدف فيه الخديو لأشنع إهانة تلحق بصاحب عرش من العروش فى بلاده ، وهو حادث ليون فهمي الذي أدى إلى صدور الأمر من الوكالة البريطانية بتفتيش قصر رأس التين بحثاً عن ليون فهمي هذا لاتهام الإنجليز إياه بقتله فى قصره أو إخفائه هناك لتقييده ونقله على الرغم منه إلى الآستانة . إجابة لطلب « المابين » أو قصر السلطان عبد الحميد .

يومئذ لجأ الأمير إلى حمى الشيخ وصائب رأيه ، فلباه ورجاه أولاً أن يستوثق من خلو القصر وبخت المحروسة من ذلك الطريد العثمانى إن كان حقاً مقبوضاً عليه ، ثم أشار عليه بأن يكتب بلاغاً إلى معتمدي جميع الدول المعترفين باستقلال مصر بأن السلطة المحتلة تعتدي على حرم قصره ، وأن يبلغ المحتلين فى الوقت نفسه أنه يفعل ذلك إذا هم اجترأو على تنفيذ أمر التفتيش . فتراجع الإنجليز حذراً من إثارة هذه القضية الدولية بطلب من صاحب السلطة الشرعية . ويقينا بأن المابين العثمانى يؤيد هذا الطلب الذى وجهه الأمير إلى الدول بسببه ، ويقيناً من الجهة الأخرى بتأييد الرأي المحترم من أبناء البلاد لأميرهم وعلى رأسهم مفتى الديار الذي يهابون اجتماع فتواه الدينية إلى جانب الوثائق القانونية . واعتقاداً منهم أن الأمير لايهددهم هذا التهديد وفى قصره ذلك الطريد الذي يبحثون عنه .

* * *

وفى ختام هذا الفصل ننشر بعض الفقرات من خطاب الخديو إلى موظفه الكبير أحمد شفيق باشا حين علم أنه مشى فى جنازة المفتى مع كبار المشيعين . . . فبعد أن سمح أدب العرش لذلك الأمير المسكين أن يقول عن فخر وطنه بعد وفاته – لو كان يعقل – « إنها جنازة حارة والميت كلب » مضى يقول :

« يظهر – والله أعلم – أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت . وهو على ماتعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ، فلم هذه المجاملة ؟ . .[٢] » .

إن هذا الانتقال من أخلاق الفلاح محمد عبده إلى أخلاق الأمير عباس الثانى مفاجأة شديدة الوقع على النفوس الآدمية التى ينتمي إليها الفلاحون كما ينتمي إليها الأمراء ، ولكنه فى ختام هذا الفصل أصدق من تسويد الصفحات بأشتات الوقائع والأخبار وصنوف الدسائس والوشايات للدلالة على كنه الخلاف بين الرجلين وعلى طبيعة تلك العداوة المزرية وطبائع خدامها الذين باعوها ضمائرهم فى سوق المنافع أو فيما هو شر من سوق المنافع : سوق الحسد البغيض والغرور الباطل .

وقد ذهب محمد عبده وعباس الثانى إلى ذمة التاريخ ولحقت بهما الأسرة الخديوية بقضها وقضيضها ومعهم منافعها التى تباع الضمائر من أجلها ، ولكن باعة الضمائر هؤلاء هم أسلاف فى النسب أو أسلاف فى العمل لخلفائهم الذين عاشوا ويعيشون بعدهم إلى هذه الأيام ، وحاجتهم إلى مداراة أنفسهم كحاجة أسلافهم فى زمانهم . كلما أعيد القول فى قضايا الإصلاح وقضايا الجهاد عادوا إلى الستار القديم يتوارون خلفه وأعادوا معاذيرهم تهماً للمخلصين وتبديلاً لوقائع التاريخ وافتياتاً على الوطن والدين . وسيماهم على وجوه صفحاتهم لاتخفى على الناظرين .

(٢) مذكراتي فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا .

المحسن المعلم

إن الإحسان إلى ذوي الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الإنسانية وأقربها إلى الصفات الإلهية . لأنها قوة فى العظيم تعمل عملها فى إعانة الضعيف ولاتعمل عملها فى إذلاله وإرغامه . على ديدن العظمة التى قد توصف بأنها قوة فرد عظيم ولكنها لاتنسب إلى الإنسانية ولانسمو إلى مقاربة الصفات الإلهية .

وقد كان الإحسان إلى المعوزين والضعفاء أول صفة من صفات الأستاذ الإمام يعرفها من يعاشرونه فى معيشته ولاتقتصر معرفتهم به على المعرفة بأعماله العامة . ولكننا – على حبنا للأستاذ الإمام من أجل هذه الفضيلة بعينها – نكاد نستصغرها فى كتابة سيرته . لأن إطعام هذا الجائع وإغاثة هذا الملهوف وتلبية الرجاء من ذلك الطالب وإسداء المال الميسور إلى ذلك الفقير – كل أولئك خير وبرّ وكرم . ولكنه – فى النهاية – بر من واحد إلى آحاد . لايكاد يذكر إلى جانب ذلك الخير العميم الذي ترى من أعمال الرجل فى جملتها أنه يغدقه على الدنيا بكل مأوتى من قدرة وهمة ومضاء . وأنه يدأب نهاره وليله ولايكاد يفرغ لنفسه ساعة من النهار والليل وهو يفكر فى ذلك الخير ويعمل لذلك الخير ويسعد ويشقى فى سبيل ذلك الخير . ولايقنعه منه أن يختص به محتاجاً إلى المعونة أو شاكياً من الظلم ، إلا أن يكون خيراً للأمم ، وخيراً للعاملين . وخيراً لتوفير السعادة الإنسانية التى لايخطر بباله وهو يدأب لها أنه يستثنى منها أحداً من بنى آدم وحواء .

وخصلة أخرى يحسب الناظر إلى إحسان هذا الرجل أنها خليقة أن تغض من فضله فى هذه الفضيلة العالية ، وتلك هي صدورها منه كما تصدر الدوافع الضرورية التى تملك على الإنسان مشيئته ولاتكاد تبقى له مشيئة يملكها بها أو يقاومها فيها ، فإن دوافع الإحسان فى نفس هذا العظيم الكريم أشبه شيء بدافع الحنان فى نفس الأب الرحيم . وأي فضل للأب الرحيم فى عطفه على طفله الجائع أو طفله الباكي أو طفله السقيم ؟

إن فضل هذه الفضيلة يستصغر فى هذه السيرة ليبلغ غاية الكبر الذي تبلغه سجية إنسانية . فقل إن شئت إنه لافضل لمحمد عبده فى إحسانه إلا كفضل الأب فى الإحسان إلى البنين . ولكنك إذن تشهد بالفضل الذي لافضل بعده للرجل الذي تملكه رحمته بجميع الناس كما تملك الأب رحمته ببنيه

كان محمد عبده يحسن إلى صاحب الحاجة وهو فى منفاه فقير لامورد له غير مرتبه من عمله . وكان يحسن إلى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه . وكان يحسن إلى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج إلى ماله القليل لتدبير علاجه ومعيشته فى مقامه وسفره . وكان يحسن إليهم وهو فى مرض الموت . ويموت وفى ودائع سره صدقات للمستعينين به لم يكن يطلع عليها أحداً من أقرب المقربين إليه .

روى السيد رشيد رضا مما علمه من أخباره يوم كان منفياً ببيروت : أن صاحباً له توفى والده وليس عنده ماينفقه فى تشييعه فأعطاه كل ما فى حوزته من مال وهو مرتبه الذي قبضه يومئذ من المدرسة السلطانية . ولولا أن رجلا فى مصر أحسن إليه مثل ذلك الإحسان قبل نفيه وفى له بدينه وحوله إليه على مصرف ببيروت لاضطر إلى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله .

ولم تكن صحيفة الجوائب المصرية من الصحف التى تتطوع لنشر مآثر المفتى وإن لم تكن كذلك من الصحف التى سخرت للحملة عليه . ولكن صاحبها خليل مطران كان يلقى علماء الأزهر كما يظهر من حديثه مع شيخه ومن الردود فى صحيفته . وكان يعرف شواغلهم وشواغل الأستاذ الإمام . وهو الذي روى بعض مآثره فى مقال تأبينه فقال عن بره بأعدائه الثائرين عليه : « إن أنجال المشايخ فى الأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ فى ذلك غبناً للعلماء لأن هذه المرتبات إنما هي وقف عليهم . فأعاده الأستاذ إليهم وعوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه بسعيه فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعي عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين » .

وقد كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون إليه ، ومنهم حافظ وإمام والكاظمي والشنقيطي العالم اللغوي المشهور ، وهو الذي قال يرثي نفسه ويذكر معونة الإمام له في غربته المنقطعة دون القادرين على المعونة في عصره :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد ... سوى كتب تختان بعدي ، أو علمي
وغير الفتى المفتى محمد عبده ... صديق الصدوق الصادق الود والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر من أقوى المشجعات على طبع الكتب القديمة والحديثة التي يعجز الأدباء عن الاستقلال بطبعها ونشرها ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف على تصحيحها . لأنه – أجزل الله مثوبته – كان يتولى توزيعها على معاهد العلم ويرسلها باسمه إلى مريديه من سروات الأقالم وكبار موظفيها . وقد تسلم من حافظ أكثر نسخ البؤساء بعد صدور الجزء الأول ثم أسلم حافظاً من ثمنها مايكفيه سنوات – كما قال لنا حافظ – لولا أن رزق السنوات لايجاوز في يدي حافظ مدى الشهور ، وهو الذي قال من قصيدته التائية في رثائه :

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

وصحيفة الصاعقة – كما ينبئ عنها اسمها – ليست من الصحف التي تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى ، إذ كانت مرصدة للهجاء الاجتماعي والنقد اللاذع صادقاً أو غير صادق ، وكان صاحبها يلقب بالحطيئة الثائر لأنه كان كالحطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس إليه . ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية التي كان هو من العارفين بجدواها . فرثاه بمقال طويل افتتحه بهذا البيت :

اليوم نامت أعين بك لم تنم ... وتسهدت أخرى فعز منامها

ثم قال :

« أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلئ برقاع امتلأ بحاجات الناس فلا يرجع إلى داره إلا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه . . وكم نظر الله إليه في جوف

الليل وهو يمد يده بالحسنات إلى الفقراء والمساكين ويعول أنفساً ماتت بموته اليوم » .

ولقد عرفنا نحن أناساً نظروا إليه في جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ماقدر عليه من عاجل الصدقة . وهو يقول لهم إنه أمانة من جهات الخير يؤديها إليهم ولايعرفهم بنفسه . وكنا نسكن على خط المطرية التي كان فيها مسكنه فنسمع أخباره هذه مع أصحاب البيوت الكريمة التي فقدت عائلها . فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظلام إلا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته .

وقد عهد أهله إلى تلميذه الحميم السيد رشيد رضا أن يرتب أوراقه عند سفره إلى الاالإسكندرية فوجد في محافظ الأوراق صرراً من النقود مكتوباً على كل منها اسم من يراد إعطاؤه إياها . وسأله – وهو يعد العدة للسفر – عن الشاعر الكاظمي فذكر له أنه مدين ، فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه في نفقة السفر ، لأن الكاظمي أحوج إليها .

ولو عرفت هذه الصدقات المستورة التي كان يبذها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدي خاصته إلى مستحقيها لظهر أنها شغل حياة كاملة تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغاً لعمل سواها ، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التي كان يضطلع بها ولا تقبل الإنابة عنه في أدائها . ومثل هذا الشغلان بالإحسان فضل نادر في حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثل شواغله ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعوانه في أداء رسالته ، ولكنه على هذه الندرة لم يكن بالخاصة المميزة التي تنطبع بها هذه النفس بين أقرانها ونظرائها ، وإنما يمتاز الرجل في إحسانه بتلك المزية التي انطبعت بها جميع صفاته وجهوده : وهي مزية المعلم المطبوع على التعليم .

وما كان التعليم في مثل هذه الفطرة إلا شيئا يعطيه من ذخيرة الفكر والروح .

فالشيخ محمد عبده كان رائد « الخدمة الاجتماعية » في وطنه قبل أن

تعرف فى هذا الوطن وفى غيره « مصالح الخدمة الاجتماعية » التى سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين . ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده حتى يكون هذا الخير فى مجاله الواسع عملا عاماً للمجتمع يتعود القائمون عليه أن يوطدوا له قواعده ويتعاونوا على تنظيمه ويتكفلوا بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه .

فالإحسان المستور – يدا بيد – عمل يستطيعه المحسن بينه وبين نفسه ويحمد منه أن يكتمه ولايعلنه لغيره . ولكن الإحسان فى النكبات العامة لايأتى بغير التعميم والتنظيم وضمان الأمانة أو ضمان الدوام فى غير الإغاثة الموقوته التى تنقضى بانقضاء دواعيها . وهذه هي مواطن الإحسان التى كان محمد عبده يبادرها فى ساعتها كلما ألم بالبلاد داع من دواعيها ولايظهر اسمه للناس إلا كان مجرد ذكره ضماناً للثقة والطمأنينة . وكان توجيه الدعوة باسمه ضماناً للموافقة والإجابة . ثم يكون إشرافه على التدبير والإدارة ضماناً لانتظام العمل ودوامه .

فمنذ عاد محمد عبده من منفاه لم يتخلف قط عن الغوث العاجل للمستغيث فى نكبة من النكبات التى تصيب هذه البلاد ويقعد عنها ولاة الأمر والقادرون على الإغاثة بالمال أو السلطان . وكانت سنته فى كل عمل من أعمال الغوث أن يندب له الجماعة من أهل الكفاية والأمانة بين خاصة صحبه . وأن ينهض هو بعبء تنظيمه ونشر الدعوة باسمه . ولم يحدث قط أن نهض بهذا العبء فى عمل من تلك الأعمال إلا كان نهوضه به أماناً من الفوضى والاختلال .

تركت حملة السودان فى هذا البلد جيشاً من الأيتام والأرامل والعاطلين وجرحى الحرب والمنكوبين لاعائل لهم ولامورد لمعونتهم . وأمسكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا الجيش الزاخر لأنها اعتذرت بنفاد المال فى نفقات الحملة وعجز الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها المحدودة . فبادر الشيخ محمد عبده – وكان يومئذ قاضياً بمحكمة الاستئناف – إلى تأليف هيئة خاصة لحصر ضحايا الحرب وتنظيم المعونة لهم مما يتبرع به المحسنون وتسهم به

خزانة الحكومة وخزانة الأوقاف وغيرها من جهات البر والمساعدة . وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة من كبار الأغنياء . وحرص على إحاطة هذه الهيئة بالضمانات « الرسمية » لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحساب المتبع فى دواوين الحكومة . وقامت هذه الهيئة بأمانتها على وجهها الأمثل . ثم تبعتها الحكومة والجماعات الخيرية فى طريقها . بعد تمهيدها بهذه الفاتحة التى لم يكن لأولئك المنكوبين – لولاها – من مسألة يلتفت إليها .

واحترقت بلدة ميت غمر فى أوائل صيف سنة ١٩٠٢ فبلغ عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف . لافرق بين كبيرهم وصغيرهم ولابين غنيهم وفقيرهم فى الحاجة إلى المأوى والطعام وقال الأستاذ الإمام فى وصف الحادث من بيانه الذي نشره على الناس فى الصحف : « ليس الحادث بذي الخطب اليسير . فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين . منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم . والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم . ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين . . » .

وقد بذل الأستاذ الإمام من معونة الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان يرئسها يومئذ كل ماتحتمله مواردها . وألف لتعمير البلدة وإغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال وتحث الناس على إمدادها به فى عواصم البلاد وقراها . وطاف بنفسه على بيوت الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة يسأدم التجدة فى حينها قبل فوات أوانها . واستخدام كل وسيلة من وسائل الحض والدعوة يقدر عليها . ومنها حث الشعراء على النظم فى موضوع هذه النكبة وفى طليعتهم شاعره حافظ إبراهيم الذي نظم فيها قصيدة قال فى أولها :

سائلوا الليل عنها والنهـارا كيف باتت تساؤهم والعذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروي هذه النار . فهي تشكو الأوارا

وقال منها يستنجد بالمنشاوي (باشا) فى سجنه :

أيهذا السجين لايمنع السجـ ـن كريماً من أن يقيل العثارا
مر بألف لهم وإن شئت زدها وأجرهم كما أجرت النصارى

وهو يشير هنا إلى أحمد المنشاوي (باشا) عميد القرشية الذي سجن يومئذ فى قضية لعبت فيها السياسة لعبها . وكان من مروءته أيام الثورة العرابية أنه آمن الأوربيين الخائفين فى داره . وسبق فى ترجمة الأستاذ الإمام كلام عن صلة أبيه بهذه الأسرة العريقة فى القرشية . وسنرى فيما يلي أنه كان أحد المحسنين القلائل الذين كان الأستاذ الإمام يعتمد عليهم فى إنجاز مشروعاته الاجتماعية . وقد جمع من أسرته ومن سائر الأسر الكريمة ألوف الجنيهات ، وذهب بنفسه إلى ميت غمر ليشرف مع الهيئة المختارة على إنفاقها فى تعمير القرية وتعويض أهلها .

ولقد كان أثر المحسن المعلم فى المؤسسات الباقية أبرز وأثبت من أثره فى هذه المساعدات التى تدعو إليها الحوادث الموقوتة كحوادث الحرب وحادث الحريق وأشباه هذه الحوادث المرهونة بأوقاتها فإن المؤسسات الخيرية التى نشأت برعايته وهدايته كانت أثبت الجمعيات المصرية وأنفعها وأقدرها على أداء مقاصدها من محاربة الجهل والفاقة ؛ ولاتزال أكبر هذه الجمعيات فى مصر جمعيتان تأسستا بمعاونته وهدايته وعاشتا منذ تم تأسيسها نحو ستين سنة تعملان وتتقدمان على هداه : إحداهما الجمعية الخيرية الإسلامية والأخرى جمعية العروة الوثقى وقد سميت باسم جمعيته التى اشترك فى تأليفها وإدارتها على البعد فى منفاه مع السيد جمال الدين . وقد أسهم فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ثم تولى رئاستها . فزادت مواردها وأعمالها ضعفين فى سنوات رئاسته الخمس (من ١٣١٧ إلى ١٣٢٢ هجرية) إذ كانت مدارسها أربعاً فأصبحت سبعاً ، وكان عدد تلاميذها (٣١١) تلميذاً فأصبح (٧٦٦) وكانت تملك مائتين وثمانين فداناً فأصبح لها من الأرض خمسمائة وثلاثة وثلاثون فداناً غير الموارد الأخرى التى ارتفعت فى جملتها من ٤٤٣٠ جنيهاً إلى ١٠٣٩٥ جنيهاً . وازدادت – تبعاً لذلك – قدرتها على التعليم بالمجان وترتيب المعونة للمعوزين .

ولم يتسع عمر الأستاذ لإتمام المشروعات التى كان يفكر فيها و يهيئ الأذهان

لإعداد أسبابها وضمان إقامتها ودوامها . وكان يرجو أن يتسنى له إتمامها فى مدى قريب بعد الفراغ لها من بعض شواغله الأزهرية . ولكنه فارق الحياة فى السنة التى اعتزل فيها مجلس الإدارة الأزهرى بعد شهور من اعتزاله . ويمكن أن يقال – على هذا – إنه ما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته إلا كان من مشروعاته التى هيأ لها الأذهان ومهد لها الطريق وبدأ فعلاً بالاستعداد لتنفيذها . ومنها الجامعة المصرية التى كان يعنى بها أن « تقوم على تعلم العلوم وفقًا للمناهج الحديثة وتسهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة » وقال عنها فيما نشره الأستاذ روجرفيل من وصيته بعد وفاته : «إذا نظرنا إلى التعليم الذى تنشره الحكومة من حيث قيمته فلابد أن نلاحظ أنه لا يكاد يقدر إلا على تعليم رجل محترف بحرفة يكتسب بها عيشه ، ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضلًا عن تكوين نابغة . وكل ما لدينا من المدارس التى تمثل التعليم العالى فى مصر إنما هى مدارس الحقوق والطب والهندسة ، وأما بقية الفروع التى يتكون منها العلم الإنسانى فقد ينال منها المصرى صورًا سطحية فى المدارس الإعدادية ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئًا وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلاً دائمًا . وذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة والآداب العربية والأوربية والفنون الجميلة أيضًا – كل ذلك مجهول لا يدرس فى مدرسة مصرية . . فلا ترى فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم . ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم . ذلك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه[1] » .

وقد مرض الأستاذ الإمام مرض الوفاة فلم يشغله المرض عن إعداد العدة لهذا المشروع الكبير ، وزار صديقه أحمد المنشاوى باشا واستزاره غير مرة للبحث فى وسائل بناء الجامعة وضمان الموارد التى ينفق منها عليها ،

(١) كتاب محمد عبده للدكتور عثمان أمين الاستاذ بجامعة القاهرة .

يوجد على الأرض فيلسوف . وعاد الدكتور يقول مامعناه : إنه لابد من أن يتقن علماً من العلوم وبلم بسائرها ، فقال الشيخ محمد عبده : إن الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية ، وقبلها الثانوية ، على إلمام بالعلوم ويتقنون بعضها . فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين والطلاب بهذا المعنى ! . ثم قال : إن الفيلسوف كما يفهمه هو الذي له رأي ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وبهذا المعنى الصحيح من معانى الفلسفة يتضح للأستاذ الإمام مذهب فلسفى مستقل فى موضوع الفلسفة العامة وهو البحث عن الوجود أو البحث عما وراء الطبيعة على اصطلاح أكثر المحدثين ، وتتضح له مع هذه الفلسفة العامة فلسفة خاصة فى سائرها الاجتماعيات والعقليات : ومنها فلسفة الأدب والفن وفلسفة اللغة والبيان على الإجمال .

أما فلسفته فيما وراء الطبيعة فهي فلسفة متصوف اطلع على آراء الفلاسفة التى دار عليها البحث بين المتكلمين والمعتزلة وفلاسفة المسلمين ، ثم اطلع على أقوال فلاسفة الغرب فى العصور المتأخرة اطلاعاً يمكنه من الجمع بينها وبين مايشبهها من أقوال المتقدمين ، وقلما استحدث فيما بعد الطبيعة شيء من جانب المعاصرين لم يسبقهم إليه الأوائل فى أمهات المسائل ، وإن أضاف إليه المعاصرون ماأضافوا من مصطلحات العلم الحديث .

واستقلال الشيخ محمد عبده بالفكر والنظر ، ثم استقلاله بالعمل فى الإصلاح ، يفردانه بمذهبٍ بين مدارس الفلسفة الإسلامية فلا يتيسر ضمه إلى طائفة منها يسمى باسمها وينفصل بذلك عن سائرها .

فهو مع الفلاسفة والمعتزلة فى تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية ، ولكنه يخالف رأي الفلاسفة فى معنى الوجود ومعنى العلوم بالنسبة إلى الحقيقة الإلهية ، ويخالف رأي المعتزلة فى مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وماتفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن .

وهو مع المتصوفة فى رياضتهم النفسية والفكرية ولكنه يرى أن إلهام المتصوف « ذوق وجدانى » لايجوز له أن يدين به غيره « ولاينكر أن لهم أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً . . . ولكنه خاص بمن يحصل له لايصلح أن ينقله لغيره بالعبارة . . . فإن هذا الذوق يحصل للإنسان فى حالة غير طبيعية ، وكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية لايجوز أن يخاطب به التقيد بالنواميس الطبيعية » .

وشبيه بهذا رأي الطب – على قول ابن سينا – فى علاج من كانوا يعرضون عليه من المصابين بمس الجن أو الأرواح الخفية ، فإنه كان يعالج الأعراض الجسدية بما يناسبها من الأدوية الجسدية ، ولاشأن له فى علاج الآثار الطبيعية بما كان لها من المؤثرات غير الطبيعية ، أيا كان منشؤها .

وقد يحيط بالفلسفة الإلهية فى مذهب الأستاذ الإمام من يقرأ تعليقاته على العقائد العضدية ومناقشته فى حاشيته للإمام عضد الدين الإيجي والإمام جلال الدين الدوانى فى شتى المسائل التى تقوم عليها اليوم فلسفة ماوراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين ، مضافاً إليها مسألة الصفات التى لم يطرقها هؤلاء المعاصرون .

وأيسر من هذه الحاشية – لمن يقرأ كتب الفلسفة السلفية – رسالته القيمة فى التوحيد ، وتفسيراته للآيات القرآنية من دروسه فى الجامع الأزهر . وفيها بيان جلي لكل مسألة من تلك المسائل التى يقل فيها الجلاء ويكثر فيها الغموض فى كتب الأقدمين .

فإذا أردنا أن نجعل لفلسفة الإمام حداً فاصلا بينه وبين مخالفيه من جماعة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة الأقدمين . . . فالحد الفاصل هنا هو القدرة على حسم الجدل العقيم بالرجوع إلى حكم العقل السليم ، أو هو القدرة العلمية على حل المشكلات العقلية ، ولاسيما المشكلات التى لاداعي للإشكال فيها غير الوقوف عند اللجاجة اللفظية والعجز عن تقرير معناها ، أو غير التهالك على الزبد وترك ماينفع الناس .

وأقرب الآراء إلى الأستاذ الإمام آراء حجة الإسلام أبى حامد الغزالي رضوان الله عليه ، فهو قريب منه فى كل مابتعد به الفهم بينه وبين الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين . وليس بينه وبين حجة الإسلام من خلاف يذكر إلا كان – على الأكثر – من قبيل الاختلاف فى الدرجة دون الجوهر . فإن الأستاذ الإمام لا يشتد على الفلاسفة اشتداد حجة الإسلام ، ولايقول بالتكفير حيث يتأتى المخرج المقبول ، ولو ببعض الصعوبة فى التأويل .

إن « الإله » عند أرسطو هو المحرك الأول . . . ولاتأتى الحركة منه لأنه أبدي لا أول له ولا آخر ، ولكنها تأتى من الهيولى التى هي المادة فى دور القابلية ، وإنما تخرج من القابلية إلى الكون بحركتها نحو الكائن الأول شوقاً إلى الكمال ، وهي فى كل حركة تتخذ لها صورة معينة تجعلها شيئاً وتجعلها أقرب إلى الكمال بمقدار خلوها من الهيولى وازدياد نصيبها من الصورة المحض التى لا مادة فيها .

أما الإله فى العقيدة الإسلامية كما يبسطهاالأستاذ الإمام فى كتبه المتقدمة فهو « الوجود الكامل المطلق » وكل ماعداه من المخلوقات فهو ناقص محدود .

وكمال الله لاينفى إرادة الخلق على قول أرسطو فى الإرادة ، ولايقتضى قدم المخلوقات الناقصة المحدودة متفرقة أو متجمعة فيما نسميه العالم أو الكون ، ولايمنع العقل أن يكون هذا العالم حادثاً وأن يكون الله أحدثه من العدم بقدرته ، لأن القدرة هي إمكان القادر ما لايمكن غيره ، ومعنى قدرة الخالق المطلق أنه يمكنه ماليس بالممكن بغير قدرته المطلقة ، فلا وجه هنا للاستحالة مع الوجود المطلق الذي ليست له حدود .

وصفات الله التى يقتضيها الكمال واجبة وجوب وجوده على أكمل صفة ، فإذا جاء الشرع بصفات غير مستلزمة عقلا فلايجوز للفيلسوف أن يرفض صفة من الصفات لايمنع العقل نسبتها إلى الكمال المطلق . ولا معنى للجدل العقيم فى استكناه هذه الصفات لأن العقل الإنسانى لاينفذ إلى كنه شيء من الأشياء ، فضلا عن كنه الوجود الأوحد الذي ليس له مثيل يقاس عليه .

وللأستاذ الإمام فى ذلك رأي كرأي الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت فى استحالة العلم بالشيء فى ذاته Nomena ووقوف العلم الإنسانى عند الظواهر Phenomenon مع التعبير عن هذا الفارق باصطلاح الأقدمين : وهو الفرق بين الكنه والعوارض ، إذ يقول من رسالة التوحيد عن غاية كمال العقل الإنسانى إنما هي « الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لها ، وأما الوصول إلى كنه حقيقة مافلا لاتبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف وهو لاسبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية مايمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره » .

وليس قصور الإنسان عن استكناه الأشياء فى ذواتها بحائل بينه وبين الاستعانة بعقله على المعرفة الدينية . فإنه بهذا العقل يستعين على كل معرفة تعنيه وتنفعه فى مصالحه الدنيوية ، وعلم العقل الإنسانى بقصوره يلهمه تفويض الإيمان بمسائل الغيب . ومسائل الشرع التى لايتطلبها العقل على صورة من الصور غير صورتها فى الدين ، كشعائر الفروض وأعداد الركعات فى صلوات العبادة ومقادير الزكاة وما إليها ، فإن العقل يتقبلها لأنها ضرورية على صورة من الصور ، وليس له أن يرفضها على صورة دون صورة .

وبهذه القوة العاقلة فى الإنسان يدرك مايجب فى حق الله ومالايس بالممتنع فى حقه ، كما يدرك ماينبغي للخلق كله فى جملته ، وقصارى القول فيه أن الواجب فى حق الله هو الواجب فى حق الوجود الكامل المطلق ، وأن نهاية القول فى العالم كله أنه وجود مخلوق أو وجود محدود .

وتنجلي طبيعة المصلح العامل فى هذه الفلسفة الإلهية التى اطمأن إليها من بين آراء الفلاسفة وعقائد المعتزلة وعلماء الكلام . فلم يكن يعنيه منها أنها فلسفة تحل جميع المشكلات وتفسر جميع الغوامض وتفصل فى جميع القضايا المعلقة بين المفكرين الإلهيين ، وإنما كان يعنيه منها أنها تبطل الحيرة من الناحية العملية فلا تشغل العقل بما لا داعية للحيرة فيه . لأنه على أي الآراء من ناحية الواقع سواء .

يتوسع فى الاطلاع على كتاب التهافت وغيره توسع استقصاء ، وقد صرح بذلك حيث قال : لامناص للكاتب العربى اليوم من أخذ تلك الفلسفة عن الإفرنج أنفسهم ، فأخذنا كتاباً للمستر مولر عنوانه : فلسفة ابن رشد ومبادئه ، وكتاباً آخر عنوانه : ابن رشد وفلسفته ، وهو للفيلسوف رينان المشهور » .

فقد كانت المصادر إذن مختلفة وكان أكثرها مرويًا عن صاحبه مأخوذاً من خلاصة كلامه ، ولو توحدت المصادر مع حسن النية لما تباعدت بين المتناظرين فى هذه المسألة ، ولا فى غيرها ، شقة الخلاف » .

• • •

فمصادر الأستاذ الإمام فى مسائل الفلسفة الإسلامية كانت شاملة لمراجعها الوافية من كتب لفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة والمتكلمين ، ولكننا لانعلم عن مصادره التى اعتمد عليها لدراسة الفلسفة الغربية شيئاً على التفصيل . وكل ما نعلمه أنه كان يطلع عليها فى بعض كتبها بعد تعلمه اللغة الفرنسية ، وأن أقواله عن العقائد الإلهية تدل على علم بآراء الفلاسفة المتأخرين من الأوربيين ، وأغلب الظن عندنا أنه توافق فى التفكير الذي تشابهت فيه الموضوعات الفلسفية قديماً وحديثاً ، وهي – فيما عرضت له – من مسائل الخلاف لم تطرق موضوعاً لم تسبق إليه فى موضوعات الفلاسفة الإسلاميين .

ولعل من هذا التوافق قوله الذي ارتاح إليه سبنسر حين سأله عن العقيدة الإسلامية فى الإله . فإنه ذكر له عقيدة أهل السنة وعقيدة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود ثم ذكر له أن بعض المتصوفة الإسلاميين يعتقدون أن الله وجود محض ، وليس بشخص ، فبدا على الفيلسوف الإنجليزي أنه ارتاح إلى هذه العقيدة ، ويبدو اليوم أنها العقيدة التى يرتاح إليها كبار المفكرين الغربيين ، ومنهم أينشتين صاحب الفلسفة النسبية .

وكذلك يجوز لنا أن نفهم أن الأستاذ الإمام نقل عقيدة المتصوفة القائلين بهذا وهو يفرق بين دلالة الشخص Person ودلالة الذات فى عقيدة التوحيد

الإسلامية ، لأن الشخص باللغات الأوربية يوحي بالشبه والحد والمثال ، من أصل الكلمة اللاتينية التى أخذت من قناع الوجه المستعار فى التمثيل ، وليس فى كلمة « الذات » مايوحي بهذا على الحقيقة أو على المجاز . وإنما توحي بأن الذات تحتوي الصفات وتملك ماينسب إليها من لوازم الكمال .

• • •

ولا نجد فى كتابات الشيخ محمد عبده أنه أراد أن ينشئ له مذهباً خاصاً فى المسائل الإلهية كالمذاهب التى تسمى بالنظم فى اصطلاح الفلسفة الحديثة ، ولكننا نجد آراءه كاملة فى كل مسألة من هذه المسائل مبسوطة فى تعليقاته على أقوال الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين أو المتصوفة ، يوافق بها كل طائفة من هذه الطوائف أو يخالفها ، مستقلا عنها جميعاً بمنهجه الذي امتاز بطابعه الخاص فى الفهم والتحقيق ، وهو طابع الفكرة العقلية العملية ، أو طابع الفكرة الصالحة للتعليم والإفادة بالتربية والهداية .

فهو مع الفلاسفة الإلهيين فى مسألة الوجود الإلهي أو الوجود المطلق ، ولكنه لايقف بإدراكه للقدرة الإلهية عند استحالة الخلق من العدم ، لأن الوجود المطلق فى عقيدته ، وتفكيره ، لايستحيل عليه أن يفيض نعمة الوجود على خلقه ، فليس الخلق من العدم بالمستحيل . بل المستحيل هو العدم نفسه مع وجود الخالق المريد الفعال لما يريد . ولاتكفير عنده لمن قال بقدم العالم وهو يؤمن بأن الله هو الفاعل لما أراده من خلقه . إذ كانت إرادة الله قديمة لاندري كنه عملها السرمدي خارج الزمان ، وكان الواجب فى مسألة وجود العالم أن نؤمن بأن له موجداً كما شاء ، فلا يكفر من قال إن الله أوجد العالم فى القدم وإن يكن مخطئا فى التفكير . قال فى تعليقاته على العقائد العضدية : « واعلم إنى وإن كنت قد برهنت على حدوث العالم ، وحققت الحق فيه ، على حسب ماأدّى إليه فكري ، ووقفنى عليه نظري ، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروباً من الدين القويم ، وإنما أقول إنهم قد أخطأوا فى نظرهم ولم يسددوا مقدمات أفكارهم » .

ثم قال : « ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد لا يعول على التقليد فى الاعتقاد ، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ ، ولكن خطاه هادٍ الله واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر اليقين » .

وهو مع المعتزلة فى تحكيم العقل والاستهداء به إلى هدى الدين ، ولكنه لا يرى رأيهم فى الاستغناء بالعقل وحده ، لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقل وبين الاكتفاء بالعقل فى المسائل النظرية والشرعية ، إذ لابد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية ، مادام العقل يعلم أنه لاينفذ إلى كنه الأشياء ، وأن العقول الإنسانية موكولة إلى حكمة الغيب حيث وقف بها مدى التفكير .

وهو مع المتكلمين فى استخدام القضايا المنطقية ، ولكنه يأخذ على غلاتهم أن استخدام المنطق يذهب بهم إلى السفسطة أحياناً ، ويدفع بهم إلى خلق المشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة فى غير داع إلى الإشكال .

وهو مع المتصوفة ، أو على الأصح مع الحكماء المتصوفين ولاسيما الأخلاقيين ، لأن التصوف عنده رياضة العقلية ، ولكنه يرى لهذه الرياضة جانباً غير الجانب الحسى من الحياة الدنيوية يسميه « ذوقاً » ويحمد من صاحبه أن يروض عليه ضميره ووجدانه ولايدين به أحداً من المقيدين بالحياة الطبيعية أو الحياة الحسية ، لأن الأمر فى هذه الحياة لما يستقيم عليه صلاح الجماعة ، ولامحل فيه للذوق الخاص الذي لاتراض عليه طبيعة العموم .

وجماع القول فى مذهب الأستاذ الإمام أنه كان مذهب « المصلح الإسلامي المفكر » الذي أعطى التفكير النظري كل حقه ولكنه أخذ منه حق العمل على الإصلاح الرشيد المستنير ، واستخلص منه العقيدة الإسلامية خالصة من عقبات الجمود والخرافة التى تصدها عن التقدم وتقعد بها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والضمير الحر والكفاية الخلقية والمادية لمناهضة القوة المستطيلة عليها بسلاح العلم والمال – تلك القوة التى أنزلت المسلمين فى العصر

الحديث منزلة المغلوبين المستعبدين ، ومن حقهم لو عرفوا دينهم حق معرفته أن يرتفعوا بأنفسهم عن مهانة الخنوع والاستعباد .

وقد كان له فى مذهبه هذا تلاميذ مؤمنون بالفكر والعقيدة فى أرجاء العالم الإسلامي من أقصاه فى المشرق إلى أقصاه فى المغرب ، وكان أكثر هؤلاء التلاميذ من قادة الفكر المتدينين يقومون بواجبهم المضاعف فى كل بلد إسلامي كما قام به الأستاذ الإمام فى وطنه ، فيكافحون الجمود من جهة ويكافحون التفرنج الذميم من الجهة الأخرى ، ويتعرضون فى وقت واحد لعداوة المتألبين عليهم من أنصار الاستعمار والاستبداد وأنصار الجهل المظلم والتعليم الفاسد ، وفئات النفعيين الذين يندسون بين جميع الصفوف ، حيث المنفعة على كل حساب ، ولو كان حساب الوطن والدين .

على أن تلاميذ « الفيلسوف » محمد عبده كانوا فئة معدودة تحسب بالآحاد فى كل أمه من أمم العالم الإسلامي ، وكان عليهم أن يعيدوا دعوته بألسنتهم وأقلامهم مرة أخرى حتى تبلغ إلى الأسماع والعقول ، وإنما انتشرت دعوته إلى الإصلاح أوسع انتشارها بين قراء تفسيره للقرآن وفتاواه لطلاب الفتيا الكثيرين ومقالاته وفصوله التى كانت تنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولاتخفى نسبتها إليه لنشرها فى مجلة « المنار » . وقد أنشأ مسلمو أندونيسية مجلة على مثالها سموها « المنير » تبلغ هذه الدعوة لمن لايقرءون العربية من أبناء الأمة الملاوية ، وتتبع مسلمو الهند دروسه كما توجهوا إليه بالاستفتاء فى كل مشكلة من مشكلاتهم الاجتماعية التى تصطدم عندهم بالعقيدة الدينية . . . ولما تسامع المسلمون فى الهند بانقطاع الأستاذ الإمام عن إدارة الأزهر وشاع بينهم أنه سيهجر التدريس وقع منهم النبأ موقع الهول الذي لايحتمل ، وكتب النواب محسن عميد كلية عليكرة ينعى رسالة الإصلاح فى العالم الإسلامى وينحي على الخديو وشيعته من الجامدين أشد الإنحاء ويقول إنهم « لو كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم وإياسهم من الجامع الأزهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع فى أرض مصر يكون فيها نشر التعاليم العالية . . . لكان فى ذلك بعض التعزية عما قد فاتهم من

ذلك فى الجامع الأزهر ، ولكن الذي ظهر لنا أنهم لايتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضاً . . . وعسى أن ينكشف لديهم أن أعضاء الدولة الذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لايرضون بأن يتاح لهم من التعاليم ماتستنير به قلوبهم وتستضيء به أدمغتهم ويطلعون به على حقوقهم الملية والسياسية » .

وقالت صحيفة الرياض بعد نشر الخبر ومعه خطاب الخديو : « عجبنا وعجب كل مسلم فى الهند من حكم سموه الذي قضى به فى جمع حافل من العلماء وشدد النكير على حزب المصلحين وجماعة المخلصين . . فالآن يصدق على من يخرج من الأزهر : ليس له فى الدنيا نصيب وماله فى العلوم الإسلامية من خلاق » .

وكان للنبأ فى البلاد العربية صدى كصداه هذا فى البلاد الإسلامية غير العربية ، وصححت ثورة الخواطر تقدير المصلحين أنفسهم لمدى انتشار الدعوة بين جمهرة المسلمين ومدى النكسة التى أصيبت بها حركة التجديد من جراء تلك الحملة المطبقة عليها من بين صفوف الجامدين وسماسرة الكذب والتشهير ، فوضح لهم بعد الغاشية الأولى أن دعوة الحرية الفكرية أقوى من أن تصدها عن طريقها مكيدة مفتعلة تقوم على التدبير المشترك بين الجمود والباطل ، لأن الجمود إدبار إلى الماضى لامحل له فى المستقبل ، والباطل غشاء دخيل لابد أن ينكشف عن معدنه الأصيل .

وفى مصر كانت مبادئ المصلح الحكيم تسري سريانها العميق إلى العقول الفتية وعقول الكبار من ذوي النيات السليمة ، وكانت تستقر على أسسها فى الوقت الذي خيل فيه إلى المستمعين لضجيج السعاية أن الأمة قد أعرضت عنه بأسماعها وقلوبها ، وأن حملات التشهير قد نالت من سمعته منالا يصرف الناس عن الاكتراث له والمبالاة بعلمه وعمله ، وأملى للمتوهمين فى وهمهم هذا أن الدعوات الفكرية لاتبرزها الحشود الجامعة كما تبرزها دعوات الحوادث السياسية ، فإذا سرت إلى العقول متفرقة لم تظهر فى الأمة مجتمعة إلا بما يكون لها من النتائج العامة فى الزمن الطويل ، ولكن المصيبة بفقد المفتى بعد اعتزاله إدارة

الأزهر هيأت لهذه الدعوة الفكرية حشودها الجامعة التى لن تتهيأ قبل ذلك لدعوة من الدعوات السياسية فى الأمور التى تشغل أذهان الجماهير ، ولم يكن للمفتى الفقيد حزب ذو أداة منتظمة تسخر أعوانه لجمع الجموع وتسيير المواكب ، بل كان صاحب السلطة الرسمية يعاديه ويغضب على مشيعيه ، وكانت صفة الفقيد الدينية لاتدع مكاناً للسلطة الفعلية فى تشييعه والاحتفال بجنازته ، وكان الوقت صيفاً قائظاً والغائبون عن المدن من معتادي الاصطياف خارج القطر وفى قرى الريف أكثر من الحاضرين . فغلبت الصبغة القومية على كل صبغة رسمية أو تقليدية فى تشييع رفات المفتى إلى مقره الأخير من الإسكندرية إلى القاهرة ، بل غلبت هذه الصبغة على الصبغة التقليدية التى تعودناها بمصر فى تشييع الجنازات ، إذ كان المفتى فى حياته ينكر هذه المظاهر التقليدية ويعلن النهي عنها ، فكانت موجة الحزن التى غشيت ألوف المشيعين على طول الطريق دفعة من أعماق القلوب والضمائر عرفت بها الأمة مبلغ شعورها بعظمة الفقيد الراحل وعظم الخسارة بفقده ، وجاوز الزحام كل ماقدرته الشرطة واتخذت له حيطتها فى المدينتين منذ الصباح الباكر قبل خروج النعش من داره ، فتعطلت حركة الأسواق وأغلقت الدكاكين أبوابها للمشاركة فى موكب الجنازة ، واكتظت الأرصفة بالواقفين والسائرين ، ولم يبق أحد فى العاصمتين من ذوي الفكر والمنزلة لم يشترك فى ذلك الموكب الحافل الذي عمت التعزية فيه وجلت أن تخص عشيرة الفقيد أو ذويه ، ولم يدهش أحد من هذه البادرة القومية بطبيعة الحال ، كما دهش لها النزلاء الأوربيون الذين كانوا يتسمعون أخبار المعارك حول الإصلاح الديني من بعيد ويحكمون عليها بمقدار ما ينتهى إليهم من لغط الصحافة وأقاويل المرجفين ، فقالت صحيفة الفاردي ألكسندري « إن توارد الجماهير لتشييع الجنازة يخمد أنفاس القائلين بأن المفتى لم يكن محبوباً فى الأمة المصرية » (١) . وقالت صحيفة ليجيبت : « إنه مشهد مهيب من أجل المشاهد وأشدها تأثيراً فى النفوس . كان يشتد زحامه بجماهير الناس

(٣) عدد ١٢ يوايه ١٩٠٥

المصطفين على جوانب الطريق التى مر بها حتى لقد توقفت حركة التجارة فيها.. وكان الناس فى سكون وإجلال خلال مرور الجنازة . يخيل إلى الرائى أن جميع سكان القاهرة الوطنيين قد حضروا ليؤدوا آخر فريضة من الإجلال والإعظام لذلك الشيخ الجليل . وبينهم عدد عظيم من الأوربيين » .

وقد تمخضت هذه البادرة القومية عن معناها العملي الدائم ، ولا يمكن أن يكون لها غير معنى واحد هو الذي شوهد فى واقع الحياة القومية بعد ذلك وبرزت حقيقته فى كل مهمة تتطلب الرجال العاملين من المفكرين المؤمنين بفريضة الإصلاح ورسالة التقدم . فقد شوهد تلاميذ المصلح الكبير على رأس كل حركة جادة من حركات النهضة الوطنية أو الفكرية ، وتلفتت الأمةبعد وفاته تبحث عن القادة العاملين فلم تجد بين المتقدمين للقيادة من هو أقدر على قيادتها وتسديد خطاها وتقرير مطالبها من زمرة الفقيد وخيرة أشياعه وتلاميذه ومريديه ، لا فرق فى ذلك بين شئون الدنيا وشئون الدين ، وحسب القارئ ما يمكن حصره فى الشئون الدينية التى تتصل بالجامع الأزهر ومعاهد التعليم على منهجه ، فلم يكن أظهر بين مشايخه وأقطابه من الشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت ، وكلهم من مريديه المؤمنين برسالته ، وغيرهم كثيرون مثلهم وإن لم يحضروا كلهم على يديه . أما فى شئون النهضة الوطنية على اختلافها فلا حاجة إلى التخصيص باسم واحد من أسمائها أو فرع واحد من فروعها ، فكلها بلا استثناء تقترن باسم – أو أكثر من اسم – بين شيعة الأستاذ الإمام ، وقد كانت ثورة مصر الكبرى على الحملة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى – بزعامة سعد زغلول – مثالاً للأمانة الخلقية والنفسية التى أودعها الأستاذ الإمام فى نفوس شيعته وخاصة صحبه ، وأهلتهم فى نطاقها الواسع لتلك المهمة الجامعة ، كما أهلتهم لما دونها من المهام المتفرقة فى كل نطاق محدود .

* * *

وأكبر مااستفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ الإمام فى الإصلاح

والحرية الإنسانية أنه أعاد إليه الثقة بعقيدته فى هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه إلى العمل عقبات الجمود والخرافة والتقليد . لأنه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التى يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه من جهة السطوة أو من جهة الإيمان بالعقائد والآراء . ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم وأجدى على المسلم العصري من ردود المدافعين عن الإسلام على جماعات المبشرين المحترفين . إذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لاتعدو أن تدور حول الشقاشق اللفظية التى تمس الأديان الأخرى أشد من مساسها بالإسلام فى العصر الحاضر أو العصور الماضية ، ولكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف أرنست رينان والوزير جبرايل هانوتو كانت بحاجة إلى الفكر العصري المؤمن بالدين لمواجهة الأفكار العصرية التى لعلها لاتؤمن بالإسلام ولابغير الإسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة المعلقة فى انتظار الجواب من ذي ثقة باعتقاده وذي ثقة بتفكيره وذي طوية لاترتقى إليها الظنون ، وكان الأستاذ الإمام مليئاً بكل مايتطلبه العقل المسلم المستنير فى عصره من آيات الثقة وحجج الإقناع .

كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود من يعلم ما قد علموه عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب وطبائع الأجناس والسلالات ويزيد عليهم بالإيمان الثابت والأريحية الإنسانية والهمة التى ترفعه إلى مقام الرسالة الروحية . إذ لا رسالة لأمثال رينان وهانوتو فى عالم العقيدة ولا فى عالم الإصلاح . وقد كان – قدس الله روحه – أعلى طبقة من مناظريه فى مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقاتلين ، فكان رينان وهانوتو يقابلان بين الإسلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ولم ينزل الأستاذ الإمام إلى مضمارهم إلا ليدفع عن عقيدة الإسلام دون أن يقدح فى عقيدة المسيحية ، بل كان دفاعه عن الإسلام فى وجه الأوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية وهم أبعد ما يكونون عن المسيحية السمحة كما يعرفها الأستاذ الإمام .. ولم يخرج من ردوده بتنزيه الإسلام وتشويه المسيحية . . بل خرج منها جميعاً بتنزيه الديانتين وإثبات الحقيقة التى يدين بها

من يدين بكتاب الإسلام : وهي أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ومن يدين بالإسلام على أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوماً أن يصاحب أهل الكتاب على سنة أهل الكتاب .

وقد ألهم فضلاء المسيحيين ذلك من وحي فكره ووحي اعتقاده ووحي كلامه فى تفسير القرآن وشرحه للدين فى كل موطن أقام به أو رحل إليه ، فكان أدباء المسيحيين يتسابقون إلى دروسه بمساجد بيروت أيام منفاه ، وكان القس الإنجليزي إسحاق تايلور يرى أن شرح المسيحية كما يبسطه الأستاذ الإمام يوشك أن يعينه على إقناع الأوربيين بالتوحيد بين الديانتين على الجادة الوسطى التى يلتقى لديها المؤمن بالأناجيل والمؤمن بالقرآن . وعبر العلامة يعقوب صروف تعبيره الصادق عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال ساعة دفن الأستاذ الإمام لمن حوله من تلاميذه : « إنى أسمعكم تقولون فقيد الإسلام والمسلمين ولا تزيدون ، إنه فقيد الفكر والعلم حيث كان . . إنه فقيدنا أجمعين » .

الفلسفة الاجتماعية :

ومن البديهي أن الفيلسوف المصلح لا يقصر تفكيره على العقليات والإلهيات ، أو على فلسفة ما وراء الطبيعة كما تسمى عند المعاصرين ، إذ لا بد من فلسفة اجتماعية يتبعها فى إصلاح المجتمع على مبادئه التى يتوخاها ويتخذها هادياً له إلى فضائل المجتمعات المثالية ومواطن عيوبها التى يجتهد اجتهاده فى تبديلها أو إزالتها . وهذا هو الواقع فى منهج محمد عبده المصلح الفيلسوف . فإن فلسفته الاجتماعية مفصلة واضحة من كل ماكتبه فى مطولاته ومختصراته بلا استثناء كتابته عن العقليات والإلهيات ، ولكننا نستطيع أن نسمي فلسفته الاجتماعية فى لبابها فلسفة أخلاقية لا تفرق بحال بين مشاكل الاجتماع ومشاكل الأخلاق ، وليس للاجتماع عنده مشكلة قائمة إذا توفرت العزائم على علاج آفات الخلق فى الفرد والجماعة ، وليست عنايته بالناحية الخلقية سهواً عن أثر الشئون المادية أو شئون النظام فى آداب المعاملات وآداب النفوس على الإجمال ، لأنه كان يؤمن بأثر الفاقة والثروة معاً على ضمائر الناس من الرجال والنساء .

وكان يقول دائماً إن العفة ثوب تمزقه الفاقة وأن الثروة بغير عمل مفسدة . وعناصر الكيان الاجتماعي عنده – كما عددها فى رده على هانوتو سبعة : هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . فليس قيام الكيان الاجتماعى على الأخلاق فى رأيه سهواً عن عمل التجارة والصناعة ولا عن عمل النظام العادل فى سياسة الناس ، ولكنه كان يعتبر أن الجهل فقر أشد على الناس من فقر المال ، وهو القائل فى إحدى خطب الجمعية الخيرية : « إن بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ولا بلاد البرد القارس المميت ، ولا بلاد الشقاء التى لا ينال الإنسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم ، بل نحن فى بلاد رزقها الله سعة من العيش ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة ، ولكنها ويا للأسف منيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر ، فقر العقول والتربية » .

وقد قال قبل ذلك فى خطاب المدرسة السلطانية ببيروت : « . . إننا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجتنا ولكن القاصر عن الحاجات هو إدراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغنى يبذل أموالاً جمة فى زخارف زينة لا مقام لها فى نظر العاقل ولا يرى فى بذله هذا مغرماً ، ثم إذا دعي إلى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ويعطي وهو كاره » .

فإذا تحرى النظام العادل توفير أسباب المعيشة الحسنة فالرخاء – وهو غاية ما يبلغه هذا النظام — لا يكفى لإقامة كيان المجتمع ولا لحفظ بقائه من عوامل فنائه ولا من أخطار أعدائه ، ولن يقام للمجتمع كيان بغير المعرفة العلمية والتربية الأخلاقية . ولن يقر له هذا الكيان إذا حرم منهما أحد جنسيه وإحدى طبقاته .

ومن أخطر أسباب الضعف التى أصابت المسلمين كما قال فى رده على هانوتو : « أن النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع » . وقد قال فى إحدى خطب الجمعية الخيرية الإسلامية : « نحن نتمنى تربية بناتنا ، فإن الله تعالى يقول : ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشرك الرجل والمرأة فى

التكاليف الدينية والدنيوية . . وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهوين الغباوة من الجرم العظيم » .

وكان أشد ما ينعه على من يحسبون أنفسهم من العارفين قولهم : لا شأن لنا بالعامة ، فلا يمكن الإنسان أن يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطة بينه وبينهم » [٤] .

والعلم فى رأي الأستاذ الإمام سبب من أسباب الثروة والقوة وسبب من أسباب المعرفة الذهنية التى تبصر العقل بأدوات النجاح فى أعمال المعيشة ، ولكن التربية الأخلاقية شيء آخر غير المعرفة الذهنية . ولا سيما المعرفة التى تتأدى آخر الأمر إلى الإيمان بالمادة دون غيرها ، وهو ما يسمونه بالفلسفة المادية . وقد لمس الأستاذ الإمام آثار هذه الفلسفة المادية فى حضارة الغرب فأشفق من عواقبها على بنى الإنسان وزادته اعتقاداً بضرورة الدين لصلاح النفوس البشرية وهداية الأمم فى حياتها الاجتماعية . وأكدت له هذه الضرورة مناقشته للفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر (سنة ١٩٠٣) إذ قال له الفيلسوف الإنجليزى : إن الإنجليز يرجعون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة . فسأله الأستاذ الإمام : وفيم هذه القهقرى ؟ قال سبنسر : إنهم « يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا . ثم سرت إلينا عدواها . فهي تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربة » ثم قال : إنه لا أمل له فى صد هذا التيار « لأنه لا بد أن يأخذ مده إلى غاية حده فى أوربة . إن الحق عند أهل أوربة الآن للقوة » .

وفارق الأستاذ الإمام دار الفيلسوف وهو يدير فى خاطره كلمة الحق للقوة ويصف أثرها فى نفسه ويحس أنها ما كانت لتحدث لديه هذا الأثر لو جاءت من ثرثارة يهرف بما لا يعرف ثم يدون هذه الخاطرة فى مذكراته :

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد فى راحة

(٤) راجع منشآت الأستاذ الإمام صفحة ٦٤٩ .

الإنسان . . أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعود إليها هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الإنسانية وصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحانى ؟ . حار الفيلسوف فى أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع إلى الدين . الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها فى كل زمان . لكنهم يعودون فيجهلونها » .

* * * * *

الفلسفة الأدبية :

وربما كانت آراء محمد عبده – المفتى الأكبر – فى الفنون الجميلة أقرب إلى تعريفنا بسعة الأفق التى امتاز بها هذا العقل الراجح من سائر آرائه فى المسائل العقلية والاجتماعية ، فإنه كان يكتب قبل ستين سنة ليحبب الفنون الجميلة إلى الناس فى الوقت الذي كان الرأي الشائع فيه عن النحت والتصوير أنهما حرام مستنكر . . وكان المتعلمون العصريون أنفسهم يحتقرون هذه الفنون ولا ينظرون إليها نظرة جدية أو يحسبونها حتى من الكمالات المحتملة فضلا عن اللوازم المطلوبة . وقد خلا الشرق العربى من مدرسة واحدة لهذه الفنون ، وقلت العناية بها فى الصحف السيارة ولم يظهر – بعد – لها أثر على اللوحة البيضاء يعود الناس أن يحتفلوا برؤيتها ، فكان أكثر ما ينتظر من رجل الدين المتحرر أن يدفع عنها وزر التحريم ويجعلها من المباحات السائغة لمن يزاولها . ولكن محمد عبده – المفتى – كان يكتب يومئذ لينوه بها ويفسر معنى الإقبال عليها بين الغربيين – لمن يجهله منا – بأنها عندهم كالشعر عندنا وأنها لغة نفسية تفرق فى تعبيراتها بين أدق المعانى الشعرية التى لا تظهر التفرقة بينها من أسمائها وأوصافها . وفى ذلك يقول من فصل كتبه فى سنة ١٩٠٣ :

«إذا كنت تدري السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه ، والمبالغة فى تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات

من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الانسان أو الحيوان ، فى حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة ، فتجد الفرق ظاهراً ، باهراً ، يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ولم أجمعهما هنا طمعاً فى جمع عينين فى سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة . ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك.. وأما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ، إذا دعتك نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : رأيت أسداً – تريد رجلاً شجاعاً فانظر إلى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلاً أو الرجل أسداً . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها . . » .

ويعرض بعد ذلك حكم الشريعة فى تلك الفنون فيقول : «ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية – هل هذا حرام أو جائز ؟ أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ . فأقول لك إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم الممثال ، أو الصورة ، قد محي من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى وهو يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ، أو مافى معناه مما ورد

فى الصحيح فالذي يغلب على ظنى أنه سيقول لك أن الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى العهد لسببين : الأول اللهو ، والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين والثانى مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به . فإذا زال هذا العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء . مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع نزاع . وأما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر . . . ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فإنى أظن أنه يقول لك : إن لسانك أيضاً مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ . . . وبالجملة يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ولم يطلع لهم أحد على سريرة ؟ . . . وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ويطلبون منها ما يخشون ألا يجيبهم الله فيه ويظنون أنهم أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . . لا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان ، لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية . . . » .

والمفتى هنا يشير إلى « المفتى» بصيغة الضمير للغائب ولا يجزم بفتواه جزم التوكيد لأنه كان يكتب تلك الرسائل من أوربة ويوقعها بتوقيعه المستعار كما تعود فى كتابة رسائل الرحلات .

هذا رأيه فى الفنون الجميلة التى لم يشتغل بها ولم يشتغل بها فنان خبير بها فى عصره ، فلا عجب أن يكون رأيه فى فنه الجميل الذي كان هو إمام المشتغلين

به – وهو فن البلاغة – رأي الرائد الذي يتذوق أسراره فى أشكاله ومعانيه تذوقاً سبق به النقاد من خلفائه ، ولا يزال منه من يقتفى آثاره ولا يدرك مداه (٥)

كان محمد عبده الناقد البليغ يوقن أن اللغة مادة البلاغة وجمال التعبير ، وكان من شواغله الكثيرة شاغل واحد لم تشغله عنه مهمة من مهام أعماله المتعددة التى تنوء بالعمل منها كواهل المنقطعين له والمتوفرين عليه . وذلك الشاغل الواحد هو إحياء اللغة مادة وعلماً ودراسة وكتابة . فكان يعين جماعة إحياء الكتب العربية بعلمه ووقته وماله ونفوذه ، وكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه أو يتوه بها فى دروسه وتفسيراته من قبيل نهج البلاغة ومقامات البديع ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . ومن أهم المراجع اللغوية التى بذل الجهد فى استحضارها وتشجيع الواقفين على طبعها كتاب المخصص لابن سيده ، وهو نوع من المعجمات المبوبة على حسب المعانى والأغراض أنفع من أكثر المعجمات التى لا عناية لها بغير جمع المفردات .

ومذهب محمد عبده الناقد فى تحصيل مادة اللغة أنها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات ، لأن دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعة التعبير تحيى الفهم . وترك الاشتغال بها «موت للحياة العقلية » . . وكان يقول إن الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه «صعب على كل عقل تعلم البنانى على السعد» ولا قدرة للأديب على القصد فى التعبير بغير توفير مادته من اللغة ، ولا خير فى المبالغة « فإنما يأتى بالمبالغة من كان مجازفاً فى رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق » . . ورأيه فى الشعر البليغ مع جودة اللغة «أنه لا يكون شعراً إلا إذا كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر» وإلا فهو نظم لابلاغة فيه . وقد كانت توجيهاته لتلاميذه من الشعراء فاتحة اشتغال شعراء عصره بالتعبير عن الحياة الإنسانية – عامة وخاصة – ولولاه لما ظهر كثير من القصائد فى الموضوعات العامة ، ومنها قصائد كثيرة لحافظ إبراهيم وعبد المحسن الكاظمى ومحمد إمام

(٥) تراجع كلماته المأثورة فى جزء المنشآت من تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

العبد ، وربما أملى على الشاعر ما يقوله حضاً لبعض المحسنين بأسمائهم على معونة المنكوبين ، كما فعل من قصيدة حريق ميت غمر التى نظمها حافظ إبراهيم .

* * *

ويصدق على الشيخ محمد عبده الأديب أنه استعاد أطوار الأدب فى كتابته من نهاية عصر التقليد إلى الطور الأوسط من عصر التجديد الحديث . ففى كتاباته الأولى كان يلتزم السجع على عادة المتأخرين مع اجتناب اللغو الذي كانوا يخلطونه بمقالاتهم ولا يتحرون فيه معنى مفهوماً يقصدون إليه ، ثم تخلص من قيود السجع وترسل فى أسلوبه مع تحري الفصاحة فى الكلمة وتصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التى كانت تتخلل الكتابة فى عصره ولا تزال تتخللها فى كتابة المتحرزين من هذه الأخطاء ، لغلبتها الطويله منذ أزمنة بعيدة على المفردات والتراكيب . وقد سلم أسلوب الأستاذ الإمام منها إلا القليل الذى لايصعب رده إلى القاعدة ببعض التجوز والتأويل ، ولو من قبيل تجويز الخطأ المشهور . وقد نظم الشعر فى الحوادث التاريخية وفى بعض المناسبات الخاصة ، وعده من النظم الذي يراد للتدوين أو التذكير ، ولا يرتضيه شعراً على مذهبه فى فن الشعر بين ألوان الفن الجميل .

ولم يتسع له الوقت لتأليف الكتب فى علومه التى كان يشارك فيها مشاركة وافية كعلوم الدين والفلسفة والبلاغة ، ولكنه فسر القرآن الكريم إلى سورة النساء . وفسر السور التى كان يحفظها التلاميذ من الجزأين الأولين . وشرح الفلسفة الإسلامية فى تعليقه على العقائد العضدية ، والمنطق فى شرحه للبصائر النسفية ، وكتب رسالة التوحيد تبسيطاً لهذه الفلسفة ، واجتمع من مقالاته فى الرد على هانوتو كتيب صغير ، واجتمع من مقالاته عن الإسلام والنصرانية كتاب أكبر منه وأوسع فى بابه ، وله فى الأدب شرح نهج البلاغة ومقامات البديع ، وله فى التصوف رسالة الواردات التى كتبها فى صباه . ورسالة أخرى فى علم الاجتماع ألفها يوم عمل فى التدريس بدار العلوم . ولكنها ضاعت ولم يبق من فصولها – أو على الأصح من معانيها – غير ما أودعه بعض البحوث فى الوقائع

المصرية والأهرام وصحيفة العروة الوثقى ومجلة النار وتقديمه لترجمة رسالة الرد على الدهريين .

ولا يحسب هذا المحصول قليلا من مجهود التأليف فى حياة رجل جم المشاغل والأعباء توفى وهو يناهز الثامنة والخمسين ، ولكن عظمة هذا العقل الكبير وسعة الآفاق التى كان يجول فيها بتفكيره وجهوده تصغر هذا المحصول بالقياس إلى المحصول الذى كان مستطاعاً له مع اليسر وقلة الكلفة لو أنه انقطع للتأليف . فليست هذه المؤلفات ، على وفاء الفلسفى منها فى بابه ، إلا كالشعاع القوى الذى ينبثق عن الشمس فيدل على ما احتجب منها ، ولكنه يعطى الناظرين كل ما تعطيه الشموس من ضوء النهار ، تتلقاه النوافذ وتحول دونه الجدران .

* * *

ولا نحسب أننا نحيط بذلك الأفق الواسع من شتى نواحيه إذا ختمنا الكلام على المصلح الفيلسوف دون أن نذكر حظه من فنون الرياضة البدنية إلى جانب حظه الكبير من رياضات العقل والروح . فقد كان هذا المجاهد الباسل فى ميادين الإصلاح فارساً سباقاً فى ميادين الفروسية والرياضة البدنية ، وكان فتيان إقليمه يرحلون إليه لمباراته واكتساب الشهرة بسبقه أو اقتران أسمائهم باسمه ، وظل إلى آخر أيامه يركب الجواد أحياناً من بيته بعين شمس إلى القاهرة أو من القاهرة إلى بيته . . وكان يمتطيه كثيراً فى ذهابه إلى الجامع الأزهر ، ويقول لمن يراجعه من أنصار التقليد إن الفروسية كانت من سمت النبوة ، وأن العالم الذي يتوكأ على السند إلى اليمين والشمال إنما يدرج – كما قال فى تقريعه اللاذع – على سمت «ستى هانم» وليس هو بسمت علم ولا عمل . وقد شهدناه فى أسوان يحضر على صهوة جواد إلى ميدان الرياضة ليشهد مباراة كرة القدم بين مدرستها وإحدى المدارس القريبة منها ، فأعجبنا منه رجل الدين المهيب ، يزيده وقاراً ولا يخل بوقاره أن يقدس رياضة الأبدان بقداسة الدين ؛ وفهمنا بهذه الزيارة الصامتة درساً عن الإسلام فى عصر الحركة التى لا تهدأ والحياة التى لا تقبل الجمود والوناء ، إنه دين النفس القوية فى الجسد القوي ، لا إمام له أحق بالاتباع من هذا الإمام .

شخصية ولا شخصية

لوحظ فى كتابة التراجم والسير أن البحث عن أحوال الشخصيات المشهورة يغري القارئ — والكاتب معاً — بالبحث عن أحوالها « الشخصية » ويشوق المستطلع إلى جوانبها الخاصة التى تقابل جوانبها العالية ، أو جوانبها التى اشتهرت فيها أعمالها العامة .

ونلاحظ قديماً وحديثاً – قبل كتابة هذه الصفحات التى نختمها بهذا الفصل — أن سيرة محمد عبده كانت إحدى السير التى يقع فيها الاستثناء القليل من هذه القاعدة ، فإننا نزداد اكتفاء بأخباره العامة — عن أخباره الخاصة — كلما توسعنا فى معرفتنا به ومعرفتنا ببواعث أعماله ، كأننا نحس بعد التوسع فى المعرفة بشخصيته أنها « شخصية » ولا شخصية ، أو أن أعماله الخاصة هي أعماله العامة بغير حاجز من السر أو العلانية يفصل بينهما ، فكل ما فيها من بواعث « الأنانية » والأثرة فهو فيها جنباً لجنب إلى بواعث الإنسانية والإيثار .

يشوقنا كلما فهمنا عملاً من أعماله أن نراه ونتأمل صورته المشهودة ، كأنما نسائل أنفسنا : أي طلعة تكون لهذا الإنسان الذي غاب بجمع نفسه وعقله فى الشعور الإنسانى حتى كاد أن يخفى بشخصه عن عالم الملامح والقسمات ، لولا أنه شخص عظيم لايجوز عليه الخفاء .

نتطلع إلى رؤيته لنرى كيف تتمثل فيه هذه « الإنسانية » الضافية مطبوعة أمام النظر بطابع إنسان واحد ، ولكننا لانبحث كثيراً بعد ذلك عما يعنيه . لأننا علمنا أن شئونه الخاصة لاتنعزل عن شئونه العامة ، وأن قرابته فى داره وجواره هي إحدى قراباته العامة – قرابته الإنسانية ، وليست قرابة أخرى لها حال غير هذه الحال ، ووجود غير هذا الوجود ، وحجاب يتغير جانبه من هنا عن جانبه من هناك .

رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيته مرات لاتحصى فى صوره

الشمسية التي لاتلتبس إحداها بملامح صورة أخرى ، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة إلى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير إليه :

قوة وطيبة متفقتان لايبين لك أنهما تنازعتا يوماً أو تتنازعان . فهو قوي لاينازع طيبته نية من نياتها ، وهو طيب لاينازع قوته دافعاً من دوافعها ، وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم في أخلادنا من سمات النبوة ، وهي في طلعتها الإنسانية بشر مثلنا ، وإن لم نكن نحن بشراً مثلها فيما تتلقاه من وحي الله .

قال عنه تلميذه وصديقه وأقرب الناس إليه في عامة أمره وخاصته صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا تغمدهما الله برضوانه : « إنه سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس وصادف تربية صوفية نقية زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي وأعدته لوراثة هداية النبوة فكان زيته في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار » .

وافتتح ترجمته بعد وفاته بنحو عشرين سنة بقوله عنه : « إن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقاً وعملاً وصدقاً وإخلاصاً ، وإن من مناقبه ما ليس له فيه ندّ ولا ضريب ، وإنه لهو السري الأحوذي العبقري » .

وقال قبل ذلك : « إنني وأيم الحق لم أطلع له على عمل إلا الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء » .

وقال قبل ذلك : « إنني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد ، فهو أكمل من عرفت من البشر ، ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى أو الحكمة والفلسفة أو تاريخهم الصحيح رأى كثيراً من العجر والبجر . فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرئاسة » .

وهذا السمت الذي وصفه صاحب المنار بعد الخبرة الطويلة هو السمت الذي كان يبده الناظر إليه من الغرباء عند النظرة الأولى ، كما وصفه هارولد سبنسر

كاتب حزب الأحرار الإنجليزي في صحيفتهم الديلي كرونكل بعد وفاته بأسابيع ، إذ يقول عن لقائه له بدار صديقه عدو الاستعمار ويلفرد سكاوين بلنت :

« هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام ولتفت فجأة لسماعه وقع حوافرفرس ، فقال : ها هو الرجل . . . فالتفت مثله فإذا أنا بصورة إنسان يقول الناظر إليها إنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين . شيخ حسن البزة جهير يمتطي فرساً عربياً كميتاً جميلا يقبل نحونا على مهل » .

كانت له طلعة وسيمة مهيبة ، تتوقد فيها عينان نفاذتان . على قامة معتدلة لا إلى البدانة ولا إلى النحول ، أبيض اللون إلى سمرة ، شائع الشيب في رأسه ولحيته قبل أوان المشيب ، وبنيته على ما وصف به شبابه بنية رجل سليم الجسد مكين البنيان ، تعرض في عنفوانه لتسمم سرى إلى الدم من دمل لم يعقم ، فنجا منه بمعجزة الجسد المكين والدم القوي والعزيمة الصادقة ، وظلت عقابيله تعاوده فيما كان يعتريه من آلام المفاصل حيناً بعد حين ، ولم تكن وفاته دون اثنتين بمرض من أمراض الهرم العاجل ، ولكنه توفي من أثر سرطان في الكبد لم يتحقق منه الأطباء قبل استفحال الداء » .

هذه هي شخصية محمد عبده لمن تشوقه الشهرة المسموعة إلى الرؤية المشهودة . فإذا تطلع إلى الخبر الخاص من سيرته فالذي يعلمه بعد البحث الطويل قليل ، ولكن القليل فيه والكثير يستويان في التعريف بما يعنينا من تلك العظمة وما يعنيها : شخصية ولا شخصية ، وإنسان له « أنانية » تخصه من بين جميع الناس ، ولكنها كأنانية النوع الإنساني كله تميزت بمكانها في فرد إنسان .

توفي عن زوجته اللبنانية السيدة رضا حمادة من آل بيت حمادة . ولم يعقب من الأبناء الذكور غير ولد واحد توفي في طفولته ، وأعقب أربع بنات كانت إحداهن دون سن الزواج عند وفاته ، وتزوج أخواتها بثلاثة إخوة هم الأستاذ محمد يوسف المحامي وشقيقاه الأستاذان عبد اللطيف وعثمان .

وكان له عند وفاته ثلاثة إخوة من أبيه ، أصغرهم « حمودة بك » الذي

رباه من طفولته وتولى عنه شئونه الخاصة التى لم يفرغ لها طول حياته ، وهو الذي اشترى باسمه أرض الدائرة السنية التى كانت تباع بالتقسيط ، واشترى باسمه خمسة وثلاثين فداناً من صحراء عين شمس كان الفدان منها يباع بعشرة جنيهات ، ثم بيع بعد ذلك بخمسة وأربعين بعد البدء بتعمير الصحراء ، أما مسكن الشيخ محمد عبده بصحراء عين شمس فهو فدان من الأرض الخلاء تركه له المستشرق ويلفرد سكاوين بلنت يوم أمر بالسفر من الديار المصرية ، وبنى عليه مسكناً متواضعاً هو الذي اشترته وزارة الشئون الاجتماعية لتخليد ذكراه ، ومن ثمنه سدد الورثة ما بقى من أقساط الثمن على الأرض التى اشتراها أخوه فى حياته ، وقد كانت الأسرة تملك نحو أربعين فداناً من أرض البحيرة المثمرة ، فلم يجتمع فى يديه من ميراثه ومن مرتباته وأثمان مؤلفاته غير ذلك المقدار اليسير من المال الذي يكفى لشراء الفدادين من أرض فى الصحراء أو أرض تباع بالتقسيط .

* * *

وهذا المصلح المحسن الذي لم يفارقه شعور الحاجة قط ليغنى ذوي الحاجات ، لم يخامره الشعور بالحاجة يوماً ليطلب الغنى بما تملكه الأيدي ويحفظ فى صكوك المواريث .

سنوات فى تاريخ الأستاذ الإمام

سنة	
١٨٤٩	ولد بقرية محلة نصر .
١٨٥٩	بدأ تعلم القراءة بمنزل والده .
١٨٦٢	تلقى أول دروس التجويد بالمسجد الأحمدى .
١٨٦٤	تلقى أول دروسه العملية بالمسجد .
١٨٦٥	عاد إلى قريته وتزوج .
١٨٦٥	أعاده والده إلى المسجد
١٨٦٥	حضر أول الدروس بالجامع الأزهر .
١٨٦٩	لقى السيد جمال الدين .
١٨٧٣	أخذ فى الكتابة المنشورة .
١٨٧٥	ألف حاشيته على شرح الدوانى .
١٨٧٧	نال شهادة العالمية .
١٨٧٨	عين مدرساً بدار العلوم .
١٨٨٠	عين محرراً للوقائع المصرية .
١٨٨٢	نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرابية
١٨٨٤	سافر من بيروت إلى باريس لإنشاء مجلة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين .
١٨٨٥	عاد إلى بيروت واشتغل بالتدريس وترجم رسالة الرد على الدهريين وشرح مقامات البديع ونهج البلاغة .
١٨٨٩	عاد إلى مصر وعين قاضياً بالمحاكم الأهلية .
١٨٩١	عين قاضياً بمحكمة الاستئناف .

١٨٩٥	عين عضواً بمجلس إدارة الأزهر .
١٨٩٧	ألف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصيرية .
١٨٩٩	عين مفتياً للديار المصرية ثم عضواً بمجلس الشورى .
١٩٠٠	انتخب رئيساً للجمعية الخيرية الإسلامية .
١٩٠٢	ألف كتاب الإسلام والنصرانية .
١٩٠٣	نشر الرد على هانوتو .
١٩٠٥	اعتزل مجلس إدارة الأزهر .
١٩٠٥	توفى بالاسكندرية .

فهـــرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
العصر	٥
القرية	١٣
الأزهر	٢٦
محلة نصر	٤٧
محمد بن عبده بن حسن خير الله	٥٥
محور حياة	٦٥
مع جمال الدين	٨٤
مع الثورة العرابية	١٠١
القضية القومية	١٠٩
فى الأزهر	١١٨
مع عباس الثانى	١٣٧
المحسن المعلم	١٥٤
المصلح الفيلسوف	١٦٤
شخصية ولا شخصية	١٨٩
سنوات فى تاريخ الأستاذ الإمام	١٩٣
فهرس	١٩٥

WWW.AL-MOSTAFA.COM